

شماره انتشاره کتاب المصنوع المصوره الكتاب  
فنا بتسليم الكتاب ونطقنا جميعه، مكتبة فلسطين للكتاب المصوره



مذڪرات

عبدالرحمن الشهبند



دارالارها

مذكرات

الدكتور عبَّاس الرحمن الشهبندر

الطبعة الأولى  
١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م

جميع الحقوق محفوظة

مذكرات

الدكتور عبد الرحمن الشهبندر

دار الأشتاد

للطباعة والنشر والتوزيع

مرب ٦٣٤٧ - بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## عبد الرحمن الشهبندر

١٢٩٩ - ١٣٥٩ هـ

١٨٨٢ - ١٩٤٠ م

عبد الرحمن بن صالح شهبندر : طبيب ، خطيب ، من أهل دمشق ، مات والده وعمره ست سنوات ، فربته أمه ، وتخرج من الجامعة الأميركية ببيروت ، طبيا ، سنة ١٩٠٤ م . وكان ممن دخل في جمعية « الاتحاد والترقي » بعد الدستور العثماني ، فلما اتجهت سياستها الى « تترك » العرب ناوأها .

ونشبت الحرب العامة (١٩١٤) فتواري ، منتقلا الى العراق فمصر ، واقام في القاهرة الى ما بعد الحرب ، وعاد الى سورية سنة ١٩١٩ م . وعين وزيرا للخارجية فيها سنة ١٩٢٠ . واحتلها الفرنسيون بعد وقعة ميسلون (في الثامنة نفسها) ففادرها الى مصر فأقام نحو عام ، ورجع الى الشام ، فاشترك في حفلة للمستر كراين ( Charles Crane ) الاميركي ، فاعتقله الفرنسيون وسجن في قلعة دمشق وبيت الدين ثم في جزيرة ارواد سنتين وبضعة اشهر واطلق سراحه ، فشارك في انشاء حزب « الشعب » بدمشق ، وثار سورية ( سنة ١٩٢٥ م ) وهم الفرنسيون بالقبض عليه ، ففر الى جبل الدروز معقل الثورة ومنه

الى شرقي الاردن ثم الى القاهرة سنة ١٩٢٧ واختلف فيها مع  
اكثر العاملين لاستقلال سورية من اصدقائه الاقدمين ، فتناولت  
الصحف موقفه ، له وعليه ، وانصرف الى الاشتغال بالطب زمننا ،  
ثم اراد الاستقرار في دمشق ، فعاد اليها سنة ١٩٣٨ ، فبينما كان  
في « عيادته » دخل عليه ثلاثة اشخاص فقتلوه ، واعتقلوا واعدموا .

وكان يحسن الترجمة عن الانكليزية ، ونقل عنها الى العربية  
كتاب « السياسة الدولية » طبع لديزل يورنس ، وكتب مقالات  
في مجلتي المقتطف والهلال ، جمع بعضها في كتاب سماه : القضايا  
العربية الكبرى - طبع - وكان قد حاول قرض الشعر في صباحه  
فنشر له المستشرق الالمانى « كهيمغير » في مجموعته بعض ما نظم،  
وليس بشاعر .



---

الاعلام لخير الدين الزركلي ج ٤ ص ٨٠ . ط - ٢ -

نقلا عن : مذكرات المؤلف وجريدة الفيحاء الدمشقية ١١ شوال سنة ١٣٤٢

وجريدة الوفد المصري ١ جمادى الثانية ١٣٥٩ والاعلام الشرقية ١ : ١٤٥ .

واقراً ما كتبه عنه محمد كرد علي في « المذكرات » ٢ : ٤٤٤ - ٤٥٠

يشتمل هذا الكتاب على الأقسام التالية :

**القسم الأول :** مذكرات الشهبندر في السجن عام ١٩٢٢ وهي تتعلق  
بقدم لجنة كراين الى سوريا والاحداث التي جرت  
عقب ذلك في البلاد .

**القسم الثاني :** مذكرات الشهبندر عن الثورة السورية عام ١٩٢٥  
عواملها ، وقائعها ، ونتائجها

**الملحق :** مذكرة الدكتور شهبندر التي قدمها الى وزارة  
الخارجية الفرنسية يبسط فيها اسباب الثورة  
واغراضها .





# القسم الأول

مذكرات الدكتور عبد الرحمن الشهبندر  
في السجن عام ١٩٢٢



# مقدمة

انتهت الحرب العالمية الاولى ( ١٩١٤ - ١٩١٨ ) بانتصار الحلفاء على المحور فكان الفرح العظيم في البلاد المنتصرة بمقدار لا يوصف ، على انه كان بالنسبة للعرب الذين ساهموا مع الحلفاء في تلك الحرب يوما مشهودا طافحا بكبار الآمال ، ذلك لانهم كانوا لا يزالون مؤمنين بالعهود والوعود التي قطعها لهم حلفاؤهم ، ولا يفتأون يؤملون ادراك الاستقلال والوحدة .

ولكن فرحهم بيوم النصر لم يلبث الا قليلا حتى انقلب الى خيبة ووجوم ، فما ان كشفت روسيا السوفياتية عن الاتفاقات الدولية السرية حول البلاد المنفصلة عن السلطنة العثمانية ، وفي مقدمتها اتفاقية سايكس - بيكو ، وعلموا بوعد بلفور حتى ساورهم القلق واصابهم الالم ، ولا سيما عندما اخذ حلفاؤهم يطبقون تلك الاتفاقات على اساس تقسيم البلاد وتوزيع الانتدابات عليها .

وابان ما اجتمعت الدول المنتصرة منذ حزيران ١٩١٩ في مؤتمر الصلح بباريس اوفد الدكتور وودرو ويلسن رئيس الولايات المتحدة الاميركية الى سوريا لجنة كينج - كراين لاستفتاء اهلهما قصد تنوير افكار المؤتمرين في باريس . فطافت هذه اللجنة في لبنان وسوريا وفلسطين ووضعت تقريرا لم يأبه به الحلفاء ، وانما وضع

بين المحفوظات في واشنطن لان كثرة السوريين اعلنت رفضها لكل انتداب وتقسيم . ثم اسفرت تلك المفاوضات الدولية في مؤتمر سان ريمو بمنح عصبة الامم في ٢٠ نيسان ١٩٢٠ الجمهورية الفرنسية الانتداب على سوريا ولبنان ، ثم عهدت اليها في ٩ ايلول ١٩٢٣ القيام بهذا الانتداب . وكانت الفترة التي تخللت هذين التاريخين تعرف بعهد الاحتلال العسكري . وخلال هذا العهد وقعت احداث كبرى في انحاء سوريا داخلها وساحلها رافقتها احتجاجات ومظاهرات وثورات وقيام دولة فيصل بن الحسين الذي بويع ملكا على سوريا . ولكن الدولة المنتدبة استطاعت ان تدلها بالمال والحسام بيد انها لم تستطع ان تستأصل الروح القومية ، والاماني الاستقلالية ، ولا ان تنتزع الالام المبرحة التي كانت تكمن في النفوس .

وفي هذه الفترة من الزمن شاء المستر كراين الذي كان رئيسا للجنة كينج - كراين ان يزور سوريا وكان يعطف عليها ، فجاءها في غرة نيسان ١٩٢٢ بصورة خاصة لتفقد اصحابه فيها ، فكانت هذه الزيارة لدمشق مشجعة اهله لاستئناف المظاهرات ، وللاعراب عن شكوايهم من الوضع ، وللمطالبة بالاستقلال وذلك بعد ان كان الركود قد سيطر عليهم منذ دخل الفرنسيون بلادهم بالقوة فاتحين ، وازاحوا عنها الدولة العربية الشريفة ، وعلى هذا الاعتبار تعد هذه الانتفاضة اولى الانتفاضات السورية بعد الاحتلال .

وما ان غادر المستر كراين دمشق حتى اقبلت السلطة على معاقبة رؤساء هذه الحركة فالقت القبض عليهم ، وساقتهم في ٦ نيسان ١٩٢٢ الى المحاكمة امام المحكمة العسكرية . وقد صدر الحكم عليهم . وهو يقضي بالسجن على مدد متفاوتة على الوجه التالي : السادة :

الدكتور عبدالرحمن شهبندر . ٢ سنة بكثرة اصوات اعضاء المحكمة  
حسن الحكيم . ١٠ سنوات بكثرة الاصوات .

سعيد حيدر ١٥ سنة بكثرة الاصوات  
مير شيخ الارض ١٠ سنوات باتفاق الاصوات  
عبد الوهاب العفيفي ٢٠ سنة بكثرة الاصوات وهو مصري  
الدكتور خالد الخطيب ١٠ سنوات باتفاق الاصوات  
توفيق الحلبي ٥ سنوات بكثرة الاصوات

هذا وما ان صدر حكم المحكمة العسكرية بدمشق على السادة  
المشار اليهم وسيقوا الى سجن القلعة حتى انتفض الشعب ، واقفلت  
المدينة في ٢٠ نيسان ١٩٢٢ ، واستمر الاقفال اسبوعا كاملا .

وقد ساقوا هؤلاء السادة المحكومين الكرام الى سجن بيت  
الدين . وهناك كان الدكتور شهنسدر يختلس الفرص لتدوين  
القسم الاول من مذكراته هذه التي هي من اثنان ما دون هذا الزعيم  
وكانت بلاغته في وصف الاحداث تأتي احيانا على سجيته ووصفا  
عاليا في بعض الاحيان ، وتتندى احيانا اخرى بتأثير الوضع ، وخوف  
المراقبة .

وقد وقعت هذه المذكرات الثمينة بين ايدينا فرأينا من  
الواجب نشرها لانها جزء من سجل النضال الوطني من اجل  
الاستقلال .

واضفنا اليها مذكراته عن الثورة السورية كتبها تلبية لطلب  
الجمعيات العربية في الولايات المتحدة الاميركية ونشرت تباعا في  
بعض الصحف العربية آنذاك وافردنا لها القسم الثاني من هذا  
الكتاب ، وادرجنا بعد ذلك ملحقا يتضمن المذكرة الهامة التي قدمها  
الدكتور شهنسدر الى وزارة الخارجية الفرنسية يبسط فيها اسباب  
الثورة السورية واغراضها .

الناشر



# كراسين في سورية

## الحالة العامة قبل وصوله :

كانت البلاد السورية تتمخض بالحوادث ، بالنظر للخيبة التي اصابت الناس من جميع الطبقات والمذاهب ، من جراء سوء الادارة الداخلية ، وزوال القومية ، واتساع الضائقة المالية والاقتصادية ، وانتقال عدوى الوطنية في عامة انحاء المشرق . وكان اكثر الناس تنتظر التطورات والحوادث بين عشية وضحاها خصوصا والحالة الدولية لم تستقر بعد على شكل ، الا ان الخاصة الذين كانوا يدرسون الامر درسا دقيقا لم يكونوا يتوقعون حصول هذه التطورات والحوادث الا بعد اشهر ، ومن كان منهم يتوقع حصولها كان يود تأخيرها كي يكون الشعب اكثر استعدادا بالروح القومية ، فاذا تحرك انما يتحرك بنظام لفاية محدودة وهدف معين .

كانت الاحوال على هذا المنوال من الاضطراب وتبليبل البال ، ولكنها في الظاهر كانت هادئة ساكنة بحيث كان الاستعمار يون يظنون الامور جارية مجراها ، ولم يخطر في بالهم قط ان هذا السكون انما هو السكون الذي يسبق العاصفة . كنت في مكنتي في صباح السبت الواقع في ١٦ نيسان سنة ١٩٢٢ اذ تناولت رسالة عليها طابع بريدي يدل الختم عليه انه صادر من مدينة دمشق ففضضته فوجدته من الاستاذ نيكولي رئيس الجامعة الاميركية وتاريخه ٢٩ مارس ١٩٢٢ وفيه يقول لي :



انه تناول برقية من المستر كراين يقول فيها انه قادم في اول نيسان سنة ١٩٢٢ الى دمشق لرؤية اصحابه الذين عرفهم فيها عام ١٩١٩ ، وهو يرجو من الدكتور شهندر مقابلة المستر كراين ومساعدته على تحقيق غايته بالاجتماع الى هؤلاء الاصحاب وانه سيحل في فندق داماسكوس بالاس .

فقرات من بين السطور ما سمحت لي مخيلتي ان اقرأ ، وعجبت من صدور الرسالة عن دمشق في حين ان كاتبها موجود في بيروت ، وقلت في نفسي على كل حال هذه فرصة لا يسمح الزمان بمثلها ، وان الحكيم لا يتحين الفرص فقط بل يخلقها ، وان سلاحا تعلق به الولايات المتحدة ولو من طرف بعيد ، هو سلاح قاطع ومشجع .

### وصول كراين الى محطة الحجاز :

ركبت سيارتي في المساء الى نزل داماسكوس بالاس ، فسألت عن المستر كراين فقيل لي انه قادم في قطار حيفا وان الحجرة رقم ٢٣ والحجرة التي بجانبها محجوزتان لامره ، ولما رأيت ان مجيء القطار قد خان ذهبت الى المحطة ، وما كدت اضع رجلي على سلمها حتى سمعت صفير القطار فدخلت فوجدت المستر كراين نازلا ومعه المستر برودي كاتم سره ، فتقدمت اليه وحملقت في وجهه فوجدت نفس الرجل الذي كنت رأيت في يونيو سنة ١٩١٩ ولكني رأيت وجهه اكثر تجعدا وقامته اشد اعوجاجا ، وتقدمت اليه وناولته بطاقتي وقلت له ان الاستاذ نيكولي كلفني ان اقابلكم ، فلما نظر الى المسيو برودي التفت اليه وذكره في اجتماعاتنا الماضية فهش كثيرا وقال لي مبتسما هل تستطيع ان تقابلني بهذا المساء الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين فأجبتة بالايجاب .

### لقاء في الفندق :

نقرت باب الحجرة الثالثة والعشرين في الوقت المعين فسمعت صوتا هادئا يقول تفضل فدخلت

وإذا بالمستر كراين واقف يأكل شيئاً من السكاكر الاجنبية فدعاني فأكلت معه ثم باداني الحديث بالطريقة الانكليزية الساكنة المتروية التي تكاد تكون همسا كما يأتي :

انني قدمت الى هنا بقضية التحقيق ، وذلك ان مجرى السياسة يتطلب اظهار تقريرنا المشترك الذي كتبناه مع اخواننا اعضاء اللجنة الاميركية التي استفتت بلادكم عام ١٩١٩ فهل كانت استخباراتنا صحيحة يا ترى ؟

اريد منك ان تجمعني مع اهل هذه البلاد ولا سيما العلماء « المشايخ » منهم ، لارى هل حصل شيء من التبدل في آرائهم ، وهل كنا مصيبين في اخبارنا التي جمعناها في تقريرنا ، فوعده بان أجمعه في اليوم التالي بنخبة من الاهلين بالساعة الثالثة زوالية ، ثم سألته هل هو بحاجة الى من يلازمه في الصباح فقال كلا لانه عازم على صلاة الاحد في الكنيسة الساعة العاشرة حيث يجتمع ببعض المسيحيين ممن يود استطلاع رأيهم واستكشاف فكرهم . وقد كنت في جميع أسئلتى حريصا على الالتقاط من فمه كل ما يهمني امره من المجريات المتعلقة بتقريره الذي ( وضع ) في وزارة الخارجية الاميركية ، وعلى ان اعلم ماذا فعل الله بمساعيئه التي تحاول السياسة الفاشمة اخفاقها ، وكأنني رأيت على وجهه من امارات التعب من وعث الطريق ما حدى بي الى مفارقتة على امل اللقاء في اليوم التالي واستيعاب سائر اخباره . وعلى كل حال قنعت من مجرى الحديث بحدوث بعض الطوارئ المهمة في مجاري السياسة المشعبة المتعقدة التي لا تستقر على حال . ودعته وانصرفت وما حطت رجلي في المركبة الا واخذت انظم جدولا للامال ، وافكر في مواجهة الاتقياء من رجال الكنيسة قبل ان يلتقي بهم وتهيئة الاجتماع المعين والتنقيب عن رجال فيهم الكفاءة لقرع الطبول الخفية على الأذان الحساسة بحيث يتسنى لنا اجتماع الكفاية وزيادة .

## اتصالي بالوطنيين :

لم ارجع الى داري بل سرت توا الى دار محمد بك اسماعيل الطباخ قائد فرقة حلب ايام الحكومة السورية فلم اجده ، فذهبت منها الى دار ياسين باشا الهاشمي فلم اجده ايضا ، فطلبت دار السيد عثمان الثرباتي التاجر الوطني المعروف المتحرك فقيل لي انه في دار البسام ، طرقت باب دار البسام فخرج لي الخادم فقلت له بلغ السيد عثمان ان بشرا ينتظره في الباب ، فحالما رأني السيد عثمان عرف عن امر ذي بال جرى في تلك الليلة ، فاخذني الى دار ( زوج ) اخته السيد رشيد بقذونس حيث قضيت ساعة شرحت لهما فيها حديث المستر كراين وبينت لهما الواجب المحتم عليهما بتلك الليلة ، بحيث كلفت السيد عثمان ان لا ينام حتى يهيبء خطة الاجتماع ، ووعدت السيد رشيد ان يصاحبني الى باب توما لمواجهة احد الذين يذهبون الى الكنائس في الآحاد عادة فقام ، واذ كنت في المركبة خطر في بالي ثلاثة اسماء : عبده الكحيل والسيد انيس سلوم والسيد فارس الخوري على قلة صلواته إلا للضرورات .

## مع فارس الخوري في منزله :

وصلت الى دار الاخير منهم فطرقتها فوجدت الجميع نائمين ، ولكن ما زلت اقرع الباب حتى انتبهت الخادمة فأخبرتني انه مع اخيه فائز بك يقضي السهرة في النادي ، فكلفتها ان توصل اليه الرسالة الآتية : « اخي العزيز فارس بك اتيتك للمشاركة بشأن احدى المسائل المهمة المتعلقة بمهنتك السياسية بالطبع فلا تؤاخذني على اطلاق راحتك وانا انتظر في البيت سيدي » . وبعد بضع دقائق عادت الخادمة وقالت الان يأتي ، ولكن الذي اتى هو فائز بك فسألناه عن فارس بك فقال انه نائم في حجرته ثم دخل عليه فأيقظه ، ودخل علينا بقميص نوم وعليه عباءة بنية ولم يخف تعجبه من هذه الزيارة الغير منتظرة ، فلما فاتحته بحديث رسالة الاستاذ

نيكولي اخذ يبتسم واطهر انه عرف كل شيء من الاسرار واخذ يأتي بالحجج الدامغة ( القانونية ) على تصنع تلك الرسالة بداعي انه كان قد تناول رسالة مثلها وانها كذبة نيسان ، منها ان التوقيع لا يشبه توقيع الاستاذ ، وان لغتها الانكليزية فيها من العبارات ما لا يقوله الانكليز ، وان الطابع البريدي مدموغ في الشام فقط مع ان الرسالة صادرة من بيروت ( هذا بالعكس مما يدعو الى النظر بشدة والاهتمام ) . احببت ان اكتب ملاقاتي للمستر كراين في المحطة حتى نهاية الحديث لازى نتيجة البحث مع النظريات المجردة التي لا يحتاج تحقيقها الا الى جهد قليل او ذهاب الى المحطة او زيارة في المنزل . ولما اعيتني الحيلة قلت يا سيدي انني رأيت المستر كراين بعيني في المحطة وان الرجل مقيم في الحجرة ٢٣ من نزل داماسكوس بالاس ، وما عليك اذا كنت لا تزال على نظرية كذبة اول نيسان الا ان تذهب معي الى النزل لتحقق بنفسك ، فاطهر بعد العناء الشديد شيئاً من الايمان على قواعد الشك ، وهكذا ودعته وانصرفت وانا اقول بنفسني ( حتى انهم يستبعدون زيارة المستر كراين لربوعك في هذه الايام العصيبة ! ) .

### خلاصة المطالب الوطنية :

عدنا في نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل الى الصالحية حيث اوصلت السيد رشيد بقدونس الى داره . وفي صباح اليوم الثاني جاءني محمد بك اسماعيل فقصت عليه ما جرى ، وطلبت اليه ان يواجه حسن بك الحكيم مدير البريد والبرق في الحكومة الوطنية ومحي الدين بك صادق قائد الموقع ويطلب معونتهما في العمل والمجيء الى الاجتماع في النزل في الوقت المعين ، ويعد نحو ساعة جاءني محي الدين بك صادق وهو يخشى ان تكون لعبة نيسان ايضا . فطلبت منه ان يذهب الى النزل ويرى المستر كراين بعينه ، فذهب وبعد هنيهة عاد ومعه السيد حسن الحكيم فذكرت لهما انني افضل ان يكون الاجتماع في حديقة الشرباتي في زقاق الحيات على

طريق الصالحية بدلا من ان يكون بالنزول خشية مفسد الجواسيس ودسائس الحكومة ، فاستحسننا هذا الرأي . واخيرا اتفقنا على ان ندعو افاضل البلدة على اختلاف المذاهب والمشارب ولا سيما رجال العلم منهم ، فودعاني وانصرفت وعلمت بعدئذ انهما ذهبا توا الى دار السيد تاج الدين الحسيني فواجهناه بعد عشاء ، ومن ثم اجتمعنا بكثير غيره من الرجال المعروفين بوطنيتهم ، فوعدوا جميعا ان يحضروا بالوقت المعين . اما انا فقد ذهبت الى حديثه لارى تهيئة الاجتماع بنفسي فاجتمعت هناك بالشيخ كمال يحيى والشيخ عبد الحميد العطار والشيخ عبد الله الكزبري وصاحب الحديقة السيد عثمان الشرباتي ، فتذاكرنا بالمطالب التي يجب عرضها على المستر كراين واطهار رغائبنا بصورة جلية ، فاتفقنا على النقط الثلاثة الآتية : الاستقلال التام - والوحدة السورية العربية - وترك الخلافة في بني عثمان .

هذه الرغائب كانت ولا شك ضالة الجميع ولم يختلفوا الا قليلا في مسألة الخلافة لانهم يريدون ان تكون في حوز من اخطار الغرب ، وهم يعلمون حق العلم ان البلاد التي يكون رئيسها آلة بيد دولة غربية تتصرف به كما تشاء وان مملكة مؤلفة من قرى لا تتجاوز عدد الاصابع لا تستطيع ان تمثل الاسلام وان يكون خليفة لثلاثمائة مليون من المسلمين . والمسألة من اولها الى آخرها مسألة قوة وعظمة واستقلال ، فحيثما وجدت دولة اسلامية قوية عظيمة مستقلة عربية كانت ام اعجمية ، فان انظار الدول الاسلامية التي هي اضعف منها تتجه نحوها ويكون الرئيس عليها بطبيعة الحال موضع آمال الاسلام ومحط ثقته .

**اجتماع كراين بالوطنيين في منزل عثمان الشرباتي :**

عدت الى بيتي وفي الوقت المعين ذهبت الى النزول فبينت للزائر الكريم فكرة الاجتماع في الحديقة بدلا

من الحجرة الضيقة فقبل مع السرور فنزلنا الى  
الركبة ووصلنا الى الحديقة بستان الحيات بعد الساعة الثالثة  
حيث وجدنا لفيفا كبيرا من العلماء والادباء والتجار والاعيان وارباب  
الاموال والمزارعين فلما رأونا استقبلونا بالتصفيق والهتاف ففقدنا  
بينهم وكان مع المستر كراين كاتم اسراره المستر برودي .

سأل المستر كراين المجتمعين عن صحتهم وهل هم لا يزالون  
على الآراء التي اطلعوه عليها يوم اتى مع اخوانه عام ١٩١٩ لاستفتائهم  
فأجابوه كلهم بصوت واحد ، لانهم لا يستحون ان يعترفوا بأنه حدث  
تعديل مهم فيها بعد هذه الاختبارات العظيمة التي عانوها منذ بدء  
الاحتلال ، وهذا التعديل والتطورات تجمعه جملة واحدة مختصرة  
وهي التشدد بكل الوسائل بالمطالبة بتلك الرغائب .

### الشيخ احمد الصاحب يتكلم عن مقبرة البرامكة :

ومما يحسن قوله ان الذي فتح باب الحديث  
شيخ مشهور في دمشق الشام له اداور في السياسة  
معروفة منذ الايام الحميدية ، واعظم دور لعبه  
في اواخر الحكومة العربية اذ وضع يده بيد الفرنسيين فخدمهم  
اجل الخدمات واطهر من التسامح معهم على مركزه الديني والارشادي  
ما صار مثلا مشهورا في انكار الذات وهذا التسامح هو الشيخ احمد  
افندي الصاحب شيخ طريقة النقشبندية .

اخرج من جيبه اوراقا فقرأها فاذا هي وثائق رسمية مرت  
على الحكومة وفيها التشكي من امر فظيع حدث في مقبرة البرامكة  
المشهوره ، حيث دفن كلب لضابط افرنسي بقبر احد ائمة  
المسلمين ، وبنيت مراحيض للجنود السنغالية قبل ان اخرجتهم  
فتأثر المستر كراين تأثرا كليا . . . ثم أمر كاتم اسراره ان يدون  
هذه الملاحظة في مذكرته فدونها ، وانا تناولت الوثيقة وحفظتها له  
في جيبى الى يوم سفره فقدمتها له ثم قلت ان الجبانة ليست بعيدة

كثيرا واقترحت عليه ان يذهب اليها بعد انفضاض المجلس ليرى بعينه صحة الخبر المؤلم فقبل مع الشكر .

### حسام العمري يشكو من الضرائب :

ثم جرى ذكر الضرائب فانبرى حسام الدين افندي العمري احد التجار المعروفين فذكر ان والده كان تاجرا منذ عشرات السنين في دمشق ، وانه في مدة ثلاثين سنة لم يؤد للحكومة من ضريبة التمتع ما تجاوزت قيمته كل سنة خمسمائة قرش ولكن ابنه ( اي هو ) ادى هذه السنة سبعة عشر الف غرش باسم هذه الضريبة . وقال : اذا دام الحال كذلك ، على هذا المنوال من استيفاء الضرائب الباهظة مع وقوف دولاب التجارة والعمل ، فان البلاد سائرة الى الخراب لا محالة .

واردف قائلا :

« اذا رايت ايها الزائر الكريم بعضنا لابسا اردية هذه السنة فان الزمن الذي نبيع فيه هذه الاردية ليس بعيدا . . . واطاف الى ذلك قوله : ومما اقصه عليكم الان ، ما جرى معي وانا قادم الى هذا الاجتماع ، اذ بينما كنت ماشيا على الرصيف مع اخي حسني تسترا من الرذاذ المنهمر ، اذ شعرت بصفعة على ام رأسي من ورائي ، فالتفت ، فاذا بضابط افرنسي يقول لي :

« لماذا لا تنزل الى قارعة الطريق كي امر انا على الرصيف ؟  
الم تعلم اننا ما اتينا هذه البلاد الا لتعلمكم الادب » .

فصمت هنيهة وانا انظر اليه بترفع ، واخيرا قلت له :

« بورك لكم هذا الادب ، وانصرفت في طريقي » .

قام بعده السيد عثمان الشرباتي وبين الاضرار البليغة التي اصابت البلاد من وضع الحواجز الجمركية ، وذكر ان هذه الحواجز ستحمل قسما كبيرا من اصحاب الحرف كالحياكة والصباغة على

الانتقال من البلاد الى الجنوب حيث سيجدون لمصنوعاتهم سوقا لا يزاحمهم فيها احد بسبب تلك الحواجز .

## انور البكري يتحدث عن الزراعة :

وقال انور افندي البكري من كبار المزارعين :

ان ايرادنا لا يكفي لتأدية الضرائب الموضوعه علينا ، وهذا حال سائر المزارعين ايضا في هذه البلاد . واننا نخشى اذا سارت الامور على هذه الحال واضطررنا لبيع املاكنا لا يبقى معنا بعد حسم الاموال الاميرية منها ما يكفي لنؤسس عملا جديدا لنا في البلاد التي نأمل فيها الراحة . فرغبتنا اليك ايها الزائر الكريم والسيد الجليل بصفتك من اهل المكانة السياسية في بلادك ان ترجو لنا بلساننا من حكومة الولايات المتحدة ان تسهل لنا منذ الان سبل الهجرة وتفتح لنا بابها كي نعجل في الجلاء ونصل الى العالم الجديد وفينا رفق .

## حسن الحكيم يشرح سوء الاوضاع المالية والاقتصادية :

ثم تناول الحديث السيد حسن الحكيم من الوجة المالية وافاض وابدع ولم يترك زيادة لمستزيد . ومما قاله : تكلم كثير من اخواني الحاضرين بشأن الضرائب التي انقلت كاهل الاهلين واتوا بالامثلة الكثيرة على سابقها وحاضرها وبالنظر لما تيسر لي من الوقوف على ميزان حكومة دمشق عام ١٩٢٢ فسأعرض على مسامع المستر كراين الدواعي التي سببت تلك الزيادة الفاحشة في الضرائب :

من القواعد المقررة في العلم ان تراعى اثناء تنظيم الميزانية الاحوال المالية والاقتصادية والسياسية خصوصا متى كانت في دور التأسيس اما الميزانية التي نظمها المستشار المالي وقدمها الى مجلس المديرين فصادق عليها والتي ارسلت بواسطة البعثة الى المفوضية العليا لاجل التصديق ايضا فانها لم تنظم على الاسس المذكورة بل



بنيت على غايات الحكومة المفتصبة واغراضها ومصالحها ، لذلك تضمنت ارقام الخرج فيها فكانت سببا لتزييد منابع الدخل بزيادة الضرائب سدا لتلك النفقات التي تنمو ليحملها اليوم هذا الشعب الفقير وعلينا الان ان نورد الامثلة المثبتة بالارقام القطعية الدالة على ما ذكر من الاسراف والتبذير وهي كما يأتي :

**اولا -** رأت الحكومة الفاصبة ان تحول دون فكرة الجامعة العربية فمزقت وحدة البلاد التي هي من عرق واحد ولغة واحدة ولها اخلاق وعادات واحدة وعددت الادارات المركزية والمصالح الخاصة في المقاطعات ، ومثلها الفروع التي تتألف منها الحكومة المذكورة فكان ذلك سببا كبيرا في زيادة النفقات في كل منها، وحسبنا ان نقول في هذا المقام على سبيل المثل ان راتب الحاكم في دمشق ٣٩٠ ليرة سورية مشاهرة وراتب كل من مديري الداخلية والمالية والعدلية والاشغال والمصارف ٢٦٠ ليرة وكل من مديري الصحة والشرطة ١٦٠ و ١٤٠ ليرة سورية على ان هذه الحكومة سعتها في الاراضي اليوم لا تكاد تبلغ نصف ولاية سورية ايام الحكومة العثمانية وهي تلك الولاية التي كان يديرها وال لا يتجاوز راتبه الشهري ١٥٠ جنيها عثمانية ، معه رقيم ( دفتر دار ) راتبه من ٤٠ الى ٥٠ جنيها ومديرو دوائر تتراوح رواتب الواحد منهم بين عشرين وثلاثين جنيها فقط .

**ثانيا -** عرفت الحكومة الفاصبة ان الطبقة المنورة التي تستطيع الدفاع عن حقوق البلاد والاهلين بالطرق القانونية واحداث الضجة الضرورية لدى الامم المتمدنة هي الفئة المتعلمة اجمالا ، والموظفون بطبيعة الحال ، فسعت لكم افواه هؤلاء بالرشوة المستورة والتحبب اليهم بطريقة الكرم الكاذب ، لذلك فتحت لهم باب الحكومة على مضراعيه فاحدثت للادارات والمصالح المتقدمة ما شاءت من دواوين وفروع ومجالس ، وهكذا الفت حكومة تقرب في مظاهرها من الحكومات الكبرى التي لها من الاراضي ما لا يحد والنفوس ما لا

بعد والموارد ما لا ينضب ، وخصصت للموظفين الرواتب الباهظة التي لا يتيسر لهم الحصول عليها في اي عمل آخر ، ومما ساعد التجاء الناس الى الوظائف مع كرههم للادارة وقوف الحال وكساد التجارة وبوار الزراعة بسبب تمزيق وحدة البلاد واقامة الحواجز الجمركية والسفيرية بينها

**ثالثا -** لم تكف الحكومة بتعيين الرواتب الباهظة للحاكم والمديرين فحسب ، بل خصصت لكل واحد منهم وللمتصرفين في الولاية ايضا سيارة تبلغ نفقاتها السنوية نحو الفى ليرة سورية كما يتضح من الارقام الاتية :

### ل.س.

٨٠٠ ثمن سيارة ونفقات تصليح .

٤٠٠ ثمن بانزين .

٧٢٠ راتب السائق السنوي .

---

١٩٢٠ ليرة سورية في السنة .

هذا عدا نفقات الكاراج ، ورئيس الكساراج وحده يتناول ١٢٠٠ ليرة ، وقد خصصت الى الحاكم علاوة على ما تقدم ٨٥٠٠ ليرة باسم نفقات السفر والانتقال و ٤٠٠ باسم نفقات الاشتراك بالجراند مع انه لا توجد حكومة في العالم تقدم على مثل هذا الاسراف الغريب من تقديم سيارات ، دع عنك بدلات الاشتراك في الصحف . وحسبنا ان نقول في هذا الصدد ان نفقات السيارات بلغت نيف وثلاثين الفا من الجنيهات السورية ، على ان الانصاف يقضي علينا بالاعتراف بأن هذه السيارات وان كانت في المظهر هي للمديرين والمتصرفين الا انها في الواقع وقفا للمستشاريين يستعملونها ان شاءوا وحيثما ارادوا .

**رابعا -** وضعت كمية كبيرة من المال باسم اعمال عمومية مثل

تعبيد الطرق وبناء ثكنات للدرك وإنشاء تلفراف لاسلكي في تدمر وغير ذلك من الاعمال التي ظاهرها الثمرة للحكومة والشعب وباطنها نفع الحكومة المفتصبة واملاء جيوب ممثليها وجيوب الوطنيين الذين لا يعرفون الوطن الا بقيمة ما يدخل في الجيوب .

وبخلاصة ان البلاد اليوم سائرة نحو الخراب والدمار لان ثروة الامة تذهب خسارة استهلاكاً في سبيل الضرائب لا محالة .

وقام السيد عثمان الشرباتي وتكلم عن الاضرار التي اصابت البلاد من الوجهة التجارية ، وقام السيد انور البكري وبين احوال الزراعة المتأخرة فقام بعد ذلك المستر كراين وقمنا معه والناس بين صامت من شدة تأثره من الاحاديث التي جرت وبين مشيع ومودع ، ولما خرجنا الى الجادة وجدنا على الرصيف ثلاثة من الجواسيس فروا عند رؤيتنا بعدما عرفوا وجوهنا .

اخبرت الحوذي ان يسير الى البرامكة لزيارة مقبرتها ، وعند بلوغنا تكية السلطان سليم طلب المستر كراين ان يزور هذا الاثر النفيس فنزلنا ، وبعدها متع نظره برؤية الصحن والرواق المعمد الذي يحيط به وحرماها ومنارتيهما الرفيعتين القائمتين على جانب قبتها والمائلتين من تصرفات الزمن بعض الميل ، رجعنا الى المستشفى الوطني حيث دخلنا الحديقة التي كانت في الاصل جبانة البرامكة : وحديث هذه الجبانة انها كانت مأوى لاشهر رجالنا في القرون الوسطى فمن دفن فيها من اهل العلم ابن عساكر صاحب التاريخ الكبير وابن الصلاح والعز بن عبد السلام وابن تيمية وغيرهم ممن كانوا نورا للهدى ايام كان الغرب يتخبط في دأج من الظلم . فلما باشرت السكة الحديدية بين بيروت والشام اعمالها في اواخر القرن الماضي اصبحت هذه الجبانة طريقا عاما ، والقبور التي فيها عرضة للمركبات والنقلات فقام استاذنا العلامة الشيخ طاهر

الجزائري وقعد لهذه الالهانة واحتج على الحكومة لسوء تصرفها ، وذكرها ان اوروبا التي اصبحت نورا في هذا العصر ما اهلنت قبور رجالها . بل كثيرا ما جعلت هذه القبور اثرا تستنهض به همم الاحياء وتستحثهم بالمكافأة كمثلته بعد الممات . وبعد اخذ ورد جاءت الاوامر من الاستانة بصيانة تلك الجبانة ، فقام بهذا العمل ناظم باشا الوالي فبنى لها حائطا من الحجر الابيض الصلب وحدث بجانبها المستشفى المذكور وجعلها حديقة من اجمل الحدائق .

## زيارة ضريح ابن تيمية :

دخلنا الجبانة والحديقة من غير ان يشعر بنا احد ، وسرنا بالمستر كراين الى جهة ضريح ابن تيمية ، فرأيت ولدا صغيرا يعرف الحديقة ، فقلت له : اين القبر ؟ فقال من نفسه : قبر الكلب ؟ فقلت : نعم ، فاشار بيده وقال : هناك ، فترجعت للمستر كراين ما ذكره الولد وقلنا له سر معنا للتفرج عليه فسار ولما صرنا بجانب القبر شعرت بهزة تمشت في جسمي ، وقرأت على الشاهدة هذه الكلمات : ( شيخ الاسلام تقي الدين احمد بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ ) . هنا يرقد النابغة الذي تقلبت عليه السياسة والحسد والجمود فزجت به في سجن قلعة دمشق حيث مات بعد بضعة اشهر . وعلى قيد شبر في ضريح آخر لعالم كبير اسمه ابن كثير دفن الافرنسيون كلهم بعد ان نبشوا قبر المؤمن وبعثوا عظامه فاصبحت كالهشيم تذروه الرياح . هل ضاقت دمشق على رحبها حتى اضطر المغتصبون الى اغتصاب قبور الأئمة لتكون مثوى الكلاب؟! رأى المستر كراين تلك المناظر المؤلمة وسمع بأذنه شرح الطفل وكيف دفنوه في القبر المنبوش واطهر اشمئززا عظيما وطلب من المستر برودي ان يقيد جميع تلك الملاحظات . ومن ثم خرجنا واجمين صامتين ، فودعته وانصرفت بعدما تواعدنا للقاء في النزول في الساعة الثامنة من اليوم الثاني .

## زيارة اليتيم السوري :

لم يحدث يوم :لاثنين ٣١ نيسان ما يستحق الذكر سوى اننا ذهبنا الى اليتيم السوري ، الذي كانت مديرتة المسز فيشر وهي سيدة امريكية اهتمت بالمسألة السورية كثيرا ، وكانت تعطف على الامر فيصل واخيه الامر زيد عطفًا صميما ، وبعد الاحتلال الافرنسي اشار عليها القنصل الاميركي بمغادرة البلاد لما قد يضمه عليها الفرنسيون من البغضاء . ومما يسجل لها انها شوقت الناس الى لبس الالبسة المزركشة والمزينة على الطريقة الوطنية . وبعد سفرها تسلمت الانسة اليس قندلفت وظيفتها فقامت بخدمة اليتيم احسن قيام . وقد شاهدت مع المستر كراين عملها فشكرنا لها اهتمامها ونشاطها والنظافة البادية على تلميذاتها . ويضم اليتيم السوري البنات اليتيمات اللاتي تتراوح اعمارهن بين الخامسة والثانية عشرة وهن يصرفن جل اوقاتهم في تعلم القراءة والكتابة والتطريز وعمل السجاد على الطريقة العجمية . وقد وجدنا بينهن بعض بنات كن في مدرسة بنات الشهداء فأظهرن لنا عطفًا عظيمًا على تلك المدرسة ورئيستها نازك العابد ثم قمن امامنا يعملن الرياضة البدنية على ايدي طبيب روسي اتى دمشق هو وزوجته الطبيبة ايضا فرارا من البولشيفك ، فكانت المدرسة مع ما تحدثه بالنفس من بهجة النجاح تعيد الى الذاكرة الحوادث المؤلمة التي جرتها الحرب الفاصبة على البلاد . وقد تواعدنا بعد ذلك والمستر كراين على اللقاء في اليوم التالي الساعة الثالثة وهو موعد اجتماع الميدان .

## كراين يزور حسي الميدان :

في ٤ نيسان سنة ١٩٢٢ و في صباح الثلاثاء أتاني بعض اهالي الميدان وكلفوني أن أدعو لهم المستر كراين للاجتماع به ، ومحدثه ، فكلفتة في الصباح ، فقبل ان يذهب الساعة الثالثة بعد الظهر ، وكان عنده السيد ابو الخير الموقع فقال : انه مكلف المستر كراين الى

دعوة غداء في بستان القصاع في حي الزينية فلم يقبل ، فقلت له :  
انظر قليلا حتى ادعوه انا ، فلما دعوته سألني هل هذا الوجيه من  
المعروفين في دمشق ؟ فشهدت له الشهادة اللائقة به فقبل وتواعدنا  
على أن آتية في اليوم التالي الساعة الثانية عشر للذهاب معا . وقد  
اقترح أن يكون الاكل وطنيا أما الاجتماع في حي الميدان فقد جرى  
كما يلي :

وهو انني ذهبت واياه في الساعة الثالثة الى بوابة مصر حيث  
كان بانتظارنا على الجادة حسن بك الحكيم وغيره من اخواننا ،  
فدخلنا في طريق ضيقة حتى وصلنا الى بستان الاخ المذكور فوجدنا  
بانتظارنا نحو مائة من الاعيان والادباء ورجال الفضل وقليلا  
من عامة الشعب على الحالة النظرية الساذجة وجل الموجودين هم  
من أهل الميدان ، فلما رأوا المستر كراين استقبلونا استقبالا شائقا  
جدا بالاهازيج القومية والاناشيد الوطنية والتصفيق المتواصل ولما  
استقر بنا المقام أخذ الجلوس يقصون عليه طرفا مما يعانون ، وابتدأ  
الكلام سعيد بك حيدر بحديث ممتع قانوني مستندا الى الوثائق  
وخلاصة قوله : « لانني محام فسأبدا كلامي بما يتعلق بمهمتي من  
الامور الحقانية . ان من اهم دعائم الحكومات هي الادارة العادلة  
اذ عليها يتوقف توزيع العدل بين الناس ولقد حدث بهذه الادارة  
بعهد الافرنسيين امور يحذرهما القانون » . واتى بأمثلة كثيرة  
منها مسألة القتل عمدا في حمص وتبرئة القاتل من قبل البعثة  
ومسألة الجامع وتخليصه من الاوقاف بأمر من المستشار في حمص  
ومسألة ثلاثة تتعلق بالبدوي والحضري في لواء حماه وذلك لمصالح  
الحكومة الفرنسية فقط لتقرب من مشايخ وأمراء العرب منهم  
امير السعود . ولما اخبرناه أن سعيد بك من بعلبك قال : « أنت  
بنيت حيطان القلعة ؟ ووضعت ذلك الحجر الكبير ؟ » . ثم تكلم  
بعده السيد عبد الفنى افندي الحسن احد تجار الطحين فأظهر  
الخطر الذي يهدد أهل حرفته وذكر أنه يوجد في دمشق الشام

احد عشر معملا للطحين مع نحو مائتي مطحنة حجر وطنية . والان اذنت الحكومة الافرنسية لشركة افرنسية ان تؤسس معملا ( فابريكة ) فمتى انتهى بناؤه ماذا يكون مصير أهل حرفة الطحين والبوايك والعمال وغيرهم ؟ ثم تكلم بعده أبو راشد حافظ من بني الحكيم بخصوص الوعود التي قطعت للعرب ، ثم الخيانة الكبرى بعد ان تم للحلفاء النصر فشنى على كلامه السيد صادق الرجال أحد التجار النبهاء . ثم نهض الدكتور خالد الخطيب أحد الاطباء النابهين وابن المرحوم محمد بك الخطيب المعروف بوطنيته الصادقة فالقى بعض الكلمات بين فيها مطلب الامة وهي تختصر في المواد الثلاثة الآتية :

- ١ - الاستقلال .
- ٢ - وحدة سورية في حلف عربي .
- ٣ - ترك البت في الخلافة للمسلمين .

فهي من شؤونهم الخاصة . وبعده قام السيد عبد الله النجار أحد اعضاء الرابطة الادبية في دمشق فالقى بعض كلمات بالانكليزية لا تخرج عما تقدم . وهنا انفض المجلس بين تصفيق المصفيق وهتاف الهاتفين الذين حملوا المستر كراين على الاكتاف وطافوا به في الحديقة . ولما خرج ودعوه الى الطريق حيث وجدوا زمرة من الجواسيس فروا عند تعارف الوجوه . ولكن السيد حسن الحكيم تقدم اليهم وقرعهم على هذا العمل المشين . وقال لهم لماذا لم تدخلوا لتروا بأعينكم وتسمعوا بأذانكم الاحاديث التي جرت وبذلك تتمكنون من القيام بوظيفتكم الجاسوسية بصورة صادقة لا غبار عليها ؟ فانهمزوا من وجهه متظاهرين بالحياء والخجل ولكن بواطنهم لا يعلمها الا الله .

### اجتماع كراين بنساء الشهداء :

خرجنا من الميدان توا الى المهاجرين حيث خرجت نساء

الشهداء للاجتماع بالمستر كراين في بيت المرحوم السيد شكري العسلي . فاجتمع بهن وطيب خاطرهن وسمع منهن مرة ثانية تلك الرغائب الوطنية والامال القومية التي بذل الشهداء انفسهم على اعواد المشانق في سبيلها ، فكان اجتماعا مهما تجلت فيه تلك النهضة الشريفة المباركة في نساءنا ، وقد تقدمت زوجة المرحوم رشدي بك الشمعة شهيد القضية العربية الى الزائر الكريم بوجه وشفتين مرتجفتين من فرط التأثر وهي تقول : لم يمت رشدي بك الا لاجل سلامة الوطن وان هذه المحن التي تئن منها توجعه في جسده فان لم تترفقوا بالاحياء ياسيدي بالله ترفقوا بالأموات ولا توجعوهم في مضاجعهم . تأثر المستر كراين من هذه الجمل جدا ، وزاد في تأثره السكوت العميق الذي اعقب ذلك بحيث كان يقرأ على الوجوه الصامتة ما تعانيه الانفس من الآلام . ومن قرأ اخبار الاستفتاء عام ١٩١٩ يوم سمع المستر كراين نفسه ما جاءت به عواطف الامة السورية يذكر ولا شك تلك الجلسة الرنانة التي عقدتها حرم الشهداء وكان لعقيلتي الشرف أن تكون بينهن ، فأبدين من الوطنية الصادقة ما يبقى مسجلا بتاريخ سورية بمداد من الفخر . قالت احدهن يومئذ : « لاتحرمونا من صوت الحرية وتلقونا في مهاوي الاستبعاد ، ان حياتنا تكون عبئا ثقيلًا اذا كان رجالنا ارقاء ، لأن زوجة الرق لا يحق لها ان تكون سيدة في بيتها . »

### زيارة مصطفى باشا العابد وابنته نازك :

خرجنا من بيت العسلي وكنا على موعد مع الأنسة نازك العابد في بيت والدها فذهبنا اليه توا حيث وجدناها ووجدنا والدها واخاها وابن عمها بانتظارنا . وقد سألتها المستر كراين عن مدرسة بنات الشهداء التي كانت رئيستها ما فعل الله بها . فقصت عليه طرفا مما أجراه مدير المعارف محمد افندي كرد علي يوم اغلقها قالت : باغت رجال المعارف في العشرين من شباط سنة



١٩٢١ الساعة التاسعة ليلا مدرستنا ( نور الفيحاء ) ومعهم رجال الشرطة وطلبوا تسليم المدرسة بما فيها من اثاث وأدوات وذلك بتحريض محمد كرد علي وأمر الحاكم حقي العظم ، فتوسلت المديرة السيدة صبيحة التنير بجميع الوسائل لتأجيل هذا العمل الى الصباح فلم يمهلها وأخيرا ارسلت الى حقي العظم مع احدى المعلمات تقول له : ان عصابة الاشقياء الموجودة على طريق الصالحية عند عرنوس تسترحم من مكارمكم ان تمهلوها الى الصباح ريثما تتمكن من جمع سلاحها وتسليمه فقال : وأي عصابة تعني ؟ قالت : تلك العصابة التي قطعت السابلة وأخلت بالامن العام عصابة بنات الشهداء ومديرتهن فنجل حقي بك وارسل معها امرا يقضي بالامهال الى الصباح .

وقد اخبرتني في صباح اليوم الثاني بما جرى ورغبت الي بالمجيء الى المدرسة قبل وصول الشرطة فأقمت آسفا وأمرتها بتسليم جميع ما يطلب منها وارسلت معها الكلمات الآتية الى التلميذات : ( ان جمعية نور الفيحاء قد بذلت منتهى جهدها زهاء سنتين حتى بلغت هذا المبلغ من العلم والتربية وهي ترجو من الله ان تكن خير مثال لبنات قومكن ، بيد ان الحكومة رغبت ان تنتزع روح الوطنية من نفوسكن وثمره العلم من ادمفتكن ، ولنا وطيد الامل ان تحافظن على مبدئكن القومي ، فلربما يأتي يوم نجمع فيه شملنا ) . ( خلاصة وثيقة أخذت من السيد توفيق الحلبي في أرواد ٢٢ تموز سنة ١٩٢٢ وهي توافق كلام السيدة نازك العابد . )

ولما انتهى الحديث أظهر المستر كراين من الاستياء ما لا يوصف وقال انه ارسل الى المدرسة بمعرفة المسز فيشر بعض الهدايا المدرسية اشتراها من باريس بقيمة عشرة الاف فرنك اخذا بناصرها وهو غريب عن البلاد ، فهل يعقل ان يقدم أحد لا سيما اذا كان من الوطنيين على اغلاقها ؟ . فقالت : ان الهدايا لم تصل

ولكن بلغها من بعض القناصل انها ضبطت . وجرى في اليوم السابق ان المستر كراين بعد زيارته الميتم السوري فاتحني في عزمه على انتقاء آنستين من أوانس سورية للذهاب الى امريكا للتعلم على حسابه ، فاستحسننت هذا الرأي وشكرت له عواطفه الشريفة وذكرت له اسم الأنسة أليس قندلفت واسم الأنسة نازك العابد ليكون حظ المسلمين والمسيحيين من معونة أهل الفضل واحد . فقبل اقتراحي وفي المساء فاتح الأنسة نازك بالامر فأظهرت رغبة شديدة ولكن والدها اظهر شيئاً من التردد وأستمهلها في اعطاء الجواب القطعي بضعة ايام . ربما كان للتقاليد الاسلامية الشرقية الشأن الاكبر في التردد . واما السيدة أليس فانها قبلت الاقتراح هي ووالدها مع الشكر ، وقد قال المستر كراين انه يصعب عليه ان لا يرى بين العرب من تضارع تلميذته التركية خالدة أديب خانم، ثم ودعت المستر كراين .

### كراين في بستان القصاع :

وفي ظهيرة اليوم التالي وهو يوم الاربعاء في ٥ نيسان صحبتته الى بستان القصاع لحضور دعوة الغداء فكان البستان روعة غناء تخلب الانظار . وبعد هنيهة قال ليس شيء في الدنيا يشبه حدائق بخاري مثل هذا البستان والدكوك الترايبية من حوله . انه يعيدني طرا الى ذكرى الماضي وعهد الصبا يوم زرت تلك المدينة منذ ٤٥ سنة وتعرفت على علمائها واطلعت على فضائلهم الفريزية ثم انحنى فاقتطف زهرة من بين رجليه وشمها وقال أريج زكي وتربة صالحة . دخلنا الدار . فاستقبلنا لفيف من افاضل القوم وعليتهم يتجاوز عددهم الخمسين منهم الحافظ المشهور ، الشيخ محمد الحلواني ، والشيخ عبسد القادر الاسكندراني ، الداعية المعروف ، ويحيى حياتي ، قائد منطقة حمص ( وكان اركان حرب في الجيش العثماني ) وياسين باشا الهاشمي رئيس ديوان الشورى الحربي ، وعبد الحميد باشا

وزير الحربية السابق ، وعادل بك العظمة من المحامين المعروفين ،  
وزكي بك الحلبي قائمقام ومفتش الدرك في حوران ، وغيرهم  
من رجالنا المشهورين .

اقترحت ان تبدأ الحفلة بتلاوة عشر من  
القرآن الكريم فأخذ الحافظ الشيخ محمد الحلواني يتلو علينا  
ونحن سكوت سورة مريم فترجمت للمستتر كراين عباراتها  
الفصيحة ومعانيها البليغة ثم بينت له كيف ان المسلمين لم يحتفظوا  
فقط بكلمات القرآن واعرابها وعدد السور والآيات وترتيبها وبحيث  
لا يوجد اقل اختلاف بالمصاحف في عامة أنحاء الدنيا بل قد احتفظوا  
بالالفاظ والتجويد والقلقلة ايضا فترى الفاظ التالي في دمشق مثل الفاظ  
التالي في القاهرة او تونس على اختلاف الدار وبعد المزار واختلاف  
النطق بالكلام ، وهذه الالفاظ منقولة بطريق العننة عن عصر  
الصحابة فقد كتبه الخليفة الثالث وفرقه على الانحاء الاسلامية  
الاربعة وكان لدمشق الشام الحظ أن حصلت على نسخة من هذه  
المصاحف العثمانية ، ولكنها يا للأسف اتلقتها النار في الحريق الذي  
اتهم الجامع الاموي منذ ثلاثين سنة .

ظهر المستر كراين لذة عظيمة بهذه الفلزكة الجملة والح  
علي ان انقل له صحيفة من صحائف ما تلاه الشيخ فوعده . وذكر  
لي انه رأى شيئاً من هذه المحافظة على هذه التلاوة عند الصينيين  
البوذيين وعنده صفائح مغولية اخذها في بكين ترجع الى الوف من  
السنين .

ثم انبرى بعد ذلك الاديب الخطيب السيد  
محمد الشريقي فألقى خطاباً ممتعاً بناه على ثلاثة  
احاديث أحدها : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده  
فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف  
الايمان » . وقد كانت علائم التأثر بادية على وجهه ويديه ولكن  
صوته كان جهورياً حسناً فتأثر المستر كراين من كلامه ورغب اليه

ان يعطيه هذا الخطاب اللطيف ، وتكلم الضيف بنهاية الامر بكلام لا يختلف كثيرا عن الكلام الذي فياه به في حفلة الميدان . ثم قمنا الى المائدة فوجدنا الطعام هو ما يقدم في دمشق عادة في فصل الربيع يعني الارز بالفول مع اللبن الرائب والقطايف العصافيري . فقال المستر كراين طعام صحي جامع مانع فيه الخضرة واللحم فملا منه طبقه مثنى وثلاث ورباع ولكن لم يحفل كثيرا بالحلوى . أما المستر برودي فانه كان على العكس من ذلك اذ اكل من القطائف مع القشطة ماشاءت معدته ان تأكل وتحمل ، وقد ترك المائدة وبوده لو يملؤ جيبه منه ليأخذ معه هدية الى الولايات المتحدة . انتهينا من الاكل فشربنا القوة البدوية مع الهال ، فكان لها نشوة في النفس ، واخيرا ودعنا القوم وانصرفنا .

### طلاب الحقوق يلتقون به :

بعدهما سرنا في المركبة بضع خطوات التقينا بتلامذة معهد الحقوق فتقدموا الينا وعرضوا على المستر كراين مطالب البلاد وهي لا تخرج عن المطالب الثلاثة العامة التي تقدمت في الاجتماع الاول فطيب خاطرهم وانا قلت لهم حافظوا على العهود التي عاهدتم عليها بلادكم وثقوا بانفسكم ومستقبلكم . والظاهر ان أحد الجواسيس وما أكثرهم بيننا شوه هذه العبارة ونقلها على صورة تذكار بعهود سرية سابقة لهم معي فأنت في ورقة الاتهام في المحكمة بهذا المعنى .

ودعت المستر كراين وانصرفت الى اعماله بعد ان وعدته ان الاقيه في النزول في الساعة التاسعة والدقيقة ثلاثين . ولكنني لما رجعت الى بيتي في المساء علمت انه اتى الى زيارتي وطلب ان يكون مجيئي قبل الموعد بساعة فحضرت له جميع المذكرات والاوراق التي تهمة وقد اتاني بعضها من فلان و... و... وكلها تتعلق بالشكاوى التي ذكرها له الاهلون بيد انني

في آخر الامر فضلت أن لا اسلمه شيئاً منها الا في الساعة الاخيرة  
لاني كنت اخشى ان يسرقها منه احد من التراجم الذين كانوا  
معه ، خصوصا بعدما بلغني ان الجواسيس الذين كانوا يحيطون  
به من كل جانب حاولوا بالاغراء ان يأخذوا طرفا من اخباره فلم  
يقلحوا .

### كراين يخبرني بعزمه على زيارة جزيرة العرب :

ذهبت اليه في المساء في الوقت المعين فوجدت بانتظاره  
السيد منير شيخ الأرض وابن عمه فؤاد افندي عرفته بهما  
فذكرا له مطلب الامة السورية واستماتتها في سبيل حريتها  
واستقلالها ، ثم ودعاه وانصرفا اما انا فبقيت لأذكره بالشؤون فقدم  
لي قدحا من الشاي الصيني الأصلي لم أذكر انني ذقت ما هو الذ  
منه ، وبعد ذلك فاتحني بالموضوع الاتي الذي كان يذكره لي عرضا  
بالتلميح في الاجتماعات الماضية : وهو انني عازم على زيارة جزيرة  
العرب من العسير فبلاد الامام فنجد فالعراق في الخريف الآتي ، وقد  
ذاكرت فتحي باشا وزير الاوقاف في مصر في هذا الامر فاستكتب  
احد اصحابه من اليمانيين في القاهرة كتابا الى حد اصحابه في عدن  
رغب فيه اليه ان ينتظرنني في تلك الجزيرة في نوفمبر القادم لنذهب  
معا الى جهبا مقر الادريسي وصنعاء مقر الامام يحيى بعد ان يهيا  
لنا حاجاتنا جميعا فيما رأيك في هذا الطريق ؟ فقلت له : اذا كنت  
عازما على زيارة شمال الجزيرة فلم لا تعكس القضية فتسافر  
من هنا الى العراق فنجد اولا ، ثم من نجد الى اليمن فالعسير  
ثانيا ؟ خصوصا وقد بلغني منذ نحو اسبوعين ان السيد محمد  
البسام التاجر المعروف سافر على سيارته الخاصة مع سيارة اخرى  
استأجرها لوضع الذخيرة والزاد الى بغداد بطريق الحجاز ، وانه  
ربما وصل اليها بمدة ثلاثة ايام . فاخرج المستر كراين من جيبه  
خريطة بلاد العرب ورغب الي ان ادله على طريق الحجاز فدلتته  
عليه وقلت له انه يكاد يكون خطا مستقيما الى الشرق اتجاها  
مضبوطا ، وان هذا هو الطريق الذي كان يسلكه الساعي أيام

الحكومة العثمانية . فكان يخرج من الشام فيصل الى الكبيسة على ابواب بغداد في مدة اسبوع، وذكرت له ما حدث معي وهو اني لما سافرت الى العراق في نوفمبر سنة ١٩١٥ اوصلتني القافلة بطريق العراق الى الهيت بعد ثلاثة وثلاثين يوما حيث اجتمعت بنجابة خرجوا من الشام بعد سبعمي بخمسة وعشرين يوما فسافروا بطريق الحماد هذه فالتقينا في الهيت بيوم واحد .

استحسن المستر كراين اقتراحي هذا ودعاني ان اكون رفيقه في هذه السفرة العجيبة فقبلت بعد تردد لاسباب ساينها . ثم اخرج من محفظته حوالة فأملأها باسمي على مصرف نيويورك بمبلغ ١٠٠٠ دولار ( ريال اميركي ) وقال اعط منها خمسمائة ريال الى الانسة قندلفت . واذا ما سافرت الانسة نازك ( واظنها غير مسافرة ) ارجو منك ان تشتري لي بالمبلغ الباقي الحاجات الضرورية لاسفار الصحراء . وفي اواخر سبتمبر القادم اوصي لنا على ثلاث سيارات فورد جديدة سأقدم لك قيمتها من نيويورك وستكون غايتنا العراق اولا اذ نبقى هناك اسبوعا كاملا للراحة ، ومنها نساfer الى نجد فاليمن لدرس القضية العربية في موضعها . ولكن ارجو منك ان تنتبه كثيرا الى ضرورة التكتم بشأن هذه السياحة التي ستكون لها من الرنة اضعاف ما لهذه .

عرفت غيرة المستر كراين على الامم المستضعنة وبعده عن خدمة العسكريين على اختلافهم اذ تجلى لي ذلك في سنة ١٩١٩ ورأيت امامي فرصة سانحة لزيارة بلادي ومهد الجنس العربي مرة ثانية فقبلت منه على كثرة مشاغلي الخاصة وما يتطلب مني في مهبط رأسي . وهكذا ودعته وانصرفت على امل اللقاء لوداعه في الصباح . واذ كنت خارجا من حجرته التقيت بالمستر آلن قنصل اميركا في دمشق وقد اتى لوداعه كأنه اراد ان يشير بها الى ما في زيارة المستر كراين من المرامي السياسية .

## تجميع الناس لوداع كراين :

اسرعت الى داري لان العمل امامي شاق تلك الليلة وهو اذاعة سفر المستر كراين بين الناس لكي يتجمع له في الصباح من المودعين عدد يستطاع تحويله الى مظاهرة سياسية يتشجع بها الناس على حذو الامم الراقية الطامحة الى خلع نير الاستعباد ، ويتخذون منها حجة يهدمون بها كل الاعمال المأجورة التي كان يقوم بها المستعمرون بواسطة اذنانهم امثال بديع المؤيد ومحمد كرد علي وحقي العظم من اذاعة رضاء السوريين عن الانتداب وما يتبعه من تلك الحكومات السورية المحلية التي هي آلة عبادة للتخريب ومحق الروح الوطنية ، مرت بطريقي على ثلاثة من انشط الشباب فاسرعت اليهم بقصد ، ومن ثم ذهبت الى داري فوجدت بانتظاري لفيفا من العلماء والافاضل منهم الشيخ اديب تقي الدين والشيخ توفيق المينيبي والسيد عبد الستار السندروسي ، ثم اتى بعدهم فوزي بك الغزي وعادل بك العظمة فرجوت منهم جميعا ان يسرعوا حالا الى طرق الابواب المغلقة واعلان سفر المستر كراين عند اصحابها . وقد كانت غايتي من هذا التأخير في اذاعة السفر مفاجأة الحكومة كي لا تستطيع ان تأخذ اهبتها وتحبط العمل . ودعني هؤلاء الاخوان وانصرفوا بالعمل الذي اودع اليهم ، اما انا فتناولت من الطعام ما سد الرمق واسرعت الى بيوت النشيطين من بقية الاخوان فأيقظت اصحابها وبينت لهم شأن الوداع وعدت الى بيتي افكر في اتمام العمل ولكنني كنت على كل حال قانعا بأن تشبثي سيأتي بالنتيجة القطعية .

## سعيد حيدر يبين له نسبة ارتفاع الضرائب :

قمت باكرا صباح الخميس في ٦ نيسان سنة ١٩٢٢ فجمعت الوثائق المهمة التي اعطانيها اصحابها باسم المستر كراين ، وبعد ان افطرت وضعتها في جيبي وتدرجت نحو النزول . وما بلغت نصف

الطريق الا ووجدت الشيخ اديب تقي الدين في الترمواي مع مجموعة من المشايخ فتركهم ونزل فصار معي ولما بلغنا النزل وجدت كثيرين من الوطنيين يروحون ويفدون فأشرت الى الشيخ والسيد عثمان الشرباتي والى غيرهما ان يجمعوا الجموع ويهيئوا للساعة العظيمة. ثم صعدت الى حجرة المستر كراين فوجدت عنده سعيد بك حيدر يذكره ببعض الشؤون، وفي نهاية الامر اخرج من جيبه وصلا ماليا من الحكومة لاحد الاعيان بالضريبة المالية على مركبة وقد دلت الارقام على ما يأتي :

على الاصل التركي

١٥٠

٥٠ { الرقم التحويلي للغروش السوري  
١٥٠ الضريبة المتحولة واصلها ٥٠ تركيا

٦٠٠

٦٠٠ ضرائب عجز الميزانية مائة في المائة

١٢٠٠

١٢٠ حصة البلدية في الـ ١٠٠/١٠

١٩ ٥ تذكرة

٥ ضبط كسور

١٣٤٠

وضع المستر كراين هذه الوثيقة الرسمية في حقيته وعجب كثيرا من تزايد الضرائب بهذه السرعة النادرة ، خصوصا بعدما علم ان اعظم دعوى كان بينها الجنرال هي تعهده للاهلين بمناشير القاها من الطيارات قبيل موقعة ميسلون انه سينزل نسبة الضرائب ويرفع شأن الحرية ؟ . . . وهل أعظم من هذا التأثير في الضرائب الى اعلى واشد من هذا الرفع في الحرية الى اسفل ( ١٥٠ غرشا ) ايام الحكومة العربية الفقيرة ضريبة على مركبة لاحد الاعيان اصبحت



١٣٤٠ غرشا ايام الحكومة الفرنسية المساعدة؟ . . . وحرية مطلقة  
في الكتابة والخطابة والاجتماع ايام الادارة البدوية الظالمة أضحت  
عشرين سنة في اعماق السجن للهتاف للحرية امام الادارة الاوروبية؟

### مير شيخ الارض يقدم مذكرة المعهد الطبي :

وبعدما انهى حديثه سعيد بك دخل مير افندي شيخ الارض  
ويده ملف ناوله للمستر كراين . وقال هذه مذكرة من تلاميذ  
المعهد الطبي فيها الرغائب القومية التي عرضتها على مسامعكم  
البارحة بحضور خالي الدكتور فتناولها منه شاكرًا ووضعها في  
الحقيبة ثم ودعه وانصرف .

### كراين يستعد لمغادرة البلاد :

ازفت الساعة التاسعة ولم يعد لموعد السفر الا قليلا فقام  
المستر كراين ولبس ثيابه السفرية وانا ناولته جميع الوثائق التي  
جمعتها له فوضعتها في حقيبته ثم دخل المستر برودي وقال كل  
شيء جاهز يا سيدي فنزل ونزلنا معه ولما اطللنا على بهو النزل  
وجدناه مملوءا بالمودعين فذهب المستر كراين لوداعهم وهناك قال :  
« ما اشد سروري برؤيتكم واسفي لاضطراري الى مغادرة مدينتكم  
وسيكون الدكتور كنج مسرورا جدا من نتيجة تحقيقي » فهتفنا  
للدكتور ، ثم قال : وستكون عقيلتي مسرورة ايضا فهتفنا : فلتحيا  
المسر كراين . ثم علا الهتاف من كل جانب للمستر كراين . ثم قال  
« اتيت لهذه البلاد في وقت لا يسمح لي سني بنظرها للسفر لكي ارى  
البلاد التي زرتها مع اصدقائي سنة ١٩١٩ ، ولا يمكنكم ان تقدروا  
السرور الذي يصيبها من نتيجة هذه التحقيقات البديعة . . تمسكوا  
بقضيتكم فانها عادلة وتوسلوا اليها بالوسائل العصرية لا بالطرق  
القديمة » .

فتعالت الاصوات ايضا ودوى النزل من كثرة الهتاف

وتساقطت الدموع على الخدود من شدة التأثر فلفت نظره الى ذلك  
بالاشارة الى الشيخ اديب تقي الدين ، كان واقفا ورائي وكانت  
خدوده مبللة من كثرة البكاء ، ثم هتفدا للاستقلال السوري  
والاستقلال العربي والدكتور ويلسون والامة الاميركية .

### وداع كراين وانقلاب المسيرة الى مظاهرة :

وبعد ذلك نزل فنزلت الجموع ورائه واسرعت انا الى الاحاطة بالسيارة  
ودعوت بالتلميح والاشارة الى مشاركتي في هذا العمل فكان  
الاستعداد شاملا ولربما كان اكثر الواقفين يتوقعون مثل هذا  
الوداع . ركب المستر كراين السيارة وبجانبه المستر برودي  
وامامهم التراجمة فصاح الناس من كل جانب بالسلامة وعلى الطائر  
اليمون ، فلم يبق احد داخل المنازل الا وخرج الى الشرفات لرؤية  
هذا الجمع الحافل وكانت دائرة حصر الدخان خاصة مكتظة بالناس  
من غربيين وشرقيين ، فأخذتهم الدهشة واعتراهم الدهول من هذا  
المنظر الغريب : عمائم وطرايش وجبب واردية تتعالى اصواتها فلا  
يكاد يفهم المستمع من تلك الضوضاء الا ما تشير به الانظار المتجهة  
من كل حذب وصوب نحو قبة في السيارة من علائم الاجلال  
والاحترام .

اراد السائق ان يسير على بركة الله ولكن الحماس عند  
المودعين اعتوره ووقف في سبيله فمنعه من السرعة اين كان يتوخاها،  
والتي كان ربما يتوخاها المستر كراين ، وهكذا نفذ السهم وخرجت  
القنبلة من المدفع فلم يعد القيادة بأيدي احد بل الجميع استدارتهم  
العاصفة وحولت وجوههم نحو الشارع المؤدي الى ساحة الشهداء  
فساروا وسرنا معه وما كدنا نقطع بضع خطوات الا وقد انتصب  
امامنا على مقدم السيارة رجل اسمر اللون بثياب سوداء تدل  
ملامحه واهتزازات جسمه على الانفعال ، فأشار بيده اشارة سكوت  
فسكت الناس كأن على رؤوسهم الطير ثم صاح بنبرة مصرية فصيحة  
لا شائبة فيها :

بين مصر ونيهلها والشام عهد صدق ووحدرة ووئام  
وابن مصر وسورية اخوان رغم انب الاعادي الطفام

فدوى الشارع من كل جانب بالهتاف لمصر ولاستقلال مصر  
ولسعد زغول فاجاب على ذلك بالهتاف لاستقلال سورية وصاح  
باعلى صوته : « فليسقط الانتداب الافرنسي » فكأنا زادهم بذلك  
لهبا على لهب بحيث اخذ المنشدون بطبيعة الحال يعيدون الاناشيد  
الوطنية التي تعودنا على سماعها ايام حكومتنا الوطنية ، ولما وصلوا  
الى القطعة المعروفة :

نحن لا نرضى الوصاية لا ولا نرضى الحماية  
نحن اولى بالرعاية لبني العرب الكرام

نشر الناس مناديلهم البيضاء في الهواء واخذوا يعيدون من  
هذا النغم طول طريقهم وانا كنت واقفا على رف السيارة اترجم  
للمسافر معنى النشيد ، ولفت نظره الى العدد العظيم من المودعين  
الذي كان يتزايد مع كل خطوة يخطوها اضعافا مضاعفة ، ولما صرنا  
على مقربة من دائرة الاوقاف خرج الى شرفاتها لفيف كبير من  
الشايع تهتف وتصفق للاستقلال . وكان الباعة من الجانبين يرشون  
علينا ماء الزهر وينثرون على السيارة والمحيطين بالسيارة الزهور  
والرياحين . ولما صرنا امام الحمام الناصري سرت عدوى المظاهرة  
جماعة من المتبرنطين فرفعوا قبعاتهم اجلالا واحتراما وصاحوا مع  
الصائحين . ولما وصلنا الطريق التي تحاذي سوق علي باشا التحق  
بالسيارة ووقف على رفاها سيدتان متقنعتان احدهما عقيلتي  
والثانية شقيقة شهيد العرب شكري بك العسلي حيتا المستر كراين  
وهتفتا هتافا عاليا للاستقلال ، فأثر هذا المشهد في الناس تأثرا  
يعجز القلم عن وصفه بحيث كانت الدموع تنهمر على الخدود  
كالسواقي فكنت ترى الجموع تموج كالبحر وهي تتهادى في سيرها  
وتتمايل كالسكران من خمرة النصر وجيشان الصدر ، والخلص

من الاسر وراء تلك اليقظة ضرب من الاحلام لهذا الحد بلغ الشعور الوطني حتى صارت المسلمات المخدرات تشارك الرجال في حمل علم الثورة ؟ ام هل دار الزمان دورته فعاتت خولة من مرقدها لتجاهد في سبيل الحق واعلاء كلمة الله ؟ واذا كان هناك علامة ثانية على ديب الحياة في اجسام اقوام الشرق فهي اشتراك المرأة المسلمة في اظهار العاطفة الوطنية بعدما كانت في خدرها لخدمة منزلها فقط فالاستانة والقاهرة وقازان ودمشق ايضا والحمد لله تساوى الجنسان فيها في طلاب العز وغلاب الضيم .

ثم ان المودعين رأوا ان لا يفوت المستر كراين شيء من تفاصيل هذا الوداع الحافل فأوقفوا السيارة واستأذنوا فكشفوها وانزلوا ستائرهما . لفتنا لفتة السنجدار ودخلنا في اول ساحة الشهداء فوجدنا ضابطا افرنسيا واطنه الرئيس موبسان فصاح المودعون في وجهه بصوت واحد وعلى رأسهم منير افندي شيخ الارض لتحيا الحرية فأطرق ولم ينبث ببنت شفة ، ثم ما زلنا نسير حتى صرنا بجانب المجلس البلدي فأشرت الى عقيلتي ان تهتف للامة العربية فاستعلت على السيارة ورفعت يدها وما كادت تصيح « فلتحيا الامة العربية » حتى دوت الساحة بالهتاف من كل جانب ، فكنت ترى الناس على الشبايك والشرفات والبيوت واللوكندات من هذا المنظر الغريب ما تمالك بعض الموظفين على شرفة دائرة الحكومة وهم بجانب الحاكم العام من التصفيق والهتاف لهذه الحياة الجديدة التي تأخذ بمجامع القلوب . وكان من جملة هؤلاء الموظفين وفي مقدمة المتحمسين زكي بك الخطيب مدير رسائل ديوان الحاكم فكان جزاؤه ان الفيت وظيفته عقيب الحادث فورا . ومن الغريب ان احدهم صاح « هنا فليسقط الخائنون » فأجابه الناس من غير اختيار فليسقط الخائنون مشيرين بأيديهم الى دائرة الحاكم والى المتربعين فيها على مدافن الامة السورية ، وما زالوا يرددون هذا الهتاف

السليبي . وهم كلما تقدموا خطوة ازدادوا حماسة وتضاعفوا عددا حتى صاروا على مقربة من دائرة الشرطة . هنالك اشتد الهياج وتعالّت الاصوات الى عنان السماء بالدعاء على الخائنين اعداء الوطن والشرف فانبرى للناس رقيقنا في الحكم والسجن الاستاذ العفيفي واعتلى السيارة وهو يصيح باعلى صوته « لا يوجد في سورية خائن بل الكل وطنيون مخلصون » فأجبتة ان الذي ينشق عن الجماعة ولا ينزل على حكم الامة ولا يطلب ما تطلبه من الخير هو خليق بأن يسمى خائنا ، ثم انني لاحظت وانا انطق بهذه الكلمات ان مفوض المركز واسمه حسني افندي المأمون من حمض وقف على رأس سلم الدائرة وصاح بالناس ان يتفرقوا ودل اصفرار وجهه وتلعثم لسانه وارتجاج يديه واهتزاز بدنه على شدة خوفه وما تعانیه نفسه من الاضطراب ، ولكن اين من يسمع واين من يبصر واين من يلتفت الى كلام تتفجر منها الحمم ؟ . لفتنا لفتة الجسر على نهر بردى وما زلنا نسير بركاب المسافرين حتى بلغنا نزل فكتوريا فأشرت الى السائق ان يقف لاجل الوداع فوقف وسكت الناس وسكنت الحركة فقلت بالانكليزية للمستتر كراين التفت الى ورائك يا سيدي واحفظ هذه الصورة بقلبك ، وستمر على اوروبا واميركا فترى فيها وهي ما تعانیه من الطمع الاشعبي وحب المادة القتالة أفرادا بضمائر حرة لا يزالون يحيون الانسانية ويفارون على الحرية فاذا ذكر لهم هذا المنظر الغريب واشرح لهم المعاني التي تقرأها ، ثم قلت له بالعربية فليحيا الاستقلال ولتحيا شجرة الحرية التامة والى الملتقى ايها الرسول الكريم « اشارة الى ما ذكره عن نفسه في بستان الحكيم من انه اتى رسولا امينا وسيعود رسولا امينا » ثم اشرت الى الناس ان ينفضوا من حوله فما ابتعدوا حتى رفع قبعته وانحنى للجموع فصفقوا له جميعا وحينئذ ارخى السواق للسيارة العنان فطار يطوي الطريق طيا وآخر ما كنا نراه فيها المستر برودي واقفا وبيده

آلة التصوير يصور بها المناديل المنشورة والايدي المتموجة في الهواء .



## العمل الشعبي بعد سفره :

سافر المستر كراين ولما عجزت الاجسام عن مجاراة سيارته سابقتها الآمال واكتشفتها الاحلام وطوقتها القلوب وهي تنادي من أعماقها على الطائر الميمون ، ولا يعلم احد منا ما كتب للبلاد في اللوح المقدور اللهم الا ان هناك شعبا حيا وشاهدا عادلا والها له حكمة ستحققها الايام رغم انف الفجار . ولما اردنا العود من حيث اتينا التف حولي ليف من الشبان الناهضين وحملوني على الاكتاف وهم يصيحون ليحيا الشهبندر ، فكنت اقول لهم ليحيا الشعب الذي ما داخله القنوط وما خامره الريب . ودعت الجمهور وسرت في طريقي نحو بيتي في الصالحية فتبعني محمد بك اسماعيل وثروت بك الجعفري ، فصرنا نتحدث عن هذه الروح الشريفة في الشعب التي بدت للعيان وليس باستطاعة المستعمرين سترها .

قضيت مصالحي في بيتي وكنت على موعد يتعلق بمصلحة أهلية وصلح بين أقرباء فصلت بينهم الدنيا حيننا من الزمن كما هي عاداتها ، فضمننا مجلس قصصت فيه ما حدث لنا في يومنا ووصفت ذلك الانفجار الطبيعي وصفا دقيقا ، فكانت دموع السيدات تسبح على الخدود وكان جميل بك الاثني رئيس مجلس الوزراء في اول العهد الافرنسي حاضرا فاعتزته الدهشة ، ولولا ما رأى في وجهي الجد لظنني اهزل ، ثم التفت الي وقال : الآن انقضت ايام الحكومة الوطنية وربما اضطر الفرنسيون في القريب العاجل الى مذاكرتي واخذ رأيي في الشؤون الحاضرة فماذا ترى ؟ . فقلت له ان كل حكومة تتخذ على عاتقها تبعة الاعتراف بالانتداب ستسقط لا محالة لان هذه الكلمة اصبحت بنظر الشعب ادنى من كلمة الاستعمار ، ولا

توجد طريقة من الطرائق التي سلكها الفرنسيون في تونس والجزائر الا وهم آخذون في تطبيقها في سورية تحت سر هذه الكلمة البراقة التي تخدعنا بها اوروبا ، فالشعب يفضل كثيرا انه اذا كان يقتل ويمثل فيه من ان يقال له انت بين برائن الوحوش الكاسرة وتحت انياب الثعابين ، لا في احضان امك الحنونة ، واقل ما يقال في هذه الحالة انه لا يكلف بتقديم الشكر منها . .

## اجراءات الحكومة بشأن المظاهرة وبداية توقيفي :

ثم ودعت الحاضرين وانصرفت الى بعض اعمالها الخاصة ، وحينما كنت عائدا الى بيتي قبيل العصر واجهني علي آغا العسلي عند الجسر الابيض ، فقال لي : ان الحكومة قررت اتخاذ الاجراءات بشأن المظاهرة التي حدثت اليوم ، فقلت له ان لا يكثرث لاعمال الظلام والبلاد تئن من الجور وتسعى لخلع نير الاستعباد ، ولا بد لها من البذل والمفاداة ، وانما ما اقدمنا على عملنا الا ونحن مستعدون لتحمل الكوارث . . اتاني لزيارتي الشاب . . . رابطا فكة الاسفل ومتظاهرا بمرض اضطره لمراجعتي فقال لي ان مأمور التحري واقف في الباب ينتظر وان الشرطة اخذت امرا بالقبض عليك وذلك بعد ان قررت البعثة اليوم ابعادك مع حسن بك الحكيم وسعيد بك حيدر ومنير افندي شيخ الارض والشاب المصري الذي هتف للاستقلال عند باب النزل مدة ثلاثة شهور ، وبعدها ودعني وانصرف اتاني زكي بك الخطيب فقال ان الحكومة اليوم بحثت بعد المظاهرة بحثا دقيقا في تطبيق قانون التجمع العثماني عما حدث ، ولكنها في آخر الامر لم تجد بابا تؤاخذكم به فاطمئنا . وعقبه اتاني ياسين باشا الهاشمي فذكر لي مثل ذلك فأخبرته بما كان من أمر الشرطة ومأمور التحري الواقف في الباب ، وقلت له: ان الاضطهاد سيزيد في ايامنا ولا اعتقد ان احدا من اخواني المطلوبين يحجم عن تحمل تبعه اعماله . وبعد ذلك دخل

المفوض وقبل ان أرافقه الى الدائرة اخذت القلم وكتبت الى الرئيس  
ويلسن ما معناه :

### رسالة الى الرئيس ويلسن :

« لي الشرف ان اقص على مسامع حضرة الرئيس السابق  
للولايات المتحدة واذكره انني احد السبعة الذين وقعوا على المذكرة  
التي قدمت اليه بواسطة المعتمد السياسي السابق لحكومته في  
القاهرة سنة ١٩١٧ ، وفيها رغائب الامة العربية . ومن دواعي  
اغتباطي وتعزيتي ان الايام قد دلت بأفصح دليل رغم انف الدسائس  
على ان تلك الرغائب هي رغائب أمتنا المستضعفة ، ثم قلت له ان  
العهود الشريفة التي اقتطعها للناس على جبل فرنون والمبادئ  
السامية التي نشرها بجانب مرقد واشنطنون ، لا تزال مصدر الهام  
المظلومين في الشرق والغرب . وان الكارثة التي سعيننا جهدنا  
لتجنبها فرت كالصاعقة على رؤوس امتنا فأخذت تسحقها تحت  
اقدامها ، ويكفي أن أقول أن هتفة واحدة للحرية والاستقلال  
وللمبادئ السامية التي انطق الله بها الامة الاميركية على لسان  
رئيسها الكريم ادت بالحكومة المستعمرة الى اتخاذ قرار بتوقيفي  
وتوقيف بعض اخواني ، وربما نفينا جميعا بعد ذلك ، وسيقص على  
حضرتة المستر كراين صديقه الامين ما رأى بعينه وسمع بأذنه في  
سورية من المظالم والمفارم التي بلغت ضجتها عنان السماء » .

ولولا الشرطي المفوض المأمور بالقبض علي ونقره على بابي  
يستبطنني ويستحطني الى مفادرة داري لكتبت له من تفاصيل  
امورنا ما يدله على ان البذور التي زرعتها في العالم الجديد نبتت او  
كادت تنبت في العالم القديم ولا سيما في الشرق حيث المظالم على أتم  
مظاهرها .

### رسالة الى المستر كراين في بيروت :

انهيت كتابي ورغبت للمفوض ان يدخل معي الى داخل داري



لأخذ ما أحتاج إليه ، فدخل فسلمت الرسالة الى ام محمد المرصعة وأوصيتها أنه متى عادت سيدتها - ومن غرائب الصدف انها كانت مدعوة حينئذ عند زوج الحاكم للاحتفال بعقد قران احد ابناء عمها - ان تسلمها اياها لترسلها الى المستر كراين في بيروت بواسطة المستر آلن فهو قنصل الولايات المتحدة في الشام ، ثم دخلت الى غرفتي فتناولت من صندوقي بضع جنيهات ذهباً وورقاً ، وحملت ردائي وخرجت الى صحن الدار فوجدت ولدي فيصلا وسحاب قد عادا من المدرسة ، فانحنيت عليهما وضممتهما الى صدري وقيلتهما وكذلك قبلت اختيهن الطفلتين في سريرهما وقلت : اولادي اني مسافر ولا اعود اليكم قبل ستة اشهر ، فسلموا على امكم كثيرا ، فذعرت سحاب واخوها من هذا الخبر ، ولكنهما عادا فظنا اني امازحهما فلما رأيا ام محمد تبكي تحققا الخبر ، فأخذا في العويل والنحيب وتبعاني الى اسفل السلم متعلقين بردائي وهما يصيحان : فين رايح يا بابا لا تتركنا وحدنا دخيلك لا تتركنا وحدنا يا بابا وانتظر حتى تجي ماما نحن كلنا نروح سواء » وقد وعدني المفوض ان يكتم كل الكتمان مسألة الرسالة التي سلمتها الى المرصعة .

خرجت من الدار ودخلت غرفة المفوض ففتش جيوبي .

### القبض على الحكيم وحيدر وشيخ الارض :

بقيت نحو ساعة في هذه الغرفة علمت في غضوننا انه قبض في ذلك المساء على سائر الاخوان المشار اليهم سابقا ، وهم السادة حسن بك الحكيم وسعيد بك حيدر ومنير افندي شيخ الارض ومن ثم ذهبت الى مخفر المهاجرين بالسيارة ، وثاني يوم ركبت السيارة حتى دائرة الشرطة ، وبعد هنيهة طلبت الى حجرة المدير فوجدته فيها ووجدت معه السيد عثمان الشرباتي والسيد سعيد عبيد التاجر المعروف ، فسلمت عليهما سلاماً صميمياً ، وكذلك سلمت على المدير بشيء من البرودة والاشمئزاز والتأنيب على التزامه

جانب الفرنسيين - وهو من ابناء البلاد القادرين على خدمتها -  
الاغراب المستعمرين وقلت في نفسي ما اغنى هذا الشاب الذي  
دل في جميع اطواره على الذكاء وحدة ذهن ونشاط عن تلوين  
اسمه وتدنيس سمعته بتحملة تبعة وظيفة يساق فيها سوق  
البهائم ، وما له وقد كان بالامس على عهد الحكومة التركية والحكومة  
الوطنية يشتغل بالوظائف العالية يرضى ان يكون آلة صماء بيد  
ضابط افرنسي لا يختلف كثيرا عن صفار ضباط الترك والعرب  
جهلا وحماقة ؟ هذا عدا ما ينزل به من الهنات ويلصق به من جعله  
اعراض الناس سلما يمر عليه الى غاياته ، ولا اظن انني آسف على  
فقد شباب من الوطنيين في الحياة اسفي على هذا الشاب المفقود .

فاتحني السيد عثمان الشرباتي والسيد سعيد بك عبيد  
بحضوره فيما جرى حتى تلك الساعة من المذاكرة مع المدير بشأن  
الاجتماع المنتظر في المساء مع الكولونيل كاترو عند عودته من جبل  
الدروز ، وبين الاجتماع الذي حضره لفيف من اعيان البلاد وشبانها  
الناهضين في هذا الصباح الذي عقد في قهوة القوتلي لتقديم احتجاج  
الى الحكومة الوطنية والحكومات الاجنبية ومن جملتها الحكومة  
المحتلة على توقيفنا والتعدي على حريتنا .

وقال ان الناس يتهيئون للخروج بمظاهرة من الجامع الاموي وهم  
ينتظرون الاشارة فما رأيي بها وكان المدير بجاني يصفي لكل بنت  
شفة أنبث بها ، ولكل اشارة اشير بها ، فاتخذت حذري وقلت  
لا بأس من اتباع الرأي الذي تتفقوا عليه ، ونحن في هذه القضية  
رهن اشارة اخواننا الوطنيين ، فالتفت المدير وقال الا ترى ان  
يتأجل كل عمل من هذا النوع الى ان يعود الكولونيل كاترو في هذا  
المساء فتباحث واياه بالمسألة من اساسها كما اتفقنا البارحة في  
بيت انور البكري مع السيد عثمان ؟ . فلم اغير جوابي ، وما كدت  
انتهي من كلامي حتى دخل الرئيس تيربيه معاون آرلابوس والمسيو

بيجون مستشار الشرطة فاضطربنا الى الانتقال للغرفة الملاصقة فلم يفارقنا المدير لمحة واحدة ، كذلك ودعني السيد عثمان والسيد سعيد للاجتماع بالاخوان واتخاذ قرار نهائي في المسألة، ودخل المدير للمذاكرة مع أسياده .

هذا ما جرى لي ، واما ما جرى للأخوان السيد حسن بك الحكيم والسيد سعيد بك حيدر والسيد منير أفندي شيخ الارض فهو كما يأتي :

### حسن الحكيم وما جرى معه :

قال حسن بك الحكيم : « بعدما تم وداع المستر كراين انصرفت مع من انصرف فاتيت الى دار الحكومة كالقائد الظافر بعدما مررت امام دائرة الشرطة على مرأى من عشرات من زعائنها . مكثت هنا نحو ساعة عند احد الاصدقاء ، ثم ذهبت في نهايتها لقضاء بعض مصالحتي ، وفيما انا مار بشارع «رامي» في نحو الساعة الرابعة بعد الزوال صادفت امام قهوة النصر شابا من موظفي التحري في دائرة الشرطة لم أعرفه قبلا ، وكان يتأملني كأنه يريد ان يتحقق شخصي ليفي بوظيفته فقلت له : من انت وما بالك تطيل النظر الي وماذا تريد : فقال الست حسن بك الحكيم ؟ فقلت : نعم قال : انني من موظفي التحري وها هي علامتي ، ان المدير حمدي الجلاد يرجو منك ان تحضر الى الدائرة لمقابلته ، فلم اتردد وكنت عرفت السر فذهبت واياه ، وفي اثناء الطريق مررت على صديقي سعيد بك حيدر وعادل بك العظمة المحامين المعروفين في مكتبهما في بناية العابد واخبرتهما بما حدث كي يتدبرا الامر ويتخذا الاحتياطات . وعندما بلغت الدائرة أدخلت الى غرفة رئيس القسم العدلي والاداري الملاصقة لغرفة المدير ، فاستقبلنا الرئيسان صادق المغربي وتقولا شاهين وحياني احسن تحية ، فسألتهما عن سبب الطلب متجاهلا ، فاجابني ان ليس لهما علم بشيء، ولما

امسى المساء ولم يواجهني المدير علمت النية الحقيقية . وفي هذه الاثناء جاءني احد افراد الشرطة وطلب الي ان اخرج ما في جيوبي فأبيت الا بحضور هيئة فجاء معي حلمي عزيز ، وعندها اخرجت كل ما معي ومن جملتها احتجاج التجار على الحواجز الجمركية ما بين سورية وفلسطين بخط فارس بك الخوري ، فأخذه مع مفكرتي الخاصة واعاد لي سائر الاوراق وهنا علمت منه انه قبض ايضا على الدكتور شهبندر وسعيد بك حيدر ومير افندي شيخ الارض وقد وضع كل منهم في غرفة على حدة .

وفي الساعة التاسعة جاءني شرطي آخر فقال تفضل ياسيدي فقد حضرت السيارة ، فلم أشأ ان أسأله الجهة التي سأذهب اليها بل نزلت فركبت السيارة يرافقتني فيها مفوض وشرطيان بألبسة عربية وكانت مغطاة فسارت بنا عن طريق الصالحية ثم عرجت نحو سوق ساروجة فمحلة السمانة وهناك نزلت الى المخفر لاقضي تلك الليلة فيه . وقد اوصى بي المفوض الذي اتى معي رئيس المنطقة السيد خضر الذي كان اذ ذاك حاضرا هناك ، وكلفه الاعتناء بأمره كما امره المدير ، فقضيت تلك الليلة في المخفر المذكور بحراسة الشرطيين اللذين أتيا معي على طريق المناوبة . والحق يقال اني رأيت من حسن المعاملة والاعتناء بخدمتي ما يقضي علي الواجب الاعتراف به .

وفي صباح اليوم الثاني ٧ نيسان سنة ١٩٢٢ في نحو الساعة العاشرة جاءت سيارة مستورة ايضا وفيها أحد افراد التحري فأقلتني بطريق سوق ساروجة جوزة الحدياء - شارع قهوة الجنينة فساحة الشهداء الى دائرة الشرطة . هناك ادخلت الى غرفة ديوان الرسائل فمكثت فيها الى الساعة الواحدة بعد الظهر وعندها سمح لي بالاجتماع برفقائي في الغرفة المجاورة » .

## سعيد حيدر وما جرى معه :

وقال سعيد بك حيدر : « توجهت بعد المظاهرة الى العدلية لمقابلة المدير بشأن قضية في حماه انا وكيلاها ، ولما لم أجد انتظرت في غرفة المفتش عارف بك نكد ومدير الرسائل سامي بك العظم ، وفي هذه الاثناء رأيت رجال الشرطة يجيئون فيسألون عن الدستور باهتمام ، فلما سألت عن السبب أجابني عارف بك : انهم يبحثون عن قانون الاجتماعات ليطبقونه على المتظاهرين ، ولكنهم لم يجدوا . فقلت له يوجد في الجزء الرابع من الدستور . وانا كذلك اذ حضر الحاج صادق افندي رئيس القسم العدلي في دائرة الشرطة وهو متأبط مجلد من الدستور ، ففهمت ان مجلس المديرين مجتمع وعنده مدير الشرطة لهذه الغاية . ولما لم يهتدوا في قانون الاجتماعات الى ما يشفي غليلهم فكروا في طريقة اخرى . ولكن على كل حال لا يتعدى الامر حدود السجن من اسبوع الى شهر . ولما خرج مدير القسم العدلي أتممت حديثي مع المفتش الفاضل ثم نزلنا فوجدت مدير الشرطة خارجا من غرفة الحاكم وهو مهتم ومعه الدستور ، فلما رأني حول وجهه عني وذهب نحو قلم الخارجية ، أما انا فاني قابلت مدير رسائل المتصرف لامور خاصة .

ثم ذهبت للعداء في بيتي ، وبعد الراحة نزلت الى اعمالتي ، وبينما كنت جالسا في مكتبي في نحو الساعة الرابعة مساء حضر الخادم ودفع لي تذكرة الطبيب وقال أن والدتك المريضة تريد هذا الدواء فقمنا حالا وذهبت الى صيدلية جميل افندي الكحالة فأخذت لها الدواء المطلوب واعطيته للخادم ، وعند خروجي من باب الصيدلية بادرنى شرطي في مقتبل العمر رقيق الحواس لطيف المعاملة اشقر الشعر لا اذكر اسمه ، ثم قال : ان مدير الشرطة يود مقابلتك الآن فعلمت من هذه الجملة كل شيء وسألته هل بإمكانني ان اذهب الى مكتبي قبل الذهاب الى دائرة الشرطة فلم يمانع

فمشى حذوي ، وفي اثناء الطريق قابل اثنين من زملائه الشرطيين فتبعاه ايضا بناء على اشارة منه ، فذهبت الى المكتب وأخبرت شريكي بما حدث ، وعدت مع احد الشرطيين الى دائرة الشرطة ، وصادفت في طريقي الموظفين مرفضين من اعمالهم ، فصارت ترمقني الانظار وتشير الي الايدي بالسلام ، وصادفت حبيب افندي الكحالة صاحب جريدة سورية الجديدة وكان بيننا وعد لحل بعض المسائل الخاصة ، فسألني هل انا على وعدي فأجبتة انت ترى ما انا به الآن ولا اعلم اذا كان بالامكان عودتي ، ثم دخلت في الدائرة الى حجرة المفوض حلمي عزيز فسلمت عليه فاستقبلني ببشاشة واحترام ، ثم قدم لي مكانه امام النافذة المطلة على نهر بردى وقدم لي لفافة تبغ ثم نهض ووقف أمامي وأدار ظهره الى شرطي آخر بجانب الباب بحيث لا يسمع كلامنا ولا يرى وجهينا ، فذكر عهد المودة بيننا منذ كنا في المدرسة الاعدادية في صف واحد معا ، وما يحمله من الحب والاحترام ، لذلك فهو يطلب أن اكلفه بما يحتاج اليه ، ثم قال أنا سأذهب بالشرطي الذي على الباب ليخلو بك المكان ففتش نفسك وأتلف جميع الاوراق التي تراها مضرة ، ولما عاد طن جرس الهاتف فتناول السماعة وفهمت من مجرى الحديث ان مخاطبه يستأذنه بالدخول الى البيت لان الرجل الذي يريد توقيفه لم يخرج ، فاجابه بقوله : ادخل قبل ان يمسي المساء لان محل العيادة غير مسكون والح عليه بالسرعة ، فسألته من الرجل المطلوب ؟ فقال : الدكتور شهنندر ، فقلت : لا حاجة للتشدد لاني أظن ان الدكتور الفاضل لم يرتكب الفرار خصوصا وهو لم يأت أمرا فريا ، فهز رأسه وقال : ما حيلة المأمور ؟ ثم سألته : هل المطلوبون كثيرون ؟ قال انت والدكتور شهنندر وحسن بك الحكيم . وبعد برهة قال : منير افندي شيخ الارض الذي اسديت اليه من المعروف سابقا واحسنت به اليه يوم حادثة المدرسة الطيبة وقف اليوم على ظهر السيارة امام الشرطة وصاح

بملىء فمه مشيراً بحونا والينا : « فليسقط الخونة فليسقط  
مدير الشرطة ومفوض التحري ورجالهم الاوباش » مرارا ، اما والله  
لانتقم منه انتقاما لن ينساه ابدا . فقلت له : اذا كان منير افندي  
غير مطلوب من قبل الفرنسيين فانصحك ان تصرف النظر عنه ولا  
تنتقم يكون خير لك واكرم لنفسك . فوجم ولما اصررت عليه قال  
بصوت خافت : « مطلوب » .

ثم خرج وعاد ضاحكا لان منير افندي قد حضر فسألته اين  
وضعتة ؟ فقال : بمكان يليق به ، ومن ثم علمت انه في غرفة المعاينة  
فقلت : الا خوف عليه من الجرائم هناك ؟ فطمأنني وذهب ، وبعد  
ساعة اتاني شرطي يدعي حسن افندي المغربي وقال لي : تفضل ،  
فخرجت واياها وركبنا سيارة كانت تنتظرنا في الباب وركب معنا  
شاب بالبسة ملكية فهمت منه انه من البقاع في مدرسة الشرطة  
وانه وكل اليه والى شاب آخر امر حراستي تلك الليلة .

وقفت بنا السيارة امام مخفر الشيخ حسن في اول طريق  
الميدان فاستقبلني مفوض المخفر محمود لطفي باحترام وبشاشة  
وصعدت الى الطابق الثاني حيث وجدته قد حضر لي سريرا لطيفا  
ولا انكر ان الغرفة نظيفة وجامعة لاسباب الراحة ، وبعد حين حضر  
طعامي من البيت فأخذته وتعشيت وقد كان الشرطيون هنا  
باجمال على جانب من الملاطفة ولسان حالهم يقول :

ما حيلة المرء والاقدار جارية  
القاه في اليم مكتوفا وقال له  
عليه في كل حال أيها الرائي  
اياك اياك ان تبتل بالماء

قضيت معهم ليلتي أمازحهم واتهكم على معاملة الافرنسيين  
التي لا تزلزل المبادئ ولا تضعضع العزائم . وفي صباح الجمعة  
حضرت سيارة فأقلتني الى دائرة الشرطة فجلست في غرفة في  
طابقها العلوي كان ينام فيها رهط من الشرطة . وفي تلك الاثناء

أقرب مني شرطي وسألني ماذا تريد ان تتفدى ؟ فأجبت ان نفسي لا تطلب الاكل ولكن اين الدكتور شهنندر وحسن الحكيم ومير افندي شيخ الارض ؟ فأجابني ان الدكتور عبد الرحمن بك في الغرفة المجاورة عن اليسار وحسن بك عن اليمين وانهما قضا ليلتهما خارج دائرة الشرطة وأتيا مثلي في الصباح وأنا كذلك اذ دخل عثمان افندي الثرباتي وسعيد افندي عبيد فاستنسرا عن صحتي وقالوا ان المسألة قريبا تنتهي ثم سألاني عن الدكتور وحسن بك فدللتهم عليهما فخرجا .

### مير شيخ الارض وما جرى معه :

وقال مير افندي شيخ الارض : «وبعد ان ارفض المودعون من الوداع الشاق الذي حصل للمستمر كراين، عدت الى المعهد الطبي وشرحت لاخواني ما جرى لي في المهمة التي انتدبوني اليها من تقديم رغائب التلاميذ الاستقلالية له ، فسروا من ذلك سرورا عظيما ، خصوصا لما وصفت لهم الطريقة العجيبة التي ودعناه بها وكيف احطنا بسيارته وهتفنا للاستقلال .

عدت الى منزلي وقت الظهر فوجدت شرطيا من معارفي ينتظرني في الباب ، فتقدم الي وقال : صدر أمر بالقبض على اناس كثيرين من الوطنيين لم اعرف منهم سوى الدكتور شهنندر وحسن بك الحكيم وسعيد بك حيدر وانت منهم ايضا فخذ لنفسك الحيطة واعمل ما يقضي عمله . فشكرته على ذلك ثم اخذت افكر في الامر فتارة كان يخطر ببالي الهرب وهذا فيه ضياع الجهود التي بذلت في سبيل القضية الوطنية ما فيه . وطورا الاستسلام فيمرفي مخيلتي عندئذ تلك المظالم المعروفة عن ارباب السلطة مالا يحتاج الى بيان ، فعولت اخيرا على تسليم نفسي ، وفي المساء قصدت ادارة البريد والبرق لاعمال خاصة فصادفت حضرة الاديب السيد معروف الارناؤط أحدصاحبي جريدة فتى العرب فاخبرني انه قبض



على حسن بك وسعيد بك فقلت له : انا قريبا يقبض علي ايضا .

ومن ثم اخذت افكر في الذهاب بنفسي الى الشرطة والانضمام الى رفقائي وانا كذلك اذ مر امامي مفوض التحري للشعبية الافرنسية ابو حاتم وتظاهر انه لم يراني ، وبعد مرور دقيقتين اذ الشرطي يدعوني لمقابلة مدير الشرطة ، فذهبت معه ووصلت الى الدائرة حيث لقيت على بابها المفوض حلمي عزيز فاستقبلني بوجه ملؤه الانتقام والغدر وسبب ذلك طعني عليه وعلى مديره ورجال الشرطة اجمالا ، واطهار ما يرتكبون من الدعارة والفسق في المدينة دون حياء ولا وجل ، فأدخلني الى غرفة موبوءة بالجراثيم تعطى فيها الاجازات للخاطئات واخذ يفتش بالبستي وينبشها فلم يجد شيئا ، ولحسن الحظ انني كنت تركت مسدسي في البيت قبل ان اغادره ولولا ذلك لكان لضبطه شأن عظيم غير اثر المظاهرة . ومن ثم نقلت الى غرفة في الطابق العلوي من الدائرة تطل على شارع سليمان شفيق باشا فرأيت عن بعد جمعا غفيرا من الشبان فهتفوا لي حالما تعارفت الوجوه واثاروا بمناديلهم ، فلما أبصرهم الشرطي المكلف بحراستي وأسمه عارف افندي كلفني ان انتقل الى جهة ثانية من الغرفة .

وبعد نحو ساعتين دعاني رئيس القسم العدلي صادق افندي المغربي بصحبه حلمي افندي عزيز الى سيارة كانت تنتظرني في الباب ، فركبت وسارت بنا الى جهة ساحة الشهداء فهمس في اذني الشرطي اننا ذاهبون الى المنزل ( بناية العابد ) . فلما وصلنا ادخلت الى مطبخ هذه البناية فرأيت فيها شابا يهوديا من التبعة الامريكية اسمه يوسف ، وآخر من اهالي صيدا فلاطفاني وخففا عني وحشة السجن .

وفي الصباح اطللت من النافذة فرأيت شقيقي صلاح الدين فقال : ( هل انتم مسافرون لانه اتصل بنا انكم ستنفون ) فقلت

له : لا علم لنا بشيء من ذلك ، فاستيقظ الشرطي على كلامنا  
فصرفه من امام النافذة ولكن اخي اجابه على عمله بقوله : وهل  
تظنون ان السجون ترهبنا وتحول امانينا . ثم انقطع الحديث ولم  
أعد أسمع شيئاً .

وبعد الظهر جاءني شرطيان اثنان وعادا بي الى دائرة الشرطة  
فلقيت على بابها حلمي عزيز الذي لقيته البارحة فاستقبلني  
بوجه باش بخلاف استقباله السابق ، واخذ يلاطفني وقدم الي  
كرسيه وجعل يقص علي اخبار البلدة وانها هائجة بسبب توقيفنا  
وانه عقدت في الصباح اجتماعات عديدة والمظاهرات على وشك  
الانتشار ، وبعد هنيهة حدثت ضجة عظيمة في الدائرة وجلبة  
واختلط الحابل بالنابل باسباب المظاهرات التي ابتدأت .

هذه اخبار اخواننا الثلاثة الذين أوقفوا معي ذكرتها باختصار  
نقلا عن مذكراتهم وقد علمت يومئذ ان اخا رابعا وهد السيد  
العفيفي نام ليلة في القشلة الحميدية ايضا ، وسأذكر ما جرى له  
في الوقت المناسب .

### **الاجتماع الشعبي بقهوة القوتلي وتقديم الاحتجاج للقناصل :**

ذكرت في آخر الكلام ان المدير اختلى بسيدية بيجون مستشار  
الشرطة والرئيس تيربيه معاون أرابوس ، بعدما ودعني السيد  
عثمان الشرباتي والسيد سعيدي بك حيدر والسيد سعيدعبيد، وبعد  
هنيهة عاد الي يقول ان ليفا من الرجال اجتمعوا بقهوة القوتلي  
منذ الصباح وهيئوا صورة احتجاج للدول على توقيفكم وقد  
فرقتهم الشرطة بعد ان ضبطت الاوراق التي بأيديهم ، وقد  
تعددت الان المسألة لان الفرنسيين قرروا استلامكم خوفا من تقصير  
شرطة الوطنيين وعجزها عن القيام بما اودع لديها ، وبلغني ان  
المحتجين قرروا الاجتماع في الجامع الاموي ليخرجوا منه بعد  
صلاة الجمعة بمظاهرة وانا انتظر التطورات على أحر من الجمر .

وقد علمت من أخبار المجتمعين ما يأتي : ان عددهم لا يعرف بالضبط ولكنهم ملأوا القهوة وكان بينهم محمد بك اسماعيل يحيى حياتي وعبد الستار بك السنديروسي مدير رسائل النافعة ومحبي الدين بك صادق قائد الموقع في الشام سابقا وحسن أفندي الحلواني (تاجر) وحسن أفندي الطرايشي (تاجر) وصبري أفندي البديوي (ضابط في الجيش التركي والعربي) ورشدي أفندي (صحافي) وأحمد أفندي ايلوش (تاجر قومسيونجي) وجميل أفندي جمعة (صاحب محل طحين) وعادل أفندي شيخ الارض (صحافي) ورشدي أفندي الحكيم (مميز ديوان الرسائل في العديلة وصحافي سابقا) وعبد الهادي أفندي دياب (تاجر) وعارف بك الادلبي (قائد اركان حرب في العهد التركي ) وحسن بك الزنبركجي (قائد في الجيش ) وتوفيق أفندي القضماني (قائد في الجيش) .

### توفيق الحلبي يتحدث عن الاجتماع :

ونرى للدلالة على ما حدث من التطورات ان نذكر الخلاصة الآتية من مذكرات احد الاخوان الذين لعبوا دورا مهما في هذه الحركات وهو السيد توفيق الحلبي :

« بعد ان ودع الناس المستر كراين قابلت الدكتور شهنندر تجاه فندق فيكتوريا واتفقنا على ان لا نتغيب عن الحكومة فيما اذا رغبت في طلبنا ، وذلك ادعى لانتشار الفكرة التي نشدها ، وهكذا كان فقد قبضت الشرطة على الدكتور شهنندر ورفقاه ، وفي مساء ذلك اليوم سمعت من السيد عثمان الشرباتي ان الحكومة وعدت باطلاق سراحهم في اليوم الثاني صباحا في الساعة العاشرة . ثم قال بت تلك الليلة قلق البال وذلك لا لسجن الدكتور واخوانه بل خشية اخلاء سبيلهم لان الفرصة لا تزال سانحة لتوسيع نطاق هذه الحركة وظهورها في العالم السياسي بأجلى المظاهر ، فصممت على هذه النظرية وتمسكت بها فكتبت بطاقة

الى ابنة خالتي الآنسة نازك العابد قلت لها فيها : « ان دائرة الشرطة قبضت على حضرة الدكتور شهبندر واخوانه وقد اعتبر الوطنيون ذلك فرصة لاطهار عواطفهم وרגائبهم ، وانت من اعظم الوطنيات اخلاصا للبلاد ، فأود منك مؤازرة عقيلة الدكتور والسعي الى عمل مشترك يظهر من السيدات يكون فيه تأييد للحركة الوطنية » . ثم ذهبت الى دار الحاج اديب خير فتحدثنا قليلا في هذا الموضوع وبينما كنا على طريق عرنوس اذ صادفنا عثمان افندي الشرباتي ، فعلمنا منه ان الوطنيين سيجتمعون في قهوة القوتلي ليحتجوا على سجن من سجن من رجال البلاد ، وذلك اذا لم يطلق سراحهم في الساعة العينة يعني في الساعة العاشرة . مشينا على مهل حتى وصلنا الى قرب ساحة الشهداء حيث اطل علينا حليم بك حروش من شرفة فندق فكتوريا ، فقصدنا اليه فوجدنا في غرفته الامير فائز الشهابي وهما يتحدثان عن الحادثة الكرينية فاشترطنا معهم في الحديث ، وعلمنا من حليم بك ان مدير الشرطة قدم الى البعثة قائمة بأسماء جميع الرجال الذين اشتركوا في وداع المستر كراين ، حتى انه ذكر فيها اسم ابن شقيقه - يعني اسمي - مرتين ، قال السيد توفيق : ثم نظرنا الى مدخل دائرة الشرطة فرأينا السيارات تأتي بكل من اخواننا على حدة حتى اجتمعوا كلهم هناك .

## الانتقال الى الجامع الاموي :

وقد مضى نصف ساعة على الموعد ولم يطلق سراح احد فعلمنا ان الحكومة لا تريد ان تفي بوعدنا ، حينئذ ذهبت السي قهوة القوتلي فرأيت الوطنيين ووجدت مفوض التحري ومفوض الشرطيين يكتبون اسماءهم فيها . فجلست مع الوطنيين فكتبت اسمي مع اسماءهم ، ثم دخل علينا رئيس القسم العدلي يصحبه خمسة من رجال الشرطة فقال : « باسم القانون يجب ان تتفرقوا » وقام من بيننا محمد بك اسماعيل فنأدى الى الجامع الاموي ايها

وبينما كنا خارجين من القهوة قابلنا رئيس القسم الاداري نقولا افندي شاهين ومعه ١٢ شرطيا فلم ير حاجة للكلام ثم قال توفيق افندي : اما انا فاني سلكت الطريق الى سوق الحميدية حيث التقيت بالدكتور محمود بك حموده وسليم افندي عبيد وبعض التجار ورأيتهم يتذكرون عن اخلاف الحكومة بوعدھا ، اذ جاء سعيد افندي عبيد فقال : انا اخذنا عهدا من مدير الشرطة انه اذا لم يحتج الاهلون في هذا اليوم ولم يحدث تظاهرات فقد تطلق الحكومة سراح الموقوفين ، فقلت : ان الحكومة نكثت عهدھا في المرة الاولى وستنكثه في المرة الثانية ، وما القصد من هذا التسويف الا ربح الوقت والانتظار ريثما يمر هذا النهار ، فتفوتنا صلاة الجمعة . قال سعيد افندي عبيد : ان عثمان افندي ذهب الى الجامع ليخبر المواطنين ان يعدلوا عن المظاهرة . قال السيد توفيق : فذهبت حينئذ انا والسيد سعيد واجتمعنا في الجامع الاموي بعثمان افندي ومحمد بك وغيرهما فأقنعتهن وبينت لهن ضرورتها وان المصلحة تتطلب حركة واسعة ، ثم قلت لهن : اني صاعد الى السدة وربما تكلمت بما يخطر في بالي فلم يردوا جوابا .

### توفيق الحلبي يخطب في الجامع :

صعدت الى السدة وبعد فراغ الامام من صلاة الجمعة خطبت في الناس قائلا : ايها الاخوان الكرام ، لقد زار دمشق منذ بضعة ايام المستر كراين رئيس اللجنة الامريكية عام ١٩١٩ ، فبلغ الناس انه جاء ليستطلع رأي السوريين في مستقبل بلادهم فاجتمع به منهم خلق عظيم من علماء وادباء وتجار وبينوا له شكواهم وما هم عليه من الضيق والشدة وبينوا له رغبتهم في الاستقلال التام الناجز ، وصباح امس ودعه لفيف من اهل الفضل واظهروا له في خلال الوداع شعورهم وهتفوا للحرية والاستقلال . ثم في المساء

قبضت الحكومة على السادة الاخوان فلان و . . .

أتعلمون لماذا قبضت الحكومة عليهم ؟ انها فعلت لهتافهم للاستقلال فانا متألم من الحالة الحاضرة وأهتف لاستقلال بلادنا أيضا . فمن كان متألماً مثلي فليذهب الآن الى البعثة نفسها والى قناصل الدول وليحتج على سجنهم ويضم صوته الى صوتهم . وهنا علا الضجيج والنداء ( فليحيا الاستقلال التام ) : لنحتج نحن متألمون . ثم قلت : ايها الاخوان ان المستر كراين قد أوصانا أن نعقب قضيتنا بالطرق المدنية لا بالطريقة القديمة يعني بالطرق السلمية لا بغيرها ، فأرجو منكم اتباع نصيحته واستعمال التؤدة والسكينة . ثم تكلم بعدي الدكتور خالد الخطيب فالسيد محمد الشريقي فكان لكلام الجميع اعظم تأثير في نفوس المستمعين الذين هاجوا وماجوا وخرجوا من الجامع وهم على اشد درجات التحمس ، يقصدون الحكومة للاحتجاج « . هذا ما ذكره توفيق أفندي الحلبي .

### خالد الخطيب ينظم العمل :

اما الزميل الدكتور خالد أفندي الخطيب فانه قال ما يأتي :  
« على أثر مظاهرة الوداع للمستر كراين عاد كل منا الى عمله وبمنفسه ما بها من الفبطة والسرور من مظاهر تيقظ الشعب . وعلمت في المساء أن الحكومة قبضت على السادة الدكتور شهنندر واخوانه فدعيت على أثر ذلك لفيفا من الشباب الوطنيين المخلصين الى داري منهم السادة عبد الستار بك السندروسي ومحمد بك الشريقي معلم الادبيات العربية في مدرسة برلتيز وسكرتيرها والاستاذ جميل أفندي الحموي الصحافي و ابراهيم أفندي الحقوقي وعلي أفندي الشواف من طلبة القسم الطبي والدكتور سيف الدين البستاني والدكتور ابراهيم ادهم والضابطين فائق أفندي البرازي وعبد الرزاق أفندي البكري وغيرهم فدام الاجتماع الى نحو الساعة

الحادية عشر ليلا وكانت الاحاديث تدور حول ما يجب عمله الآن بعد سجن السادة الاخوان فكان اخر ما عزمنا عليه القيام بمظاهرة كبرى بعد اداء صلاة الجمعة ، ثم قرر الحاضرون انتخاب لجنة لتنظيم شؤون المظاهرة، فوقع الانتخاب علي وعلى السيد السندروسي والسيد الشريقي فضربنا موعدا لاتمام العمل في اليوم الثاني .

اجتمعنا في الصباح في الموعد المعين فقررنا ما يأتي :

أولا - أن أتكلم خطيبا في الناس حاثا على المظاهرة والاحتجاج .  
ثانيا - أن يخطب بعدي السيد الشريقي حاثا على المظاهرة والاحتجاج أيضا .

ثالثا - أن نحضر قطعا من الورق كبيرة نكتب عليها ما يثير العواطف وتوزيعها على الفتيان لنشرها بين الناس عند ظهور الجماهير المتظاهرين .

رابعا - أن نكتب صورة احتجاج ننسخ منها اربع نسخ تقدم واحدة منها لكل من قناصل أمريكا وانكلترا وايطاليا والبعثة الفرنسية .

خامسا - أن تتلى صورة الاحتجاج على مسامع المتظاهرين امام دار الحكومة المحلية .

وبعدما اتخذ هذا القرار كتبنا القطع المذكورة فكانت اربعا الواحدة : (الله والوطن والانسانية) والثانية : (باسم العرب نحيا وباسم العرب نموت ) والثالثة ( يحيا الاستقلال العربي التام ) والرابعة : (الاستقلال حياة الشعوب) ثم نظمنا صورة الاحتجاج واليك هي ملخصة :

ان الشعب السوري الحر يرجو من حضرتكم تبليغ حكومتكم احتجاجه الآتي :

« ان السلطة في دمشق قبضت على خيرة رجال سورية ورمت

بهم في اعماق السجون المظلمة ، وذلك لمجرد هتافهم للحرية والاستقلال وهما رائدا كل شعب حي فالامة السورية على اختلاف المذاهب والطبقات تحتج بكل شدة على اعمال السلطة الفظيعة وتجاهر بطلبها الحرية والاستقلال ، فهما بغيتها المنشودة في كل آن واقبلوا يا سيدي خالص تحياتنا .

وقد وقع على النسخ الرابع السالفة الذكر عدد غير قليل من الاطباء والمحامين ومأموري الحكومة وارباب الحرف وطلاب المدارس العالية . أذف وقت الصلاة فحملت القطع وصور الاحتجاج وقصدت الجامع الاموي . وفي اثناء المسير اتاني شاب واخبرني عن لسان الشرباتي ان الدكتور شهنندر واخوانه تفاهموا او سيتفاهمون مع الحكومة ويطلق سراهم في القريب وهم لا يرغبون في المظاهرة ، فلم اعر لذلك سمعي بل بقيت انتظر انتهاء الصلاة . وما كادت تنتهي حتى سمعت السيد توفيق أفندي الحلبي يخطب من على السدة ويدعو الناس للامر الذي قررناه مع اخواننا ولم يكن بيننا وبينه سابق تفاهم على ذلك وما أنهى كلماته حتى وثبت الى السدة المقابلة للمنبر فقلت : أيها السادة ان الحكومة في اليوم الماضي قبضت على الدكتور شهنندر واخوانه وزجتهم في ظلمات السجن لهتافهم لحرية البلاد واستقلالها ساعة وداع المستر كراين الامريكي .

ايها السادة : ما سمعنا قط أن العدالة تقضي بسوق رجال الامة الى حيث يسجن قطاع الطرق والقتلة والسارقون وذلك لمجرد هتافهم لاستقلال بلادهم وحريتها وهما حقان من الحقوق التي منحها الله للشعوب واقرتها العدالة وقد لحق الامة السورية عار من ذلك لا يكشفه الا ان تذهبوا بجموعكم المتراصة متظاهرين بمظاهرة سلمية تعرب عن شدة تمسككم بالسلام والمدنية فتحتجوا لدى قناصل الدول ومعتمديها على هذا العمل الفظيع وتطلبوا اليهم ان يبلغوا احتجاجكم هذا وارادتكم للحرية والاستقلال



وتفانيكم في سبيلهما الى حكوماتهم، فتسمعون بذلك صوتكم مشارق الارض ومغاربها ، وترفعون عن انفسكم عارا الحق بكم وبالامة العربية اجمع . أيها السادة : ان لكم خير قدوة واعظم مثال باخوانكم المصريين فانهم جعلوا الازهر مقر مظاهراتهم الوطنية فيمكن مقر مظاهراتكم الجامع الاموي . وهنا انبرى من الجهة المقابلة السيد الشريقي فتكلم بضع كلمات لا تخرج عن المعنى السابق وانا عدت ثانية الى الكلام فقلت : وقد نجحت الامة المصرية ونالت معظم ما تريد وانتم ستنالون مثلها ان شاء الله . سيروا فان الامة المتكاتفه لن يضعفها قوة ولا تقف في سبيلها عثرة . وهنا نشرنا القطع المكتوبة وفرقناها على الشبان .

### انطلاق المظاهرة من الاموي :

سارت الجموع بالتهليل والتكبير واستولى الخشوع والحماس على قلوب الجماهير وانهالت الدموع من الآماق واصفرت وجوه الجواسيس الذين كانوا يشاهدون كل ذلك بأعينهم ويسمعونه بأذانهم ، ثم خرج الناس من الباب الغربي للجامع وكان منظرهم أشبه بالبركان المضطرب وكات القطع المنثورة بينهم واصوات التهليل والتكبير والهتاف بالفة عنان السماء .

سرت مع من ساروا وما كدت اصل باب الجامع حتى رايت رجال الشرطة وعددهم زهاء الاربعين بين مفوض وشرطي وعلى راسهم حسني افندي المأمون مفوض المركز منهلين على تلك الجموع بالضرب بالاسواط والقرع بالعصي من غير شفقة ولا رحمة، فطوحت بنفسي الى ما بينهم فأصبت بضربتين شديتين على كتفي وعلى ساق رجلي ، فصرخت في وجه الاشرار على رسلكم يا رجال الامن ، كفوا عن هذه الامة المسكينة ، فانها تتظاهر مظاهرة سلمية لتمحي عن نفسها عارا الحق بها وتطلب استقلال بلادها وان ما تتقاضونه من الراتب الزهيد لا يفيكم عن امتكم ووطنكم شيئا . فلم يكثر

عباد الدراهم وخدمة المستعمرين بكلامي بل استمروا على منع الناس من المظاهرة، وحاولوا ارجاعهم من حيث اتوا، فلم يفلحوا بل ان الشعب المتحمس اخترق صفوفهم .

ولي الفخر اني سرت في الطليعة فكان الضرب ينهال علينا من كل جانب ونحن نشد الاناشيد الوطنية ونحيي الاستقلال حتى بلغنا باب البريد حيث اشتد الخصام والجدال بين المتظاهرين وهم يعدون بالآلاف، وبين رجال الشرطة وقد بلغ الطيش بهم انهم اشهروا مسدساتهم وصوبوها الى صدور الامة، وكان البادىء في هذا العمل شرطي من حماه من بيت الشرباتي، وضع هذا الشرطي فوهة مسدسه على صدغ السيد عبد المجيد الطباخ شقيق القائمقام محمد بك الطباخ وهدده باطلاق النار اذا لم يرجع، فثارت الامة على هذا الشرطي وهجمت عليه فانتزعت منه مسدسه ولولا المصالحة لما اكتفت منه بأخذ سلاحه. هنا سمعت رجلا ينادي مستغيثا يا دكتور خالد فألتفتت فرأيت عبد الستار بك السندروسي بين ايدي جماعة من الشرطة يشبعونه ضربا ويجرونه نحو المخفر، فأنقضت عليهم وفرقتهم عنه ففر من بين ايديهم .

وما زلنا نواصل السير ونحن نشد ونهزج والحماسة آخذة منا مأخذها حتى صرنا بمنتصف سوق الحميدية، وكانت الحوانيت كلها مقللة اللهم الا القليل منها وكان اصحابها يقفون لتحية المتظاهرين بالتصفيق المتواصل، بل ان اكثرهم لم يكتف بذلك، بل كان يفلق حانوته وينضم الى صفوف المتظاهرين. هنا ظهر الخيالة الشرطيون يتسابقون على ظهور خيولهم ويتحامسون للهجوم بواسطة بعض الكلمات التي تستعمل في بلادنا عادة لاجل التحميس مثل (عليهم عليهم) و (عنديك عنديك) فمزقوا صفوف المتظاهرين وخيولهم تغدو بين الناس كالبرق الخاطف والمسدسات مشهورة بأيديهم وهم يحذرون الناس من التقدم باطلاق الرصاص اما أنا فألقيت بنفسي بين السنة النار وحوافر الخيل وناديت

بالمتظاهرين بأعلى صوتي ( اين الامة الحية لا يخيفها بنادق  
المستعمرين واجرائهم ؟ )

فتقدمنا والصياح يعلو من كل جانب ونحن ندحر الخيالة  
حتى اول شارع السنجدار الذي كانت حوائته مغلقة من اولها  
الى اخرها ، فلما شعر الشرطيون بفشلهم اطلقوا علينا العيارات  
النارية من مسدساتهم وبنادقهم فكنت تخال نفسك كأنك في ساحات  
الوغي من كثرة اطلاق النار ودوي الرصاص ، اما المتظاهرون فانهم  
استمروا على التقدم وكلهم حافظوا على التروي والنظام ، ولم  
يقابلوا هؤلاء الشرطيين بشيء من العنف والثورة . وقد بت آمن  
بتعقل الامة المتين كما ان ايماني باولئك الوطنيين الذين تستروا  
لباس رجال الامن وسعيهم الخفي لانتشار الفوضى والاخلال  
بالامن زاد ايضا .

وصلنا الى قرب نزل انكلترا حيث كان بانتظارنا ليف من  
الشباب على رأسهم عادل افندي شيخ الارض « احد محرري  
جريدة فتى العرب » فاستقبلونا بالتصفيق وتحية الاستقلال  
وانضموا الى جموعنا وساروا معنا حتى بلغنا العمود التذكاري  
المنصوب بساحة الشهداء . وهنا هجم علي شرطيان شاهرين  
السلاح فقال الواحد منهما للاخر اقتله فانه هو الذي اوصلهم الى  
هنا ، فاطلق علي طلقا سمعت حفيف رصاصته قرب اذني ثم  
صوب الثاني مسدسه الى رأسي قائلا أترجع أم أفرغه ؟ فأجبت  
بكل هدوء لو كنت رجلا لفعلت قبل ان هددت ثم هجمت عليه  
فدفعته وقذفته الى الهواء .

### خالد الخطيب يوبخ حمدي الجلاد :

وما زلنا سائرين حتى بلغنا دائرة الحكومة ، هناك علوت  
جادة الرصيف وتلوت الاحتجاج المذكور آنفا . وما وصلت الى  
نهايته حتى احاط بي عدد من الشرطيين فساقوني الى دائرة

الشرطة فرأيت مديرها حمدي بك الجلاد واقفاً بالبواب مصفراً الوجه يود لو يخفي اضطرابه ولكن هيهات ان يتم له ذلك . فنظرت له محترماً وقلت اتق الله في وطنك ايها الخائن . فلوى وجهه عني لا يحير جواباً . ثم ادخلوني الى غرفة هناك لها كوة تشرف على دار الحكومة وبعد هنيهة آتوا الى هذه الغرفة بنحو ثلاثين من الفتيان . وفي الساعة الرابعة مساءً جيء بي الى غرفة مفوض التحري حلمي عزيز حيث فتشنت البستي واخذت مني بعض الاوراق ومنها صورة الاحتجاج المذكور .

\* \* \*

### اضطراب الشرطة وغياب الجمهور :

هذا ما قاله الاخ الدكتور خالد اما نحن الاربعة فكنا غير عالين بالتدقيق بما كان يجري وبما تخبئه الايام لنا وان كنا شاعرين بالاضطراب العام المستحوذ على اهل الوطن ، وكنت لا ازال في مكتب المدير وهي الغرفة المجاورة لغرفته فأتى الى جانبي واقترب مني وقال وعلائم الاضطراب بادية على وجهه : انني انتظر بفارغ الصبر مجرى الحوادث ثم ذهب الى التلفون وطلب مخفر الحميدية بصوت مرتجف متقطع وقال : « اخبروني هل جد شيء ؟ » وبعد هنيهة عاد الي اشد اصفراراً وأكثر اضطراباً من الاول وهو يقول : ( اشتغلت اشتغلت والان التعنت ) ثم هرول على السلم وهو ينادي رجال الشرطة بأعلى صوته ويخاطبهم بكلام منعني من فهمه صرير الابواب المغلقة وصوت وقع الاقدام المتراكضة والجلبة العظيمة الحاصلة من الارتباك ومن اختلاط الحابل بالنابل . وبعد قليل رأيت الناس من الغرفة التي كنت فيها متراكضين ثم تبعتهم العربات والسيارات والكل يصيحون بأعلى اصواتهم ( ولك هربوا ) ودلت حركاتهم على انهم كالمخالط بعقله لا يدري اين يلجأ ، وكانت حركاتهم هذه تؤثر في الرائحين والفادين من ابناء السبيل فيعملون

عملهم ، واخيرا سمعت طلقات نارية متعددة ومتوالية وبعده  
الخيالة الشرطيين يتسابقون امامي .

قال لي الاخ منير افندي شيخ الارض ، وكان لا يزال بعد  
في الحجرة السفلى ، قد رأى بعينه كل شيء : ( بعد ما قص علي  
حلمي افندي عزيز اخبار الهياج الحاصل في البلدة فوجئت بصياح  
مدير الشرطة حمدي بك الجلاد قائلا الى السلاح يا شرطيون  
خذوا بنادقكم بأيديكم اقفلوا باب الدائرة اياكم تدعوهم يقتربون  
منها عليكم ان تقذفوا المفرقات وتطلقوا الرصاص على المتظاهرين .  
وكان صوته يدوي بالدائرة ( ذوي الصاعقة في ليلة عاصفة ) فلما  
سمع المفوض حلمي افندي صياحه اسرع الى الخزانة فأخذ منها  
مفرقة ( بومبا ) واتجه نحو باب الغرفة فتبعته ، واذ رأيت الجلاد  
بوجه شاحب لا يعي على شيء ، وبعد قليل سمعت دوي الرصاص  
في الفضاء وصوت الجمهور المتظاهر يحيي الاستقلال وهو مقترب  
من الدائرة فدرفت دموعي لما خأمرني من السرور ثم التفت الى  
النافذة فرأيت السيارات المصفحة والدبابات والجنود تسرع نحو  
دائرة الحكومة . وبعد حين سكنت الضجة وخيم السكون .

### توقيف ثلاثين متظاهرا :

دخل علي بعد ذلك أحد رجال التحري فسألته عما جرى فقال: ان  
الحكومة قبضت على نحو ثلاثين شابا ، ثم فتح لي باب الغرفة  
قليلا فرأيتهم ورأيت في مقدمتهم أخي السيد عادل وبعد هنيهة  
دخل علي حلمي افندي وكلفني أن أصعد الى الطابق العلوي واخبرني  
على الطريق اننا سنسلم الى الدرك الافرنسي .

### حديث مع الحكيم وحيدر :

اما انا فكنت لا ازال في مكتب الادارة وكان فيه ايضا رفيق  
افندي الجلاد وجورج شاوي من الموظفين الملكيين في الشرطة ،  
فلما احسا بالاضطرابات انسلا من عندي ، وانسحبا بانتظام فلم

يبق في الغرفة غيري ، فلما أغار الخيالة واشتد اطلاق النار وعلا الضجيج ودب الرعب في القلوب واخذت المركبات والسيارات والمارة في الهرب دخل علي شرطي مضطرب أوكل أمر حراستي اليه على ما ظهر لي وهو من الشام فقلت له وكنت واقفا على الشباك والمارة يتطلعون نحوي « اظنك تريد مني ان انتقل من موقعي ؟ » قال ارجو منك ان تشرف الى هذه الغرفة ، وأشار الى الغرفة الثانية ، فانتقلت اليها فوجدت فيها رفيقي حسن بك وسعيد بك وكان قد نقل اليها الاول قبلي ببرهة فتصافحنا وتحادثنا عن هذه النتائج الباهرة بالهمس خشية أن يسمعون الشرطيون العديدون الذين كانوا معنا في تلك الغرفة ، ثم انتقلنا الى ذكر ليلتنا الماضية فقص كل منا قصته مختصرة وما جرى معه .

واخيرا سألنا رجال الشرطة هل نحن بحاجة الى شيء ؟ فطلب حسن بك طعامه من غرفته وكان لحما مشويا ولبنا خائرا فتغدينا جميعا ، ثم طلب ان يفتح له الباب ليغسل يديه في الطابق الاسفل التي كان فيه قبل ان ينتقل الى غرفة سعيد بك فعارض بعض الشرطيين ، ولكنه لم يلتفت كثيرا الى اعتراضهم فنزل على السلم فوجد نحو ثلاثين شابا من المتظاهرين يدخلون الى الغرفة الاولى على اليسار ومن بينهم السيد ياسين الخانجي الذي قال : أتوا بنا الى هنا لاننا تظاهرنا بالحق والعدالة والاستقلال . فأجابه حسن بك : « ليحيا الشباب الناهض » .

### وضع الاغلال بايدينا :

عاد الينا حسن بك وبينما كان يقص علينا ما رأى من علائم الحياة وشيم النشاط أذ دخل علينا ضابط افرنسي برتبة رئيس في الساعة الثالثة فقال : تفضلوا فتحققنا ما كان ذكره لنا المدير من امر تسليمنا الى الدرك الافرسي ، فخرجنا فرأينا في الباب اربعة دركيين فرنسويين ينتظرونا وكان خلق كثير يترقب سير

الحوادث في الدائرة منهم مصطفى وصفي بك وحسن فهمي بك الزنبركجي وغيرهما ممن لا يحضرنى اسمائهم وكان قد التحق بنا منير افندي شيخ الارض اثناء ذلك ايضا . ولكن ما اشد دهشتنا لما امر الضابط فقال : مدوا ايديكم فمددناها فأخرج الدركيون من جيوبهم السلاسل والاغلال فطوقوا بها ايدينا وأقلوها عليها كما تقفل على ايدي القتلة وقطاع الطرق واللصوص ، ولم يخطر ببالنا قط أن نعامل في عقر دارنا بين أهلنا وبعد خدمة عشرين سنة للمصلحة العامة هذه المعاملة الطائشة التي لا تصدر عن أصغر صفار الموظفين الترك في عهد السلم . قد لا يختلف الفريقان بالكرهه لنا ولكن لهؤلاء من الاختبار والذوق بل ومن العقل السليم أيضا ما يزجرهم عن ركوب مثل هذا الشطط الفادح لانهم يعلمون ان الاقدام على احتقار الحياة الناهضة في الشعوب عمل يثير ويولد الضغائن التي لا يلثم صدعها . ولكن انى لآرلابوس واساتذته الذين تمرنوا بين الشعوب الافريقية على الهزء بالمشاركة والاستخفاف بأديانهم ومذاهبهم ان يثوبوا الى الرشيد فيتعلموا انهم في سورية ملتقى المدنيتين وعلى باب الامة العربية التي ما قط خضعت واستسلمت في حريتها وشرفها !؟

دعي المارشال ليوتي من مراكش اثناء الحرب الى باريس ليجلس على كرسي نظارة الحرية ، ولكن بعد ثلاثة ايام فقط من تهنئته والتبريك له اتاه المعزون لانه نحى عن العمل وأعيد من حيث اتى فقد قال مجلس النواب عنه انه رجل لا يليق بمدينة فرنسا الحرة بالنظر الى كثرة مكثه في افريقية في الماضي وقصوره على معاملة أهلها فماذا ينتظر مدير ليوتي وأذئاب اذنايه ؟ قد تكون الشعوب الافريقية في الماضي أطمعت المستعمرين في شرف الشرق ولكن أنا على مثل اليقين أن الحراسة العسكرية وضرب الارهاب والارهاق سيولد في أضعف الامم الافريقية نظرة تدعو الطائشين الى التفكير ومن يعيش يرى . عصارى اليوم سيعلن في دمشق امام

الاطباء والمحامين وكبار الموظفين ان أخوانهم يكبلون بالاغلال ويساقون الى أعماق السجون لهتافهم للحرية ، وفي المساء ستعلم سورية من أقصاها الى أقصاها ان الزهور التي أنبتتها الجامعات والكليات ودور الفنون تسحق تحت أقدام ( الميلتاريزم ) السيطرة العسكرية . وفي الليل ستضاء أنوار في دور لم يعد اليها اربابها وسيبيت الاطفال والعجائز والشيوخ وراء الباب ينتظرون بلهفة وخفقان القلب جزءا من الفرائس التي اختطفها الذئاب الكاسرة الى الاوكار المظلمة والكهوف الموحشة ، ولا شك أن العالم في بحر هذا الاسبوع سيأتيه خبر عما عملته الام الرؤوم والمربية الحنون مع من رفع عقيدته ونادى من اعماق القلب بصوت تفجر من ينبوع النمس الطافحة يطلب الحياة وينشد الحرية - عجا لهذا الغربي الذي نعى على الشرقي تعصبه وسقم آرائه في تقسيم البشر الى ملل ونحل وقام يصيح في الكتب ( وفي الكتب فقط ) من الحرية القناطير المقنطرة لا الاصواع ويضن على أخيه الشرقي منها بالذرات لا بالابواع ابربك قل لي هل يوجد تعليل آخر لذلك الكرم الحاتمي وهذا البخل الماردي الا التعصب الذي يرمى به الشرقي المسكين لالفاظ ينطق بها لا وزن لها ولا معنى أو لمراسيم وعادات تناقلها بالتقليد من غير تبصر وأعمال ردية ؟ في حين يتعصب عليه الغربي بجميع الوسائل العملية لآخامد أنفاسه بالاستصراخ للحضارة والاستنجاد بمؤلفي الكتب الخيالية وأهل النظريات الافلاطونية !

### الدرك الافرنسي ينقلنا الى بناية العابد :

قسما الدرك الافرنسي الى زوجين فكان نصيبي أن أكبل مع الاخ حسن بك وكبل سعيد بك مع منير بك شيخ الارض ، فنزلنا على السلم يتقدمنا الضابط الرئيس ويحيط بنا العرفاء الاربعة ، فما خرجنا من الباب الا وسمعنا صياحا دوت له الدائرة، فاذا هو صياح الشباب الموقوفين ينادون فليحيا الاستقلال ، فلتحيا الامة العربية ،



فدرفت الدموع من الآفاق ، واكتسب هذا المنظر جلالات تعجز دون وصفه الاقلام ، ويدل بصورة قاطعة على غفلة الذين دبروه وحمقهم وجهلهم بالبيئة التي يقيمون بها . فما مشينا بضع خطوات الا ورأيت أمامي في المركبة المستر ألن قنصل أميركا ومعه الترجمان الدكتور فؤاد الكحيل وأخذتهما الدهشة من هذا المنظر ، ولم يخطر ببالهما قط أن تقدم حكومة متمدنة على مثل هذا العمل الشائن الذي يراد به ارباب الامة بتحقيق رجالها واهانتها بمحط آمالها ، ولكن تحولات دهشتها حالا الى ابتسامات يقرؤ فيها المتأمل ما نتوقع من الاعمال ونرجو من الحوادث . ثم ما زلنا نسير حتى بلغنا ساحة الشهداء فاذا كل شيء فيها ساكن كأن على رأسه الطير حتى خيول المركبات جمدت في مكانها والناس وقوف بوجوه امتزجت فيها الدهشة والاشمئزاز والغضب وراء ذلك كله . حيرة تدل على جيشان في النفس لا يدري صاحبها متى ينفجر ، ثم سرنا في زقاق رامي الى أول شارع النصر فرأينا الناس مزدحمين في قهوة الشارع فأنبرى من بينهم حدث يافع وصاح بأعلى صوته ( لا تياسوا أيها الاخوان ) فاذا هو السيد صلاح الدين شيخ الارض أخو السيد منير وبجانبه والده فأجابه أخوه باللغة الفرنسية فلتحيا الحرية يا والذي فما كان من الرئيس الا وصاح في وجه السيد منير متوعدا وقال أنه يمنع الاكل ويضعه في الجميرة أربعة أيام .

واصلنا السير في شارع النصر بين صفوف المزدحمين على الجانبين وكلهم يجول الدم في عروقهم . ولاحظت مني التفاتة فرأيت السيد حسن الحلواني الوطني الملتهب المعروف واقفا عند باب حديقة سورية ، فلما وقعت عيناه علينا ارتعش وارتجفت شفتاه واصفر وجهه ودلت حركاته كأنه كان يريد أن يلقي نفسه بيننا فاما أن نخلصنا واما أن يساق معنا . وهنا رأيت الدكتور كوستي أيضا

اوتريسيانو قادمًا في سيارة وهو رجل اشتهر من تقربه من الفرنسيين  
وخدمتهم وتفانيه في محبتهم فأريته لعان السلاسل في يدي لعله  
يشعر وهو ينظر الى زميل من زملائه بشيء من احترام النفس  
ويقول هذه سبة تلحق بكل طبيب في سورية وعار يلتصق بكل حامل  
شهادة عالية لانه لما يسمع بتاريخ هذه البلاد على تغير دولها وتنوع  
حكامها أن عومل أحد من درجتنا لهتافه للحرية بمثل ما عوملنا به .



# الشهبندر في سرجن القلعة

ساعة الوصول وتسجيل الاسماء :

وصلنا الى القلعة فصعدنا سلما قرب بابها من الداخل الى اليسار فدخلنا حجرة لتسجيل اسمائنا فقدمنا الى المسجل واحدا واحدا ( فحل السلاسل من ايدينا ) واخذ يكتب الاسم واللقب والصنعة والعمر والهوية بعد تفتيش محافظنا وجيوبنا تفتيشا دقيقا للاوراق . وفي النهاية كان يقيس قامتنا بعلامات مدونة على الحائط . وجرى انهم لما كانوا يفتشون محفظة الاخ سعيد بك حيدر وجدوا فيها برقية بتوقيع ابراهيم بك هنانو الذي اقلق المستعمرين في بداية الاحتلال بعصباته ووقف حسكة في حلو قهم ، وهي جواب له على تهنتته بالبرئة والافراج عنه ، فتمسك بها الرئيس الافرنسي في بادىء الامر ، ولكن بعد ترجمتها نظر الى تاريخها فاغفل شأنها . ولما فتشوا محفظتي وجدوا فيها حوالة المستر كراين التي اشرت اليها سالفا فقام الرئيس لها وقعد وجعل يصوب فيها منظره ويقطب حاجبيه ويفتحهما كمن اهتدى الى اكتشاف سر من الاسرار فظن فيها الغناء والكفاية ، وقال همسا لعريف بجانبه ( تحويل له شأن عظيم ) فقلت في نفسي : نعم من اعظم الشؤون !!! . فهكذا ظن انه نال من سمعتنا بالتخديش . ولكننا عرفنا دعاويهم الباطلة من

ثياب التزويق مدى الدهر ونكتنا عظامها على قارعة الطريق فصار يراها الصادي والغادي بشهادة أشرف الناس من الغربيين والشرقيين في العالم القديم والحديث ، حتى صار التزوير صناعة لازمة لدولة الاستعمار . سألني الضابط الرئيس بكل اهتمام ما شأن هذه الحوالة ؟ فقلت له : حوالة أعطيت لي لتصرف في سبيل البعثة العلمية ، فهد برأسه مستهزئاً وقال : ستعطي عنها الايضاح اللازم في الديوان العرفي ، ثم أخرج من جيبه مذكرة رسمية كتب فيها التهمة الموجهة إلينا وهي : « أننا نحن الاربعة متهمون باحداث مؤامرة لتغيير شكل الحكومة يتبعها عمل ارتكب أو بوشر بارتكابه لاجل تنفيذ ذلك » .

### الدخول الى الحجره المخصصة لنا وحالتها :

وبعد الانتهاء من تسجيل هويتنا وتفتيش البستنا ساروا بنا الى باب عليه الاقفال الضخمة والسلاسل الثخينة فقام البواب ففتحها ، وقبل أن نصل إليها صاح رجل من ورأنا مستهزئاً : ( استقلال ؟ فليحيا الاستقلال . فلتحيا الحرية ) فقلت في نفسي ديباجة قبيحة ، ثم التفتنا فاذا شاب قصير مكتنز أسمر اللون تدل هيئته على أنه من مستخدمي المستعمرين ، ولكن خفف ما بنفسي لما علمت أنه ولد عقوق لوالد عرفته في الماضي وهو الضابط الاربدي علي خلقي صاحب الحركات والسكنات في شرقي الاردن .

دخلنا من البوابة الى صحن كبير تطل عليه نوافذ صغيرة وأبواب بالمتفرجين من المسجونين الذين صاحوا من أعماق قلوبهم فليحيا الاستقلال وصاروا يشيرون الى كل واحد باسمه ، فسار بنا الدركيون الافرنسيون الى مدخل كبير يؤدي الى حجرتين متقابلتين أبوابهما حديدية وعليهما السلاسل والاقفال ، فدخل أمامنا الى الحجره اليسرى منهما وكان بها بعض السجناء من جنود الجيش المختلط ، فأمرهم بالانتقال، ثم قال لنا : هذه الحجره لكم، فدخلناها

في نحو الساعة الثالثة زوالية ، فإذا هي حجرة متوسطة الاتساع ،  
أول ما يلفت النظر فيها الرائحة الكريهة المنبعثة منها ، وضوءها  
الضئيل من نوافذها الصغيرة ، ودف عريض يحيط بها مؤلف من  
أوصال حقيرة مكسرة فيها ثقوب وفرجات ، وقد نخرها السوس ،  
وهو قائم على أرجل ارتفاعها نحو منتصف قامة ، فدخلنا وقعدنا  
على هذا الرف وأخذنا نقلب الطرف في هذه الحجرة الغريبة ، وقد  
بهتنا ووجمنا وأخذت الدهشة منا كل مأخذ ، وصار كل واحد منا  
يخاطب نفسه ويسألها عما فعلت حتى أمسيت بحبس ( الدم ) وبين  
جدران اللحد ، أفي يقظة نحن أم في الإحلام ! وهل خطر في بالنا أن  
نبيت يوما من الايام مع الذين كنا نعدهم مظهرا من مظاهر الانحراف  
في الطبيعة الانسانية ونسعى جهدنا لدرء أخطارهم عن المجتمع بيث  
الدعوة لنشر التربية ومبادئ علم الصحة بين جميع الطبقات ؟  
بالامس كنا نقول : اذا أردنا تحسين النسل والخلاص من الدمامة  
خلقا وخلقاً فما علينا الا أن نجعل الزواج خاضعا للرقابة العلمية فما  
بالنا أويانا هذا المساء الى الحجرات التي بنيت في نظر الاجتماع  
للذميمين ؟

ولما خمدت سورة الفضب فينا وحل الهدوء محل الاشمئزاز  
الذي يصحب السكون النفساني عادة أصبح باستطاعتنا أن نرمق  
بيتنا الجديد وندقق النظر في هندسته وتزويقه وطلائه ونمتع  
النفس باثائه ورياشه ، فاذا فراش أرضه أتربة فيها النجود والاعوار  
وقد زاد في جراثيمها وهوائها أن عين الشمس ما وجدت اليها منفذا  
وعين السجان أمرت بمراقبة الداخل والخارج من الانسان فقط ،  
ولم تؤمر بالتعرف الى الحيوان ، وحيطانه تعلو على الارض نحو  
أربع قامات ، وتظهر لأول وهلة انها مطلية بطلاء رمادي أزرق ، ولكن  
هذا الطلاء هو في الواقع مزيج من أوساخ وافرازات ، غير أن كثرة  
الادهان منعت التمازج التام بينها ، فكانت ترى اللطع واللطخات  
ذوات الاشكال المتنوعة مما يشبه المذنبات الى ما يشبه الاشباح

كانها الغيوم السوداء المتلبدة فوق الافق ، والسقف مؤلّب من ثلاثة صفوف متوازية من أعمدة من الخشب غير لونها الدخان والغبار حتى صارت بذية اللون كأنها مدهونة بدهان خاص ، وصار همي الوحيد من شدة الفراغ فيما بعد أن أستلقي على ظهري فأعدها فكانت تبلغ التسعة والعشرين عمودا في الصف الواحد ، وكنت كلما عدتها قلت في ضميري ما أشد تكييف النفس . بالأمس ما كنت أرضى تعداد أشرف الناس والاقتصار على أحاديثهم فما بالي اكتفي اليوم بالنظر الى عمد السقوف المحددة؟! .

وكان لهذه الحجرة أربع كوى اثنتان منها علويتان في السقف واثنتان بشكل نوافذ على الحائط الجنوبي ، ولا تتجاوز فتحة الواحدة منها الذراع الرابع فكان نورها ضئيلا يعمي البصر والبصرة والهواء الذي يتخللها لا يكفي لحمل أنفاس السجناء ، فضلا عن حمل الايخرة المتصاعدة منها . ولو كانت فينا خفة الروح في هذا المكان القاتم كما هي في الفيل ، تعزينا بها عن ضيق نوافذنا، كما تعزى بها عن ضيق عينيه . ولكن على كل حال هندسة الفيل طبيعية أصطلح الناس أن يصمتوا أمامها ، وأما حجرتنا فلنا الحرية والحمد لله في نقدها . ويوجد بالزاوية الشرقية الشمالية من هذه الحجرة باب يؤدي الى حجرة دعوناها ( مقصورة التواليت ) لان فيها الحمام وتوابعه ومن محاسنها أن الداخل اليها لا يحتاج الى الاثاث والرياش ولرايا لان العين من شدة الظلام الحالك فيها لا تستطيع ان ترى شيئا عدا أشباح الابواب الداخلية التي يضطر المرء أن يتلمسها بيده تلمسا . وجرى أننا لما كنا عند المسجل رأينا ترجمانا حديثا اسمه خليل من بيت النحاس وهي أسرة مسيحية معروفة فأظهر لنا التودد والعطف ما لا ننساه وطلب الينا أن نكلفه بما لا بد لنا منه فكتب كل واحد منا الى أهله بطاقة طلب فيها طعاما وفراشا ولباس النوم ، فقام بالخدمة أحسن قيام ولم ينم أكثرنا تلك الليلة الا وعنده من حاجاته ما كفل له بعض

## وصول عدد من المجاهدين :

وعند الغروب سمعنا صلصلة الحديد وصرير السلاسل ووقع أقدام الجنود واذ أكثر الشباب الذين حيونا في دائرة الشرطة قد دخلوا علينا فقمنا لهم نحييم فردوا علينا بالهتاف للاستقلال والاهازيج القومية الوطنية ، وهاك أسمائهم وهي الوجبة الاولى : الدكتور خالد الخطيب والسادة نوري الزين تاجر وموظف سابق وخالد جمعة تاجر وعبد الهادي دياب تاجر وعادل حتاحت طالب صيدلة ومحمد شخاشيرو تاجر وثروت الجعفري ضابط سابق وعارف الادلبي قائد أركان حرب . ثم الوجبة الثانية بعد نصف ساعة وهي من السادة : رشدي ملحس صحافي ورشدي الحكيم صحافي سابقاً وموظف في العدلية وطلعت السراج والدكتور شريف الرفاعي وتوفيق القضماني وحسن الزنبركجي ضابط قائم مقام وصبحي الزنبركجي تاجر وصبري البدوي وعادل شيخ الارض صحافي وفارس شيخو معلم نموذج في ( البحصنة ) وياسين الخانجي تاجر وحسن الحلواني تاجر وسعاد حلبي طالب صيدلة ومحمود نديم الحلبي طالب وخليل خطاب تاجر وسليمان القصار تاجر وتوفيق العيني تاجر وعمر الخربوطلي ومحمد طاهر العمري ومهيب العطار تاجر ومحمد عبد الوهاب ومكي العفيفي وحسن الطرايشي تاجر وعبد المحسن زين الدين ( شيخ انخل ) المجموع ٣١ ، ونحن الاربعة فيكون المجموع ٣٥ .

## الحماس والالفة والاخاء :

ولم نحصل في ذلك المساء على جميع الحاجات التي طلبناها من بيوتنا ولكن على كل حال اتانا من الاكل ما اشبعنا ومن الفرش والالحف ما وسعنا عن ضيق شديد لم نشعر به كثيرا . وقد قضينا ليلة من ليالي الحظ والانشراح لا تنسى . فكانت أصوات أهازيجنا

وأناشيدنا وخطبنا ترن في أنحاء القلعة مما اضطر المحافظ الفرنسي أن يحذرنا من عملنا .

أما النوم فكان على بعضنا حراما بالنظر الى تغير المحيط والتحمس والافكار السريعة التي كانت تدور في مخيلتنا دوران السينما ، خصوصا وقد خرجت علينا من الجدران وثقوب الدف جيوش من البق أستمرأت مرعانا وطابت لها دماؤنا فكأنها عرفت ان هذه البشرة الناعمة تختلف عما تعودت عليه من البشر القاسية الخشنة فكنت تراها تنهش من لحمنا نهشا لو رآه الكولونيل كاترو ( وكيل المفوض السامي ) لطار فرحا . وغني عن البيان أن الذين لم يحفلوا ببنادق الفرنسيين لا يابهون كثيرا لمراشف البق ولسع البراغيث .

قمنا في الصباح على تحية الاستقلال ، وبعد هنيهة دخل علينا خدمة السجن يحملون لنا جراتنا من الخبز الاسمر ومغلى القهوة الموضوع في سطل من سطل الجنود القذرة فلم نمسسه ولم نذق طعمه بل اكتفينا بما زاد عنا من كسر الخبز وذخيرة الامس ، ثم أخذنا في التسلي والقاء الخطب وانشاد الاناشيد الوطنية ، مما اضطر العريف الى المداخلة في الامر وتحذيرنا كما حذرنا السجناء قبله ، ولكننا قلنا له أن تلك الاناشيد فرض ديني متحتم لا بد لنا من القيام بواجبه ، فقال هذا دين جديد وعبادة مستحدثة ، اني اعرف صلاتكم بالركوع والسجود، فلم تصلون في السجن وأنتم واقفون على شكل نصف دائرة ؟ فانتحلنا له الاعذار وبيننا له ان الضرورات تبيح المحظورات ، فلم يصدق كثيرا بل ندب جاسوسا من بين السجناء واسمه عبد الله العكة سجين لجنايات شخصية بالآداب وكان من قبل موظفا ترجمانا في البعثة فأتى من الموبقات ما أرغم البعثة نفسها على حبسة فوكلة بتتبع حركاتنا ووعي خطبنا .

عدنا الى اناشيدنا كالعادة ولكن مع التحفظ وزيادة الحذر ،



فكان الاخ السيد ( بلاواكمك ) لعنة الله على الجلاد مرتين ، وأخذ الدكتور خالد الخطيب على عاتقه الادعية بصوته المطرب والحنانه العذبة ومما زاد في اتقان الصنعة استعانته بابن عمته السيد محمد شخاشيرو فكان يقف في منتصف الحلقة بطوله البارز ويقف الاخوان حواليه كالهالة حول القمر وكلهم رافعو ايديهم الى السماء للتبرك وهم يتلون الاناشيد الوطنية ولا سيما النشيد الذي نظمه في السجن اخواني على لحن نحن لا نرضى الوصاية لا ولا نرضى الحماية . نحن اولى بالرعاية لبني العرب الكرام :

اسجنونا كبلونا لا نبالي بالقيود

عزما عزم شديد للمعالي كالحديد  
كم اهانونا بقول وفعال لا تطاق

فتحملنا الرزايا تشهد السبع الطباق  
وحشة السجن لدينا نزهة تحيي النفوس

وعلى الاعداء أضحى يومنا يوم عبوس  
نحن للموت خلقنا فلنمت موت الكرام

وليعش أبناء قحطان بعز وسلام

وكان الحماس جامعا بين الجلالة الدينية والحماسة الوطنية والافصاح عما يخالج الضمائر فكانت الشاهد العدل على الانفعالات التي تجيش في النفوس . وقد رأنا العريف الفرنسي ونحن على تلك الحال من الهيئة الرهيبة والجد ، فلم يبد حراكا ولم ينبث بينت شفة . ولا ابالغ اذا قلت أننا في الايام التالية بلغنا من التأثير في نفسه وتنويمه بالشعور الذي كان يتدفق من ملامحنا وحركاتنا أنه غير معاملته معنا وشدته نحونا رغم ارادته : وهكذا نفذت الدعوة الصادقة حتى الى قلوب الاعداء وأصم الصخور . وأخذ الاستاذ العفيفي على عاتقه قراءة القرآن الكريم فكان يحيي النفوس بتجويده المتقن وصوته المطرب ، ولم تتجل العوامل الروحانية في مجلس واحد مثل مجلسنا فكأنما به بركان تتفجر فيه الحمم التي صهرتها الحماسة الوطنية

والعاطفة المعنوية الخلقية والاندفاع الموسيقي والانفعال الشعري والتذكرات المؤلمة ، ووراء ذلك قلوب استحوذت عليها كبرياء الاخلاص المتقطب لا يقوى على دفع قوته الجامد فضلا عن المتحرك .

لا شك أننا ننوم بعضنا بعضا في حجرة السجن ولو عرض لنا الموت على تلك الحالة لقابلناه بالبشاشة فرحين . انني لا أقول هذا من قبيل الشجاعة والفخر ، بل من باب تأييد الاخلاص في الاخلاص وسبك الروح للروح واستسلام الشيبة للشيبة بحيث كانت النفس الاكثر تأثرا كالرائد الخريت يتبعها اخوانها حيثما اتجهت بالفريزة ومن غير ان تفكر .

### أخبار الاستاذ العفيفي :

ولا بد ان الذين تتبعوا أحاديثنا يذكرون أن الاستاذ العفيفي كان أحدهم من اشعل النار بخطابه على سيارة المستر كراين عند باب النزل واليك ما جرى معه مختصرا عن مذكراته قال :

« هبطت الشام في اوائل شهر شباط سنة ١٩٢٢ برفقة احد الاعيان الدمشقيين الذين جمعني واياهم الصداقة في القاهرة ، ورأيت من ملازمته لي ان اخلص له الولاء في وقت ازل وايام عصيبة لا لتفقد ميسور وضياح موفور بل لوطن رهين الاحتضار وعزيم الاقتدار . حكامه مارقون واعدائه فائقون والنذابي يرى الذل عارا والضميم شنارا فيروقه شوك القتاد في بحوحة الحرية، ويورقه ريش النعام في قصور العبودية ، هذه سننه وهذه فطرتة . واني لذلك والخطب شديد والخصم عنيد والحكومة دأبها الانتقام وعينها عن امثالي لا تنام وقدما ناوأني وفي اعماق السجون القتني لا لجرم جنيت أو ذنب سوى أنني من الزغليين والوطنيين المتحركين ناهيك ما اقترفته من مطارديتي في كل آونة عندما حرمتني من وظيفتي العلمية الشريفة . واني كذلك اذ عرضت علي اسباب السفر ، فبرحت من القاهرة لا فرارا من الظلم بل جهادا في سبيل الرابطة

الشرقية وسعيا للتفاهم بين ابنائهم، ولا سيما بين ابناء القطرين الشقيقين المصري والسوري . فنزلت الشام بصحبة السيد المذكور فكانت علاقتي الادبية به بصفتي أستاذه في البلاغة وآداب اللفظة العربية واسطة عقد التعارف بكثير من خاصة الشام واعيانها . وبينما كنت اتحين الفرص السانحة لولوج باب لا مندوحة عنه وانتهاج شرعة لا بد منها تمهيدا لما جئت من اجله اذ فاجاني رقيم المعارف المصرية وهذا مدلوله :

« يعود المدرس الموقوف لاسباب سياسية الى مقر وظيفته اذا اعتذر عن الاضراب والتدخل في الامور السياسية التي لا تتفق مع مهنته طبقا لقانون الحكومة ولوائح وزارة المعارف العمومية » . ولامر ذي بال آثرت مفادرة الشام وفي نفسي اشياء من انسان والله المستعان .

### اليوم الاول :

وفي مساء الاربعاء الواقع في ٥ ابريل - نيسان سنة ١٩٢٢ جاءني السيد منير شيخ الارض بصحبة ابن عمه فؤاد أفندي شيخ الارض وطلب الي مرافقتهما الى نازل داماسكس بالاس لزيارة المستر كراين رئيس لجنة الاستفتاء الاميركية في البلاد السورية سنة ١٩١٩ وسفير اميركا في الصين الذي زار الشام في هذه المرة للتحقيق عن نتائج مباحثاته السياسية الماضية التي بنى عليها تقريره المشهور المودع في نظارة الخارجية الاميركية في وقت ترزح فيه الامة السورية الكريمة تحت نير العسف والخسف والاستبداد والاستعباد غير اني وعدت الاخوين المذكورين بالذهاب الى المستر كراين صباح الخميس الواقع في ٦ نيسان نظرا لضيق الوقت والمقام فانصرفنا بسلام .

### اليوم الثاني :

وما اسفر صبح اليوم الموعود حتى وجدنتني مسوقا بكليتي

الى دار القنصلية الانكليزية للتعليم على جواز السفر وعوامل النشاط والسروز تطير بي طيران القطار . أزمعت الخروج من الدار تاهبا للسفر بعد انتظار السيد منير افندي شيخ الارض انجازا لموعدنا المضروب ولما يحضر . وما وصلت سوق الخيل القديم حتى لفت نظري جموع من الناس تروح وتغدو زرافات ووحدانا فأقتفيت أثرهم وتبعنا خطاهم حتى باب الفندق فقلت في نفسي كأنه هو بلا ريب اوتيل المستر كراين ، ثم تقدمت الجمهور فعرفني بعضهم لمجرد التلميح ان القوم ما اجتمعوا بشق الانفس ماثونة بالجواسيس والارصاد الا لتكريم المستر كراين وتوديعه في ذلك الصباح قبل سفره مع بسط امنيتهم بين يديه لارتباطه بقضيتهم العادلة وصادقته للمستر ولسن ذي المبادئ المعروفة ، فرأيت من الواجب ان اشترك في هذا الفرض العيني على كل عربي وشرقي . دخلت النزل مع الشهم الجسور انور بك البكري والوافدين معه . والجمع محتشد في البهو فألقى المستر كراين كلمته الخطابية وترجمها للمستمعين الاستاذ شهنذر الذي بعث في النفوس محبته واملا في المستقبل الزاهر . راقنتي هذه الكتلة الملتئمة حول من يناصرها وهزنتي تلك الجرأة الملتحمة بمن يعبر عن ضمائرها في حين ان الافواه ضامرة والقلوب واجفة امام ادارة مستبدة واوامر صارمة فاشتعلت لواعج اشجاني وازدحمت خواطر وجداني ، ولست ادري كيف عصيت عزيز الصبر وكيف اندمجت في ذلك الجمع ولا عهد لي بقوانين البلاد السورية . او كيف تناسيت نصح صديقي الذي حذرني مرارا من خوض هذا الغمار القمقام . بلى ان للمنشأ سلطانا وان للنزعة قهرمانا .

انتهى المستر كراين من الخطابة فنزل الفندق يتهدى كالفلك بين عباب المحيط ، وتيار الناس قوي ومهيب . وما رسخت قدماه بالسيارة حتى امسك بها الناس فانسللت من بينهم وعلوت السيارة فرفعتني الايدي امام الاشهاد فالقيت على الجمهور

ما مكنتني الفرصة من ابيات يخطر لي منها بيتان :

بين مصر ونيلها والشام عهد صدق ووحدة ووثام  
وابن الشام لابن مصر نصير وابن مصر نصير اهل الشام

ثم اشرت الى وجوب الجهاد في سبيل استقلال البلاد بالطرق المصرية . فعلا الهتاف لمصر والمصريين ولمعالي سعد باشا زغلول بطل نهضتنا ودليل قضيتنا ، فهتفت للحرية من أعماق نفس مفعمة بحب سورية والعروبيين وجاهرت بسقوط الانتداب والمستعمرين . وما زلنا بين الهاتفين والترنمين بالاناشيد الوطنية والسيارة تشق مسالك الطرق والناس سكارى بخمرة الوطنية الصميمة ، الى ان دب دبيبها في موضع مدركاتهم الحسية والمعنوية ، فما شعروا الا بانبعث السيدات والانات الزافرات من أفئدة فتقتها مدلهمات الشجون وجوارح انطقتها مختلفات الشؤون غير مكرئين بما ينجم عن ذلك الانفجار الذي يعجز المقتصبون عن سده في شعب ناهض ثائر . سرنا والسيارة سير الهوينا ، وما هاجني وراقني غير منظر سيدتين مسلمتين تطايرتا من بين الجموع واعتلتا السيارة بالقرب من وضعي فيها واشتركتا مع الناس في القاء العبارات الحماسية والترنيمات الشجية ، ولم يعقهما عن المطالبة بحرية البلاد بما بعثاه في النفوس من الشجاعة والاقدام وما أوقداه في القلوب من الفيرة بجذوات الاضطرام سدل الخمار الذي طوته كطي السجل للكتب السيدة التي لها سبق في هذا المضمار الشريف حرم الاستاذ شهنندر ، ولعمري أن مثل هذه السيدة الادبية في ميدان كهذا سهم أخيب » .

هذه خلاصة ما جرى للاستاذ العفيفي منذ مساء الخميس ومساء الجمعة حين مجيئه للقلعة ، وكانت هيئته لما دخل تدل على الاهوال التي قاساها على ايدي المتمدنين في القرن العشرين وان السرور الذي بدى على وجهه وقت اللقاء بنا لبرهان على الاطمئنان الذي شعر به بيننا بعد عزله في تلك الليلة الموحشة .

## مجموعة ثانية من المجاهدين تدخل السجن :

وفي الليل الثاني ازدادت صفوفنا بمجيء السادة الدكتور محمود بك حمودة استاذ امراض الحنجرة والاذن في المدرسة الطبية في دمشق ومن رجال الثورة المعروفين والسيد سعيد عبيد التاجر الحر والوطني الصادق والسيد حسن الطرايشي الشاب التاجر الذي أبدى من الوطنية الصادقة قبل السجن وفي غضونه ومن بعده ما يسجل له بمداد الفخر والاستاذ رشيد بك بقدونس مدير المدرسة التجهيزية ومن رجالنا المفكرين وشاب ديري اسمه بديع خضر كان معاون الحاكم السياسي في الرمادي في العراق وهو رجل مجهول الهوية وله مسائل سنتعرض لذكرها فيما بعد . ويكفي ان نقول هنا ان الدركي الفرنسي الذي ادخله علينا لما حل وثاقه امامنا تظاهر بانه يريد ضربه بجمع يديه ضربا مبرحا مما لفت انظار الجميع خصوصا بعدما قعد بجانبنا مطرقا في الارض محمر الوجنتين لا يبدي حراكا . ويوم الاحد في ٩ نيسان و ١٢ شعبان سنة ١٣٤٠ أضيف الينا السيد توفيق الحلبي صاحب جريدة الراوي ورفيقي الى العراق سنة ١٩١٥ وعبد الرحمن الطباع ومحمود المصري ، وهما رجلان مجهولان الهوية عندنا . وكان الطباع رابطا ذراعه ويظهر لما شديدا منه ويدعي أن الشرطة أنهكتة بالضرب لانه كان يستفز الناس الى اغلاق حوانيتهم . وقد حاولت أن أفحصه وأفك رباطه لعلني أكشف شيئا من أمره وان كان صادقا أخفف عنه من ألمه ولكنه امتنع امتناعا باتا ، وقد علمت ان الدكتور محمود بك حمودة تمكن من فحصه في الليل ، فرأى ان كوعه مصاب بتدرن بالعظم وأن الضرب الذي يدعيه مشكوك فيه . وحسبنا من حديث هذا الشاب الذي سأحقيق عنه فيما بعد انه لما خرج من السجن مع من خرج طلب مني ان أعطيه شيئا من الاوراق التي أريد توزيعها في الخارج ليقوم بهذه الخدمة عن طيب خاطر فامتنعت وقلت له : ليس عندنا أوراق

للتوزيع ، لانه خامرني الشك في أمره ، وأرجو أن أتبين حقيقته ممن يعرفه معرفة تزيل الشبهة من نفوسنا .

## التحقيق مع توفيق الحلبي والحاقه بنا :

كنت قد ذكرت ما قام به الاخ الحلبي في الجامع الاموي من تحريض المجتمعين على الاحتجاج واليك تمة حديثه ، قال :

«مشيت مع المتظاهرين الى اول شارع النصر حيث ركبت الترامواي الى بيتي في الصالحية في شارع الشيخ محي الدين ، وفي المساء جاءني بعض الاصحاب فأخبروني أن الحكومة قبضت على كثير من المتظاهرين وعلى الذين وجدوا في قهوة القوتلي فسرني هذا الخبر ووطدت النفس على السجن لانال قسطا من الفخر في سبيل خدمة الامة .

وفي اليوم الثاني ما رغبت أن أخرج من داري الا بعد القيام بما أستطيع عمله لاني أصبحت على يقين من سجنني ، فبعثت والدتي الى عقيلة الدكتور شهبندر لاتذكري معها وبعند نصف ساعة جاءت وعلمت منها أنها سافرت نهار الجمعة الى بيروت فلم تجد المستر كراين بل قابلت المستر نيكولي رئيس الجامعة الاميركية فأخبرها ان المستر كراين سافر الى بكركي لمقابلة بطريك الموارنة . وقد عادت من غير أن يشعر بسفرها أحد ودعوتها الى التشجيع فيما اذا لم يخرج الاستاذ الدكتور من السجن ، وأنا على يقين أنه لا يخرج فرأيت نفسي بحاجة الى استمداد الشجاعة منها ، فشكرت لها حماسها ووطنيتها واندفاعها ورغبت اليها المؤازرة مع الانسة نازك العابد للقيام بمظاهرة نسائية وحث التجار على اقفال حوانيتهم والاستمرار على اظهار الحركة الوطنية بمظهرها اللائق فأظهرت استعدادا تاما . وبعد ظهر ذلك اليوم جاءتني الانسة نازك العابد ويدها احتجاج من قبل نساء الحاضرة سعت هي وعقيلة الدكتور بتوقيعه . أما المظاهرة واقفال الحوانيت فلم تذهب للعمل لاجلها

هذا اليوم ، لان السيد عثمان الشرباتي افهمها أن الموقوفين سيفرج عنهم في الساعة الثالثة بعد ظهر هذا اليوم فقلت لها أن خروجهم الآن ضرب من المحال ، وغاية رجائي المثابرة على عملكن ، ومع ذلك فاني سأتى الى دار الدكتور في الساعة الثالثة لارى وعد الحكومة للشرباتي . وفي الوقت المعين ذهبت وانتظرت الى الساعة الرابعة ، فلم يأت السيد عثمان ولا غيره ، فتأكدنا كذب الحكومة كما هي عاداتها ، وقد قر قراري مع الانسة نازك والسيدة شهبندر على السعي للمظاهرة ، واقبال الحوانيت ، فودعتهما وخرجت من الدار ، فقابلني رئيس تحري البعثة واسمه أبو رباح فقال لي : أن مدير الشرطة يود مقابلتك ، فقلت له : وانا هيأت نفسي لمقابلته أيضا ، فسار بي الى مخفر الشهداء حيث تسلمني ممدوح بك العابد مفوض مخفر الشهداء ، ومن هناك جيء بي الى دائرة الشرطة حيث انتظرت المدير خالي حمدي بك الجلاد .

وحين تواجدنا وتقابلت العيون قال لي على صورة الاستفهام :

لماذا لم تخبرني وماذا فعلت ولم خرجت من دارك ؟ . فقلت له : ارسلت بطاقة لتقابلني في داري وقت الظهر فكنت مشغولا ، فقال : انفذت اليك رسولا يخبرك أن تأتي الي ليلا .

السيد توفيق : - نعم جاءني الرسول ولكن القصد من اجتماعي بك لاجل مصلحتك لا لاجل مصلحتي ، واني خرجت من الدار وانا على يقين من أن الشرطة ستقبض علي وتسوقني اليك ، وحين تكلمت في الجامع الاموي لم يطمعني ان خالي مدير الشرطة وهو ينجيني ويشفع بي لدى السلطة الافرنسية ، وأني قادم الى دائرة الشرطة بكل سرور وارتياح .

المدير : - لم افهم كلامك وأني لاعجب كل العجب من عملكم هذا فاذا كنتم على نية من امركم فأعلموني لاكون معكم ، ومن الغريب ان الشرطيين وجدوا في جيب الدكتور شكاً بعشرة الاف دينار محولا



لاسمه من المستر كراين ( وإشارة إلى حوالة المستر كراين لاجل تعليم السيدتين الدمشقيتين ) .

السيد توفيق : - لا علم لي بالشك انما القصد من اجتماعي بك اسداء النصح اليك ، فانت خالي ولا ارضى لك الردى ، وغاية ما استطيع ان ا قوله لك ان تخدم المصلحة الوطنية .

المدير : - وضح لي أكثر من ذلك ، فاني اقسم لك بأي قسم تريده اني لا اتكلم وانما اريد ان اعلم واكون على بصيرة من المستقبل .

السيد توفيق : - لا استطيع أن أبوح لك بأكثر مما قلت (وربما لم اكن عارفا اكثر مما يعرف ) لانني اقول لك بصراحة تامة اني لا اثق بعهدك ووعدك ، وانت من الذين لا يؤمنون بشيء حتى ينظروا بأعينهم ويلمسوا بأيديهم ، واكرر نصيحتي اليك بخدمة وطنك . فوعدني بخدمة الوطنيين وانا لست واثقا من كلامه لانه من عباد القوة والوظيفة ، وبقيت في دائرة الشرطة الى اليوم الثاني ، وفي الساعة التاسعة صباحا اخبرني المدير ان وفدا مؤلفا من العلماء والوجهاء سيذهب في الساعة العاشرة الى الكولونيل كاترو ليتكلم معه بشأن الموقوفين الذين بلغ عددهم زهاء الخمسين . ثم قابلته بعد الظهر ففهمت منه ان الاجتماع انتج اطلاق سراح المسجونين الا سبعة وانا منهم لا بد من محاكمتهم ، فطلبت منه ان يلحقني برفاقي بسجن القلعة ، فقال : ان حالة سجن القلعة سيئة جدا ولعلي اقدر ان ابقىك في دائرة الشرطة ، فلم اقبل كلامه فتركني وانصرف . وبعد ثلاث ساعات جاء مفوضه الخاص وذهب بي الى سجن القلعة حيث القيت عصا الترحال وبت ناعم البال » .

### طعام السجن :

أما طعامنا في السجن فكان اول الامر يطبخ في بيوتنا ، وقد علمنا فيما بعد ان السلطة حاولت منعه وحتمت على السجنان الا يسمح بدخول شيء من ذلك الينا ، والواقع ان الرئيس اخبرنا

صراحة ان الاوامر صدرت بوجوب اكلنا من طعام السجن : علب لحم دواب وخبز يابس ومعجن في آن واحد ونقوع القهوة كما تقدم ، فاتخذنا قرارا بالاضراب عن الاكل والصوم على الطريقة الايرلاندية الا اذا رجعت السلطة عن هذا القرار الفادح ، فتناقلت الاسن هذا الخبر في سائر انحاء المدينة فحدثت ضجة على ما تبين لنا عظيمة وارتباك شديد ، فتدخل بعض كبار الموظفين في الامر ليحسنوا من السمعة القبيحة التي اكتسبوها ، فلم يفلحوا ، الا ان السلطة ادركت فيما بعد الخطر من هذه السياسة الطائشة فرجعت عن قرارها رغم انفها وسمحت بدخول الطعام على جري العادة .

كان اخواننا يضعون على الدف من الطرف الشرقي ، انواع الطعام الذي كان يأتي من بيوتنا مما لذ وطاب على طريقة السماط القديم ، ونزدحم عليه منا قيام حوله وقعود فتأكل اكلا شهيا بقابلية فتحت مسامها الروح الوطنية المنعشة التي كانت تدب في أعماق الجسم فتنبعث على النشاط والحركة والحياة ، وكننا نقاسم طعامنا اناسا واقفين وراء الابواب الحديدية وقد مرت عليهم الشهور وهم شركاء الذئاب في اكل لحوم الدواب . ولما افرج عن افرج عنهم وبقينا لوحدنا فضلنا ان يكون طعامنا من المطعم الوطني للسيد حسن الحلواني دفعا للمشقة وبعد الطريق ، فكان ذلك باعثا لابناء الوطن على المسابقة للتقدم في تأدية الحساب والقيام بأسباب الراحة .

### النشاط السياسي داخل القلعة :

اما الاعمال السياسية التي اتينا بها في سجننا فلا يجوز اغفالها لانها اتمت الدور الذي بدأته مظاهرة المستر كراين ، من ذلك ان البعثة نشرت في الجرائد يوم السبت في ٨ نيسان بياننا مضللا للحوادث التي جرت والاسباب التي دعتنا للقبض علينا ، وفيه من الهفوات السياسية والمنطقية ما حملنا على كتابة رد عليه

مستوف للقضايا التي يجب علينا إبرازها . وعند الانتهاء منه سلمناه لسعيد أفندي عبيد وخرجنا عليه ان يطبعه في بيروت ويوزعه بالسرعة الممكنة لاننا عرفنا انه سيطلق سراحه مع كثير من الاخوان في ذلك اليوم او بعده ، ويسوعنا جدا اننا لم نحفظ نسخة من هذا الرد ولا ندري حتى الساعة ما فعل الله به ، ولكن ردا اخر ظهر في المدينة دلنا على انه لم ينشر .

ومن الاعمال التي اتينا بها ارسال النشرات الى الخارج وفيها تحريض الناس على تجنب الاعمال الطائفة التي تضر بسمعتنا باعتبارنا شعبا مهذبا ينشد الحرية ويطلب الاستقلال ، وقد مسكت نشرة من هذه النشرات في بيت الاخوان ظيان ، فاطلعت عليها البقية وزأت فيها ان يكون شبابنا الناهضين على اتصال تام مع الصحف في الداخل وفي الخارج ، ولا سيما مع صحف مصر . والظاهر ان وصيتنا للشعب بان تكون اعماله منطبقة على روح العصر لم ترق في عين المستعمرين لانها تقوي مركزنا وتظهرنا بالمظهر الذي يحاولون ستره بكل ما لديهم من قوة لذلك اخفوها في المحاكم ولم يرد ذكرها ابدا .

ولما رأيت ان الافراج عن الاخوان اصبح قريبا خصوصا بعدما زارنا في السجن يوم السبت الكولونيل مفتش السجون ، فذكر لنا ان الذين لم يثبت عليهم شيء سيخرجون في بحر هذا الاسبوع ، والذين لا بد من محاكمتهم وهم القليلون يتأخرون الى ان ينظر الديوان العرفي في امرهم ، خطر لي ان اقوي معنوياتهم واشجعهم على الكلام في المجتمعات العامة ، فاقترحت ان يقف كل واحد منا ويلقي كلمات ارتجالية في أي موضوع يختاره او يقترح عليه غيره مدة خمس دقائق ، فقام اكثرهم بهذا العمل احسن قيام ، واذكر انهم اقترحوا علي ان اقول كلمة في السجن فقلت مشجعا : ان الاغلال في الايدي في سبيل الشرف القومي اساور من الذهب الابريز توضع في زنود على الطريقة الحديثة لا للزينة والتجمل بل للتذكار

والفخر ، وان الجلوس على دفوف السجن البالية المنخورة فوق ارض نشاشة في خدمة الامة واعلاء شأنها هو الجلوس على عروش الملوك في القصور الفخمة ، انني لا اريد بعروش الملوك تلك العروش الفارغة التي بنيت على جماجم المستضعفين ووضعت قوائمها من عظام المساكين بل تلك العروش التي تحلها القلوب في الصدور وترفرف عليها ارواح الشهداء في القبور . ولكن اين هذا الكلام من البلاغة الساحرة والبساطة الخالية التي ترفرف من فم شاب يقم بخدمة اخوانه الاربعة واسمه محمود نديم الحلبي ؟ ان روحه كالماء الزلال من الينابيع العذبة ، فقد وقف بيننا بألبسته البسيطة النظيفة وقال بصوت واضح : انني اشعر وانا بخدمتكم انني سعيد وما أسعد الرجل الذي اذا خدم اخاه يكون قد وضع حجرا كبيرا في بناء هذا الصرح الشامخ . ولما جاء دور الاستاذ العفيفي وقف على جري العادة فحيا الاستقلال وسقط الانتداب وبث في الناس روح الشجاعة وازال عن العيون ستار الوهم .

وفي نهاية هذه الخطب كتبت على ورقة يمينا حلف به الحاضرون خمسة خمسة ، وكانت غايتي منه توثيق عرى الرابطة بيننا وخلاصة القسم بالله والشرف ان يخدم الواحد منا وطنه حتى الرمق الاخير وان يكون خاضعا للخطط الاستقلالية التي يضعها الزعماء من ابناء هذه الامة ، وانه اذا خالفها يكون مستحقا لعنة الله والناس اجمعين .

ومما هو حري بالذكر انني بعد الانتهاء من تحليف الاخوان نبهني احدهم السيد محمود نديم المذكور ، فرأيتة يبكي بالدموع الغزيرة ، ولما سألته عن سبب بكائه تنهد وقال : الا اعد من الوطنيين ؟ فقلت له كيف لا ؟ فقال : ولم لم تحلفني ايضا كسائر اخواني ؟ فاعتذرت له عن هذا النسيان القادح بتحلفي له على افراد وليطيب خاطره .

## التكتم بالاتصالات والشكوك بالجواسيس :

ثم صاروا يسألونني عن الرجل الذي يجب ان يعتمدوا عليه ويراجعوه ويستشيروه في امورهم فأشرت على بعضهم بمراجعة فلان ، وعلى بعضهم الاخر وهم الذين يوثق بهم بمراجعة فلان ، واما الدين رابني امرهم فتكتمت امامهم اشد التكتمان . وقد اشرت فيما سلف الى عبد الرحمن الطباع وما داخطني منه ، وكان حريصا كل الحرص على ان يأخذ من يدي منشورا وكلمة اخطها له ، ولكنني امتنعت كما ذكرت ذلك . وافضى بعض الاخوان الينا بكثير من اسرارهم وتعهد احدهم ان يفارق منطقة الانتداب الافرنسي سريعا لبث الدعوة الوطنية والقيام بالواجب القومي ، وكنا حريصين ان نلتقط من فم الشاب الديري العراقي ما نستطيع من اخبار البلاد التي كان فيها ، وكنا احرص على معرفة كنهه فذكر لنا انه قدم من الرمادي الى حلب لامور خاصة ادعى لنا انها سياسية ، وانه وضع في حلب تحت نطاق من المراقبة الجأته الى المجرى السى دمشق ، حيث زار محمد باشا العصمي العراقي النفسي حليف الافرنسيين ومندوب ابن سعود في سورية ، وبعد هذه الزيارة سيق الى السجن مكبلا بالحديد كما رأيناه بأعيننا بوشاية على زعمه وشى بها احد الجواسيس ، والكتاب بخطه ضبطه الافرنسيون ، ومما زاد هذه الدعوى تزويقا انه في اليوم الثاني من سجنه اتى احد الضباط المستعمرين فاستكتبه عشرة اسطر على عجل من كتاب عربي كان بجيبه . قال صاحبنا : ان المراد من ذلك مقابلة خطي مع الكتاب الذي ضبطوه ولكنهم لم يفوزوا بالغاية التي يتوخونها لانني غيرت خطي حين كتبت الاسطر كما غيرته يوم كتبت الرسالة .

ومما قاله لنا ان قبائل عنزة بامرة ابن هذال هاجمت دير الزور واحتلته منذ امد قريب ، وسوف لا يمر سنتان على هذه البلاد من غير ان يستولي عليها العراق . فسألنا عن الذي استنفر عنزة للقيام بعملها هذا فقال : فيصل الذي يدفعه الانكليز من وراء

ستار . ان الانكليز لا يدرسون مباشرة بل يتخذون لدسائسهم وسائل شائهم في سائر اعمالهم السياسية ، فتراهم في الظاهر ابرياء وهم في الباطن اصحاب الحركات والسكنات .

هذا ما قاله لنا بديع خضر الديرى وكانت علائم الجد والتحفظ والتستر بادية عليه في كل كلمة ينطق بها . وكان اذا لم يخاطبه احد يقضي اكثر اوقاته مطرقا في الارض ، كأنه يفكر في شيء عظيم ويتوقع خطرا مداهما من دقيقة الى اخرى . اننا لا ننكر انه خامرنا الشك في اليوم الاول من مجيئه ، ولكن الاطوار التي طرأت عليه والاحوال التي اكتنفته أزالنا من نفوسنا بعض الشك ، حتى اننا صرنا نؤانس ونطمئننه وندعوه الى التخفيف عن نفسه ، ورأى اخيرا ان يقوي روابط الصداقة بيننا فأعطاني وأعطى السيد حسن والسيد سعيد صورته الشمسية مع بطاقة فيها ذكر وظيفته في الرمادي .

ولكننا ويا للأسف علمنا بعد حين من السادة ظبيان اخوان ان هذا الشاب ربما كان جاسوسا ؛ فنقل منهم صور بعض المناشير التي وزعت في المدينة ، وظهرت مثل هذه الصورة في الدعوى التي اقيمت عليهم في الديوان العربي ، وكذلك كان حريصا جدا ان يأخذ منهم رسالة بخط يدهما للملك فيصل والامير عبد الله فامتنعنا . وعلى ذكر بديع ارى ان اذكر رجلا اخر حامتا التهمة حوله كثيرا وهو الشيخ عبد المحسن زين العابدين الحوراني شيخ قرية انخل ، فان هذا الرجل ليس بالعرير ولا بالنفير ، ولم يدل حديثه على انه يعرف شيئا من امور السياسة التي نحن بصددها ، ولما سأئلناه عن سبب الحشرة التي حشرها معنا اجاب بأنه كان له بعض علائق بشرقي الاردن ، وانه سيق الى السجن بسبب هذه العلائق ، وقد صادق الاخ حسن بك على ان الرجل كان في شرقي الاردن حقا وانه تعرف به هناك بواسطة الاستاذ الشيخ كامل القصاب ، الذي كان يسلم عليه ويؤانس بالحديث كلما رآه ، ولكن الاخ حسن بك

وسعيد بك كانا بمقدمة المتشائمين . وقد دلت الحوادث فيما بعد على انه ربما كان جاسوسا ايضا لانه ما كاد يطلق سراحه من سجننا حتى اعيد الى السجن مع السادة ظبيان اخوان واعضاء حزب الحديدي حيث بقي نحو شهرين كاملين يسترق اخبارهم ، وذكروا لي انهم كانوا آخذين منه تمام الحيلة .

اني ما ذكرت اخبار هؤلاء الجواسيس الا ليكون شبابنا على حذر فلا يقفوا في الاشرار التي تنصب لهم كما نصبت لنا ، وان حركتنا القومية التي ترمي في الدرجة الاولى الى احياء مجد العرب صادفت في كل حين اعظم مقاومة من بعض الذين بمظاهرهم ولباسهم وعاداتهم اقرب الناس الى العربية الاصميمة كشيخ انخل هذا ومن على شاكلته ، ومن كان في شك فليتذكر الادوار التي لعبها شيخ الرولة مثلا ايام الترك والعرب وايام الفرنسيين على السواء ، ولا يوجد لباس لا يلبسه الجاسوس او طبقة من الطبقات لا يكون من اهلها ، او دين من الاديان لا يدين به ، وللدراهم جراحة ان تنفذ الى اسمى القلوب في ظاهرها كما نفذت الى نفوس خونة كان الناس الى مدة قريبة يصلون على اذيالهم ، فحذار ايها الشباب المتقد غيرة ، حذار من المظاهر ولا سيما ما كان منها مفرطا في اظهار التقوى والصلاح .

ومن الاحاديث التي تداولناها بالسجن احاديث التجار الشخصية التي مرت على كل واحد منا ، واذكر انني والسيد توفيق الحلبي ذكرنا لاجواننا من اخبار رحلتنا الى العراق والاطار التي لقيناها والايام العصيبة التي قضيناها قبل الوصول الى ارض السلامة ما استدعى عجبهم واستغرابهم .

وحدث في العاشر من نيسان ان السجن دخل الى حجرتنا فوجد الدكتور خالد الخطيب والسيد ياسين الخاتجي في النافذة وكان قد خطر علينا ذلك من قبل خشية اتصالنا بالخارج ، فحكم

عليهما بالسجن ، واذا عجب القارىء من سجن السجين فليسمع لي اقول له ان طرق مجازاة السجناء متعددة ، ومن اهمها سجنهم في حجرة تسمى في مصر ( بالزنزانة ) وهي حجرة لا نافذة فيها فرشها الثرى وحجمها القبر وطعامها الخبز والماء - اكل العلماء ، مع الانقطاع التام عن اخبار العالم الخارجي اللهم الا ما يسمع من صلصلة الحديد ، ولكننا مع ذلك استطعنا الوصول اليهما بتسرب الحيطان فأوصلنا لهم الطعام والشراب وسائر حاجاتهما الضرورية .

### نظام السجن ووضعه الاجتماعي والصحي :

وعلى ذكر نظام السجن ارى ان اذكر شيئاً مما سمعناه عن اخبار السجناء ليطلع القراء على هذا الوضع الاجتماعي الذي يجهله اكثر الناس ، والذي لعب اصلاحه دوراً مهماً في تاريخ المدينة الحاضرة ، ومتى ذكر ان الغاية الشرعية من السجن هي اصلاح النفس وردها الى حالتها الصحية الطبيعية مع دفع ضررها بعزلها عن المجتمع عرفنا شأن هذه الحالة الناقصة في كل حجرة تجمع السجناء (متزعم) وهو لسان القوم والمتكلم عنهم والمدافع عن حقوقهم يسمى العريف او الجاويش ينال مقاما بينهم لشخصيته وسوابقه وشدة الحكم الذي استحقه ويجلس على فراش طننسية عجمية باحدى زوايا الحجرة وفوق بابه نملية مزخرفة ويضع فيها ذخيرة من الطعام المطبوخ ، وهو الأمر الناهي بينهم ، واليه يرجعون في خصومتهم ، وربما وضع لهم الدساتير التي عليهم ان يسيروا عليها من كنس ورش وتنظيف وطبخ وتحضير مائدة الاخوان ، فوظيفته الاساسية المراقبة والاشراف واسداء النصائح المؤثرة وان شئت فقل بلسان السياسة الحاضرة ( انتداب ) . لا جرم ان نرجيلة الحشيش لا يجوز لاحد ان يمصها قبله ، والطعام الطيب لا يذوقه فم قبل فمه ، وهو مثل حضرات المندوبين كلامه نافذ لا يقبل الاستئناف والتمييز . يجلس في زاويته ويجلس السجناء حوالياه فيقضون النهار على عزف ( البزق ) وتدخين الحشيش



وسب الدين وحلف الطلاق والصلاة لله تعالى في الاوقات الخمسة  
حاضرا مع قراءة القرآن الكريم والادعية والتبريك ، ومنهم من  
يعمل مطمورة او خابئة صغيرة يضع فيها حمصة كل اسبوع او كل  
شهر ليعرف بها عدد الايام التي قضاها . ومن عاداتهم انه متى  
دخل عليهم سجين جديد استقبلوه بالترحيب ، ثم سألوه عن  
سبب حكمه بقولهم ( ويش حمولك ) يعني اي شيء حملك ؟ فان  
كان قتلا مثلا قال لهم : (دم) فيحيونه ، حي الله حي الله يا هلا  
يا هلا . وكل جناية مهما كان نوعها من السلب والنهب تقابل بمثل  
هذه التحية ولا يستحي جانبها من ذكرها الا جنائتي السرقة  
والعمل الشنيع فان فاعلها يموه في جوابه الى ان يعرف بعد هنيهة  
فيقابل بالازدراء والسخرية وبكلمة ( اخسأ ) .

واذا كان الجلاني الجديد من اهل المكانة والشأن بين طبقة  
الجناة ، فان العريف يستقبله استقبالا خاصا ، ويأخذ بيده الى  
مرتبته مؤقتا الى ان يأتيه فراشه ويخصص له موضع . وفيما  
سوى ذلك لا يجوز لاحد ان يجلس على فراش الآخر او يمر من  
فوقه ولو قمزا . والعيشة في الحجره هي اشتراكية او ما يقارب  
الاشتراكية في الاكل ، فيأتي الطعام ويجلس الجميع على المائدة ،  
فاذا لم يأت لاحد منهم طعام باسمه فالآخرون لا يشعرون به واذا  
شعروا فلا يظهرون ذلك له . ومنهم من ليس له مكانة ولا يأتيه  
طعام فعيش بينهم مقابل الخدمة التي يقدمها لهم . واذا وجدت ان  
احد الاغنياء المعروفين حكم عليه بالسجن لمدة قريبة فانهم والعريف  
بمقدمتهم يطعمون فيه ولو استطاعوا لسلخوا جلده ، فالاشتراكية  
الشيوعية ورأس المال يتطاحنان في اعماق السجون وظلمة الحجرات .  
وللسجناء عادة ساعتان للفسحة والرياضة في صحن السجن ،  
ساعة في الصباح وساعة في المساء ، والقانون يحظر عليهم جلب  
المكيفات ولكن دراهمهم تأتيهم بجميع انواعها من الحثيش والافيون  
والكوكائين الى المشروبات والكحول المختلفة ، لذلك قلما دخل

الطلحاء السجن وخرجوا منه صلحاء ، وبالعكس طالما الصلحاء الذين زلت بهم القدم مرة في العمر فخرجوا منه طلحاء الى الابد والشاذ لا حكم له .

ومن النعم التي أنعم الله بها على القلعة ، أن الحكومة العثمانية جرت إليها ماء عين الفيحة ، فأصبح السجناء يشربون من هذا المنهل العذب بعدما كانوا تحت رحمة القتل التي كانت تملأ من مياه كمياه المراحيض . أقول ذلك بناء على ما رأيته بعيني فسان الخادم السجن الذي كان يجلب لنا المياه لشربنا كان لا يرى فرقا عظيما بين أن يملأ قلتيه من الانبوب مباشرة وبين ان يفرها من المياه المتجمعة في البرميل تحته وكثيرا ما يفعل الطريقة الثانية لسهولتها وقربها للتناول .

وما دامت نظرية السجنائين أن السجنون ألة للتعذيب فقط ، فمن العبث أن نصلح حال السجنون ، ومن دواعي الاسف أن السجن الافرنسي الذي يباهي بمدنيته ويزري على الشرقيين مدنيتهم وتربيتهم ، ربما كان بهذا المعنى دون السجن الشرقي في بلادنا على أقل تقدير ، لاني رأيت من سوء معاملته واهماله بشأن النظافة الحققة كسكوته عن الخادم الذي كان يفرغ لنا الماء القذر من البرميل أمام عينيه ما لا يدع مجالاً للشك . ورب قائل يقول أن تعذيبنا كان مقصودا بالنظر للثورة السياسية التي احدثناها في البلاد ، فأقول ان من يجراً على تعذيب خريجي المدارس العالية وأرباب الصناعات الفنية في سبيل الحركة لا يحجم مطلقا عن التمثيل بالجناة اذا سمحت له الفرصة . والانسان مؤلف من مشاعر محكمها الحوادث ، فمن كان حيوانا شرسا مع ابناء النور لا يكون ملكا كريما مع ابناء الظلام . وسيقرأ القارئ في وقائع السادة ظبيان اخوان وأعضاء حزب الحديدي من خبر التعذيب الطويل ما يكون عبرة للمعتبرين . ويرى الاستاذ حيدز أن نحو الاربعين في المائة يدخلون السجن ظلما وعدوانا لاجرام اقترفها غيرهم ، فاذا اضفنا

الى هذا العدد الكبير من ليست الجنيات من طبعهم بل سيقوا الى السجن بثورة عصبية آنية أو لدفاع عن شرف معنوي لا تنظر الى قيمته الشرائع والقوانين أو لعداوة متأصلة ليس المحكوم عليه بادىء في احداثها . وذلك عدا الاحداث المراهقين الذي كان السجن باكورة اعمالهم الدنيوية - اذا جمعنا ذلك كله تبين لنا شأن السجون وخطرها الاجتماعي والادبي بقطع النظر عن موقعها الصحي واعتبارها في بعض الاحايين بؤرة تنبعث منها أقبح الامراض الوبائية كالحمى النمشية مثلا .

### أنفليمان في المدينة :

لنترك السجن والسجناء الآن ولننظر ما حدث في الخارج ، وهل اهل الوطن فترت عزيمتهم فكان حسنا رشاشا باردا (دوشا) أحمد حواسهم ؟ كانت تأتينا الاخبار رغم حرص الفرنسيين على منعها بضرهم طاقا حاجزا حوالينا ، بأن البلدة في هياج عظيم تغلي كالمرجل ، ولكن لم يظهر اثر مادي لهذا الغليان الا يوم الاثنين اذ حدثت على ما اعتقد اعظم حادثة اجتماعية في تاريخ دمشق عاصمة العرب واقدم مدينة ذكرها التاريخ .

### النشاط النسائي الوطني :

كان الباحث البسيط يظن ان السيدات بمعزل عن كل روح وطنية او شعور اجتماعي حي ، اللهم الا ما كان من نوع الحماس الديني بقالب الافراط في العبادات عند بعضهن وأن معظمهن ما اخذ من المدنية الحاضرة الا ازياءها من الاحذية ذات الاعقاب العالية والجوارب الحريرية الشفافة الى الالبسة القصيرة والشعور المكوزة ، ولم يكن نظر الرجال فيهن يسمو عن هذا الاعتبار كثير بحيث كن عند اكثرهم من متاع الدنيا .

في يوم الاثنين حدث ما غير هذه النظرية وقلبا راسا على عقب اذ تجمع في عرنوس ( وهو الحي الذي تقطنه سبعون انسة وعقيلة

من اشرف سيدات البلاد) ، بعضهن في البيوت المجاورة بل في منعطفات الطرقات خشية مداخلة رجال الشرطة ، ومع ذلك فالقسم الاعظم تمكن من الاجتماع عند عقيلتي ، وفي نحو الساعة الثالثة زوالية خرجن في وقت واحد رغم انف المفوضين والشرطيين ورجال التحري الذين كانوا يراقبون باب داري ، وصرن يهتفن للحرية والاستقلال ويحيين رجال الوطن بمناديلهن البيضاء .

منظر جديد في جلق شيخة الشرق وظاهر اجتماعي غريب في بلاد مضت عليها الاحقاب وهي ساكنة ساكنة تحذو حذو الآباء والاجداد فكأنني بحضارتها هبت الاعاصير فيها فجأة فاصبحت بحرا خضما يعب عبابه ، وتلاطم على شطوط القديم امواجه ، ولم يعد مثله مستغربا في بلاد كالقسطنطينية والقاهرة وقازان مثلا، اذ تختلط فيها المدينتان الغربية والشرقية منذ عشرات السنين ، بقدر ما يعد مستغربا في هذه البلدة التي كثيرا ما وصفها الناس بانها شريفة بحقيقة المعنى المنطوي تحت هذا الوصف من الاستمرار على وتيرة واحدة في اساليب العيش . نظر سطحي وخطأ في التقدير والحساب لان جلق ايام العهد العثماني كانت بؤرة النهضة القومية . وسواها من المدن وان امتازت لكثرة معاهدها وضخامتها الا ان وجهة الحياة كانت اما مذهبية طائفية او تجارية مادية ، ومثل هذا التنظيم الاجتماعي لا يولد الروح التي تشعر بوجودها وتدرك التبعة الملقاة على عاتقها ، والاهلون هناك لا يزالون حتى هذه الساعة يا للأسف ينظرون الى العالم عالمين ، عالم الاسلام والنصرانية ، بدلا من عالم الشرق والغرب ، وثنى عن البيان ما في النظرة الثانية من توحيد العمل بين البوذيين والبراهمة والمسلمين والنصارى والمجوس والترك والعرب والكرد للخلاص من الكابوس الذي اناخ بكلكله عليهم جميعا فكاد يقضي عليهم ، ولعل الاستاذ اللبناني الذي كان في المجلس الرسمية يسخر بداخلته سوروية ويصفها بالقصور والانحطاط عن الساحل يتذكر ان في الداخل - وفي الداخل فقط - ظهرت الروح

الوطنية الخالية من شوائب التعصب البارد والسجع العالق باذناب القرون الوسطى .

سارت السيدات من هناك الى القنصلية الاميركية حيث احتججن على العمل الشائن الذي ارتكبه المستعمرون الطائشون ، ومن موجبات الاسف انهن لم يجتمعن بالقنصل نفسه ، فذهبن توا الى القنصلية الايطالية هتفن للاستقلال واحتججن ايضا ، ومنها للقنصلية البريطانية وكن اثناء الطريق محطات برجال الشرطة من كل جانب خشية اضرام نار الثورة في الرجال .

لم يكن القنصل البريطاني في داره ، لذلك بعد ان وقظن على باب القنصلية بضع دقائق ملن الى جهة المناخية منها سررنن في طريق باب القلعة ، ولكن الحكومة هنا اتخذت أشد الاحتياطات لان هذا الطريق يؤدي الى سوق الحميدية اعظم شارع في دمشق ، فارسلت الجنود من كل حذب وصوب وسدت جميع الطرقات والمنافذ ، واصطفت السيارات المصفحة عند المصرف العثماني القديم ، والدبابات بسوق الحميدية، ولكن السيدات مع ذلك حاولن بكل جهد المرور ، فوقف الضباط الافرنسيون حائلا دون ذلك ، وهنا جرت ملحمة بين سيدة واحد الضباط ، فصاحت في وجهه صيحة ادبت الرعب في قلبه والحماس في احد المشاهدين ، فاسل هذا مدية من جيبه وحاول طعنه بها ، ولكن الشرطيين تتدخلوا في الامر واعتصم هو برعويته الايرانية ، ولا ادري الان ماذا جرى له بعد ذلك .

رجع السيدات بالطريق الذي اتين منه وهن يهتفن للبحرية والاستقلال وللسجناء ، وما زلن بهذا الحماس والناس يتبعن خطواتهن والشرطيون يحيطون بهن من كل جانب ، حتى ضاقوا بهن ذرعا وحاروا في الامر ، واخيرا لما عرفوا انهن سائرات الى الصالحية بطريق سوق ساروجة أوعزوا الى السيارات الاميرية وغيرها من السيارات أن تعترض الطريق امام المستشفى العسكري ،

وتحول دون مرور أحد ، فلما وصلن الى هذه النقطة اضطرهن الشرطيون بالقوة الى التفرق . وهكذا انتهت هذه المظاهرة الفذة في البلاد العربية كما ابتدأت بنشر المناديل البيضاء في الهواء والهتاف للبلاد وشبابها الناهضين .

اما البلدة فإنها لما بلغها أخبار السيدات وما قمن به من الاعمال التي تزري بأعمال الرجال دب الحماس في جميع طبقاتها ، فرأوا أحسن فرصة لبدء العواطف الوطنية التي افتدتهم ، وللإحترام الذي يجدونه نحو رجالهم ، فأغلقوا حوانيتهم ومخازنهم بحيث أصبحت المدينة في ملح البصر من أقصاها الى أقصاها مضربة احتجاجا على العمل الجنائي الذي أقدم عليه القومندان اربا بوس ومن نحا نحوه من طائشي المستعمرين الذين كانوا حتى تلك الايام يعتقدون ان عاصمة البلاد العربية بعد يقظة الاستقلال مدة سنتين عادت الى نومها العميق واحلامها اللذيذة بمعاوية وهشام وعمر ابن عبد العزيز والرشيذ وزبيدة وابو نواس وسائر المناظر في الالب ليلة وليلة كلها اخذت تمر على النائمين من السحاب !!! ولكن فات هؤلاء المستعمرين ان الامم التي لا ماضي لها يستحق الحلم لا مستقبل لها يستوجب الاحترام ، الماضي كنز مدفون والمستقبل عزام يستخرجه والاجداد شجرة السطور والاحفاد مرساها الكليم يستمد منها نشوة والهاما ، ولا شك ان الروح التي بسطت سلطانها من البحر الى البحر في ظرف اربعين سنة وحاربت سلف المستعمرين في عقر دارهم لا تتلاشى وتذهب مع الرياح ، بل على الاحفاد لاستعادة المجد الغابر ان يلبسوها حلة زاهية من عمل الصناعات الحاضرة مزركشة بالفن والادب .

### الاتصال بالوطنيين خارج السجن :

كان اتصالنا بالخارج بفضون هذه المدة سهلا بواسطة المستخدمين من السجناء وبواسطة الوطنيين من رجال الدرك

ضباطا كانوا ام افرادا و اخص بالذكر منهم (١) . . .

فكانوا اذا تعذر اتصالهم بنا ، يأتوننا من الكوة على السطح فليقون الينا بالاخبار والرسائل التي يحملونها ، ويتناولون بخيـط مدلي الرسائل التي نجيب بها ، ومما نذكره مع الشكر الخالص ما قام به الشريف الحلبي المعتقل في حصن القلعة الخارجي في هذا الباب، فقد كان عقدة الاتصال بيننا وبين ابناء الوطن ، واتي الى الان لم ار وجه هذا الشهم ، ولكن عرفت من قبل انه محكوم عليه بالاعتقال مع البطل الشهير الذي ازعج المستعمرين كثيرا ( يعني بالبطل ابراهيم بك هنانو والثاني كامل بك ) .

### الافراج عن معظم الموقوفين :

وفي مساء الاثنين في ١٥ نيسان سنة ١٩٢٢ ، خرج اربعة من الموقوفين ، وفي اليوم الثاني اخرج الباقون زمرا زمرا ، بحيث لم يبق حتى الليل احد من السجناء غيرنا نحن السبعة : الدكتور شهبندر حسن بك الحكيم سعيد بك حيدر منير افندي شيخ الارض السيد العفيفي خالد بك الخطيب وتوفيق افندي الحلبي . وقد لاحظنا شدة في منع الاختلاط لم يسبق له نظير في معاملتنا بعد خروج اخواننا ، فأتى الرئيس الافرنسي ومعه افراد من الدرك المختلط فسدوا النافذتين العلويتين في السقف ، فأصبحت الحجرة اشد ظلمة والرائحة الكريهة المحصورة فيها لا تحتمل ، وحقا انها الان قبر الاحياء فنور الشمس اصبح ثمينا نتهاداه مهادة لان الاشعة الضئيلة التي كانت تدخل علينا من احدى النافذتين الصغيرتين الباقيتين نحتبسها فنمرها على ايدينا ووجوهنا ولو استطعنا لخبأنا منها في جيوبنا للمساء ما يدفع عشوته ، واخذنا

---

(١) لم يدون الشهبندر أي اسم في النص المحفوظ من مذكراته بخط يده .  
الناشر

نقترب من الباب نروح النفس بما يهب علينا من الحجرة المقابلة من النسيم الذي صرنا نعهده علينا وان حمل بين طياته روائح الحشيش ودخان النراجيل ولغائف التبغ وابخرة المسجونين .

### طريقة جديدة لتبادل الرسائل :

ولكن عبثا حاول الفرنسيون بترنا عن الخارج، فالسيد المشار اليه وجد من استأمنه الخدمة ، فكان يرسل لنا بواسطته كل ما يستطيع من الاخبار ، واذكر اننا حصلنا بهذا الطريق على عدة رسائل من عادل بك العظم وحسن افندي الطرايشي والسيد عثمان الشرباتي ، حتى انهم ذكروا لنا ان نطلب ان تكون محاكمتنا علنية وان يحضرها قناصل الدول بدعوة من المحامين عنا . والظاهر ان الفرنسيين احسوا ان حبل الاتصال بالخارج لم ينصرم مع كل الاحتياطات التي اتخذوها فزادوا بالتشديد ، وكامل بك زاد في الحبل الى ان اخترع طريقة مبتكرة لم يسبق لها مثيل على ما نعلم ، وهي انه اتفق مع الخادم المستأمن ( باطلاع منا ) على قطع النور الكهربائي عن جميع السجون في الساعة العاشرة ليلا بواسطة الزر الكهربائي الموجود بالقرب من حجرته ، حتى اذا استولى الظلام امره ان يقذف من النافذة الجنوبية الرسائل التي عنده وأن يقذف له في تلك الفضون الى حصن القلعة الرسائل التي عندنا والملاحظات التي كنا بحاجة الى ابلاغها لاصحابنا ، وقد نجحت هذه الحيلة اتم النجاح امام أعين السجناء الفرنسيين الذين اتخذنا لهم من ظلمة الليل حجابا كثيفا سترنا به عملنا واذ عد البعض الليل كافرا للظلمة التي يستر بها فاني اعد كفره في تلك الليالي ايماننا كاملا .

حينما ينطفئ النور في الظلام الدامس كان كل واحد منا يلزم مكانه وبعد هنيهة كان يسمع وقع الاقدام الخفيفة ، فيعقبها حفيف الرسالة المقذوفة ثم همس ، فيتسلق احدنا الجدار الى النافذة فيقذف الرسالة التي معه فيعود الرسول بها ، وهكذا



تنتهي الرواية في بضع دقائق والعريف الافرنسي على كرسيه غير شاعر بما حدث حوالية وفي حجرته .

ولا ننكر اننا بعد الافراج عن اخواننا شعرنا بشيء من الوحشة خصوصا بعد انقطاع الجرائد عنا والتشديد في الحجز علينا ، ومع ذلك فقد صح قول شاعرنا العربي :

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا      ويأتيك بالاخبار من لم تزود

اذ تيسر لنا فرد من افراد الدرك اسمه ( . . . ) كان يحمل لنا شيئا من اخبار اعدائنا وحالة بلادنا ، وكان هذا الدركي كما علمنا من بطاقة تركها لنا بخطه على اتصال بالسيد ( . . . ) ولمح بطرف من أخبار الوطنيين ، والظاهر انه مخالف لحكومته ولا يرى رأيها في الاستعمار ، ولم نر عليه اقل علاقة تدل على طمع في مال أو في جاه أو اسداء مساعدة ، ومما يسجل له مع الشكر انه الوحيد الذي نبهنا الى موعد محاكمتنا وذلك قبل حدوثها بثلاثة ايام ، فأزال عنا بهذا العمل عناء شديدا كما سيرى القارئ في القريب العاجل .

ولم تختلف حياتنا بعد خروج اخواننا كثيرا لما كنا عليه معهم ، فكنا ننشد الاناشيد كالعادة ، وتقرأ ما يصل الى ايدينا من الاخبار بشوق ولهف ، وجرت حادثة يوم الثلاثاء في الحادي عشر من الشهر حرية بالتدوين ، وهي اننا كنا نتحدث في عصاى ذلك اليوم اذ سمعنا من بعد صوتا يشبه الطلق الناري ، فقمنا وصرنا كلنا آذانا ، وبعد هنيهة سمعنا طلقين آخرين ، ثم اخذ اطلاق النار يشتد وبأشداده هبت عاصفة في القلعة في رؤوس السجناء ، كسرت الابواب الحديدية ودكت بعض الحيطان ، واخذت الضوضاء تملء الفضاء ، والصراخ في جميع الزوايا يعم الاذان ، ولا يفهم منه الا بعض عبارات التهديد ، فملا عليهم السجنانون البنادق واخذوا في اطلاقها ، فاختلط عويل الجرحى بوعيد العصاة ، ونحن في ذلك

كما يقول المثل العامي ( كالأطرش في الزفة ) لا نعرف مما حولنا الا ما أملته الخيلة وقوة التكهن من حدوث ثورة في المدينة اندفع لسان لهيبها الى السجن ، فحدث ما حدث وانا كذلك في تكهننا اذ دخل علينا العريف فشهّر مسدسه وصاح بصوت مرتجف منقطع : من تحرك منكم من مكانه فأنا ذابحه من غير ادنى توقف ! فلم نجبه بحرف واحد وكانت نتيجة الثورة في السجن جرح ثلاثة او اربعة من السجناء جروحا بالغة واحدهم فقد احدى عينيه .

### مظاهرات الطلاب واستشهاد بعضهم :

وقد علمنا في المساء من مراسلة السيد شريف ابو علي ان تلاميذ المدرسة السلطانية ومدرسة ملك الظاهر ومدرسة التجهيز قاموا بمظاهرة عظيمة في البلدة احدثت هياجاً بين الاهلين واضطراباً لم يسبق له مثيل ، لان الحكومة اقدمت على القبض على بعض هؤلاء التلاميذ والزج بهم في دائرة الشرطة فأدى هذا العمل الى هجوم اهل الوطن على الدائرة نفسها لانقاذهم فقتل بسبب ذلك السيد عيسى شموط من الميدان الفوقاني وعمره ١٨ سنة وبدر الدين عرار من الحي المذكور وعمره عشرون سنة واخرون من قبر عاتكه وجرح نحو الستة جروحا بالغة ، وبقيت المدينة مقفلة كالיום السابق .

ان هذه الدماء البريئة مضافة الى دماء الشهداء الذين بذلوا نفوسهم من قبل في سبيل القضية العربية هي شاهد ناطق بالحق الصريح الذي لنا ودعوة صميمة تسمو بنا الى مصاف الامم الحرة ، لان الشعب الذي ليس لديه من ابنائه من يبذل النفس في الخطر المعد لهم الذي يهد كيان الامة لا يحق له التربع على اريكة الاستقلال، سنذكر هذه الدماء كما ذكرت دماء ابطال سنة ١٩١٥ وسنة ١٩١٦ وستنسج عليها عقيلات سورية بالخيوط الذهبية روايات البطولة العربية ونبلعها للابناء والاحفاد في اليوم الذي تباهي الامم بتالدها

وطريفها ما قدمت في سبيل المجده من النفس والنفس .

## الحكومة تعلن الاحكام العرفية والشعب يفلق حوائته :

ولما رات السلطات الفرنسية الخطر الداهم ، اتخذت كل انواع الحيطة فاعلنت الدائرة العرفية ، ومنعت خروج الناس الى الطرق من بعد الساعة السادسة مساء ، واوعزت الى الحكومة الوطنية ان تنشر في الجرائد المحلية ان كل من لا يفتح خانوته يفرم بثلاثين ليرة سورية ، ولكن لم يلتفت احد من الاهليين الى هذا الاعلان البارد بل داومت المدينة على الاغلاق يوم الاربعاء ايضا .

ويوم الاربعاء صباحا بلغنا ان احد ابناء الوطن بينما كان مارا في الليلة الماضية في سوق مدحت باشا ، صاح فيه الجنود السنغاليون ان يقف ، وكان اصم لا يسمع كلامهم ، فما كان منهم الا ان اطلقوا عليه النار فأردوه صريعا يتضرج بدمه ، فبلغ هذا الخبر مبلغا اثر فينا . فعقدنا حفلة تأبين ذكرنا فيها شهداء الوطن بقصد ام بغير قصد من الشأن في رفع كلمة الامة، ومن الغريب اننا ونحن في دمشق لم يبلغنا خبر عن الشهداء غير هذا الخبر فكان السلطنة اخفت سائر الاسماء سترا لجرائمها وتهدة للافكار .

والان وقد مضى علينا نحو اسبوع في السجن من غير ان نخرج للهواء الطلق ونور الشمس ، فان انفسنا اخذت تشعر بشيء من الضيق ، ومع ان الرئيس الافرنسي ابلغنا رسميا يوم الاثنين الماضي ان البعثة سمحت لنا بتناول طعامنا في بيوتنا والخروج الى صحن القلعة مرتين في اليوم ، فان الشطر الثاني من هذا السماح لم ينفذ ابدا . والظاهر ان الافرنسيين اعتقدوا ان لنا ضلعا في الثورة التي حصلت في السجن ، وهم ليسوا بعبيدين عن الصواب اذا كان المقصود بهذا الضلع الخطب التي تلوناها والاناشيد التي انشدناها ، واما اننا اتصلنا بهم مباشرة فهذا خطأ لان كل واحد كان يعتقد ان ربط القضية الوطنية بالاشقياء عمل يضر بالمصلحة

العامه ويسيء الى سمعة القائمين بها . وكثيرا ما كنا نحمل على الثورات التي حدثت في الماضي فادت الى فرار السجناء كما حدث عقيب الانقلاب العثماني في اواخر الحكومة العربية .

### تبليغنا التهم الموجهة الينا :

وفي مساء السبت نحو الساعة السادسة آتى ضابط فرنسي بلحية شقراء هو كاتب الضبط في الديوان العسكري يحمل أوراقا ، ومعه ترجمان دمشقي ، وأخذ ينادي كل واحد منا على حدة ويبلغه التهمة الموجهة ضده . وقد قرأت في وجه بعض الإخوان الذين سبقوني بالاطلاع على التهمة علائم الاضطراب الهادئ، فأطرقوا في الارض وخاضوا في بحر من الافكار لا يلتفتون الى أحد ، فلما جاء دوري والقي الضابط على مسامعي التهمة الموجهة ضدي وناولني اياها مكتوبة بخط سقيم تأملت فيها فاذا فيها المواد الجزائية التي يقتضيها الحكم ، فطلبت اليه أن يقرأها لي لاتفهم معناها ، فقرأها فلم اجد فيها ما يدعو الى ذلك الاضطراب ، والظاهر أن اقتصاره على ذكر التهمة فقط للإخوان الذين سبقوني - وهي تهمة جزاؤها الاعدام في القانون العثماني - أوجب هذا القلق الطبيعي الذي يشعر بمثله كل انسان اكتنفته الاسرار كما اكتنفنا .

عدت اليهم فأوردت لهم شيئا من معاني الجمل التي سمعتها ، ثم فتحت ورقة الاتهام واخذت في ترجمتها حرفيا بمعونة أحد الإخوان المطلعين على الاصطلاحات القانونية الاستاذ سعيد بك حيدر وهذه هي بنصها وفصها :

### نص المذكرة الاتهامية بحقي :

#### الجمهورية الفرنسية

رقم ٩٦٤ المحكمة العسكرية : مذكرة اتهام احضارية

ديوان المحكمة العسكرية لمقاطعة دمشق - جلسة في دمشق :

في الساعة الثامنة من اليوم الخامس عشر من شهر نيسان  
سنة ١٩٢٢ .

نحن الرئيس بوانييه المدعي العام لدى المحكمة العسكرية  
لاراضي دمشق ندعو عبد الرحمن شهبندر دكتور من أطباء دمشق  
من الجنسية السورية بواسطة هذه المذكرة الاتهامية الموجهة ضده  
للحضور الى المحكمة العسكرية المتقدم ذكرها ، والتي هي تحت  
ادارة الكولونيل قائد الجيش في حكومة دمشق في الساعة السابعة  
من صباح الثامن عشر من شهر نيسان سنة ١٩٢٢ ، وذلك لاجل  
محاكمته على الاعمال المتهم بها وهي :

اولا : مؤامرة غايتها تغيير شكل الحكومة يتبعها عمل ارتكب  
او بوشر به تمهيدا للتنفيذ .

ثانيا : التحريض على مؤامرة غايتها تغيير شكل الحكومة مع  
اسباب مشددة نشأت عن أن المؤامرة أتبعته بعمل ارتكب او بوشر  
به تمهيدا لتنفيذها .

١ - حصل في الشام من ٤ نيسان الى ١١ منه سنة ١٩٢٢  
بواسطة اجتماع مع أكثر من شخصين على قرار لعمل مشترك بقلب  
الحكومة المؤسسة في دمشق ، وأن المؤامرة أعقبها عمل ارتكب او  
بوشر به تمهيدا للتنفيذ .

٢ - لتحريض الشعب في نفس هذه الظروف في زمان ومكان  
وبواسطة خطب القيت في المحال العامة وبواسطة منشورات وزعت  
على ارتكاب جنابة المؤامرة وأن هذا التحريض أعقبه أثر .

وهما عملان نسبا اليه وحكهما الجزاء بحسب المادة ( ٢١٧ )  
و ( ٨٧ و ٨٩ ) من قانون الجزاء والمادة ( ٢٤ و ٣٢ ) من دستور ٢٩  
تموز سنة ١٨٨١ والمادة ( ٢٢٦٧ ) من قانون الجزاء العسكري  
والمادة ( ٨ ) من دستور سنة ١٨١٩ معدلة بقانون ٢٧ نيسان سنة

١٩١٦ المتعلق بالادارة العرفية . وذلك كما يأتي :

قانون الجزاء المادة ( ١٧ ) : الحكم بالنفي يكون بالجلء عن البلاد والسكن الدائم بأراضي يعينها القانون بعيدة عن أراضي الجمهورية في أوروبا وإذا عاد المنفي الى أراضي الجمهورية فيزداد حكمه بالاشغال الشاقة الدائمة ، وأما المنفي الذي لا يدخل أراضي الجمهورية بل يقبض عليه في الاراضي التي تحتلها الجيوش الفرنسية فإنه يعاد الى منفاه السابق .

المادة ( ٨٧ ) من قانون الجزاء : - المؤامرة التي من شأنها تدمير الحكومة وقلبها يجازى صاحبها بالنفي .

المادة ( ٢٤ و ٨٢ ) من قانون ٢٩ تموز سنة ١٨٨١ كما يأتي : ان الذين يحرضون على ارتكاب الجرائم المذكورة في المادة ١٧ وعلى الاخلال بالامن العام كما في المادة ٨٦ يجازون بالسجن أحيانا من سنة واحدة الى خمس سنوات وبجزاء تقدي من ١٠٠ الى ٣٠٠٠ فرنك .

المادة ( ٦٧ ) من قانون الجزاء العسكري : - للمحاكم العسكرية السلطة التامة بأن تحكم بموجب القوانين الجزائية العادية في كل الجرائم .

قانون ٩ أغسطس سنة ١٨٤٩ مادته الثامنة المعدلة لقانون ٢٢ نيسان سنة ١٩١٩ : في المقاطعات التي تعلن فيها الادارة العرفية للسلطة العسكرية الحق في الخطر الواقع الناشء عن الحرب الاجنبية أن تقبض على المتهمين الاصليين للجرائم المذكورة في المادة ( ٨٧ و ٨٩ ) من قانون الجزاء وعلى المشتركين بمعرفتها مهما كان نوعهم .

والشهود على المتهم هم :

١ - الملازم أوليف من البعثة الفرنسية . ٢ - الضابط

الترجمان سيا . ٣ - الرئيس مويو سان عن الانشاءات . ٤ - مفوض الشرطة حسن أفندي المأمون . ٥ - مفوض الشرطة ممدوح بك العابد . ٦ - مفوض الشرطة صبحي أفندي . ٧ - مفوض الشرطة محي الدين أفندي . ٨ - الشرطي عبدو أفندي البخاري رقم (٩) . الشرطي رقم ١٠٢ محي الدين أفندي . ١٠ - الشرطي رقم ٢٣٨ وعارف أفندي (٢٢٣) . ١١ - الشرطي رقم (٢٦٦) حسني أفندي . وقد عيننا الملازم من الجيش المختلط بدمشق محاميا عنه وأعلنا أن له الحق دائما أن ينتخب واحدا حتى ابداء المحاكمة .

### الامضاء : المدعي العام : بوانيبه

\* \* \*

### تعليق على المذكرة :

يرى القارئ من هذه المذكرة الاتهامية كيف تطورت مسألتنا ودخلت في أدوار من النشوء والترقي التي يلذ تتبعها ، فكانت في بدايتها جرما عاديا دفع الحكومة الوطنية الى مجازاته بحسب قانون التجمع العثماني فلم تفلح ، ثم أصبح مؤامرة على تغيير شكل الحكومة ، ثم اكتسبت شكل الاسباب المشددة بالنظر الى محاولة التغيير على زعم الفرنسيين . فهل يشك احد بعد هذه بنظرية النشوء والترقي ؟!

أوقفنا الحكومة في عصارى الخميس في السادس من نيسان فأصبحنا منذ تلك الساعة تحت اشرافها وتصرفها ونطاقها الحاجز، فليت شعري هل تمدد جمعنا وطال كما تتمدد الاجسام بارتفاع الشمس وتزايد الحرارة وطول النهار حتى صار شاملا ما قبل التوقيف وبعده الى نهاية الحادي عشر من الشهر المذكور ؟ هذه حكمة في القانون تعجز أفهامنا معاصر الشرقيين عن ادراكها ، فلا

بد لنا من مرشد حكيم ( أو ام رؤوم بقول الاصطلاح الاستعماري )  
يعلمنا اياها . ومن الغريب ان موظفا في البعثة بدمشق يقول لمراسل  
المقطن أنه لولا ما حدث في السجن بعد التوقيف لكان الجزاء بسيطا  
لا يؤبه له ، فبارك الله بهذا البسيط الذي بدأ فاتحة أعماله  
بالسلاسل والاعلال ، وحمدنا الله أنه لم يكن مركبا لان الجرم المركب  
والجناية الفظيعة كان لحسن الحظ من عمل الطائشين الذين نصبوا  
ذقونهم على مقاعد الحكم منذ اواخر تموز يوليو سنة ١٩٢٠ وجمعوا  
حولهم زمرة من الجواسيس المحتالين وحثالة من الموظفين الخائنين  
فأصبح كل منهم آلة للضحك والسخرية . المستعمرون يسخرون  
الاذناب نفعاً لغاياتهم وأوطارهم الذاتية الدنيئة ، والاذناب يضلون  
ساداتهم فيهبطون بهم الى الهاوية ويعدون بهم الى مسارح الروايات  
الهزلية .

### تعيين محامين وطنيين للدفاع عنا :

قررنا في المساء تعيين محامين وطنيين عنا ، ولم يأمن احد  
منا الى المحامين الذين عينتهم السلطة التي لفقت علينا هذا  
التزوير المييب ، فوقع اختيارنا على السادة والاساتذة جلال بك  
وزير العدلية في الحكومة الوطنية وفارس بك وزير المالية والياس  
بك نمور وسعيد افندي محاسن وحسن افندي الخطيب وسعيد  
افندي الفزي . فارسلنا اليهم بواسطة السجن رسالة ليواجهونا  
حالا ، واخبرنا المحكمة العسكرية اننا انتخبناهم ليدافعوا عنا  
وطلبنا اليهم أن تسمح لنا بانتخاب ترجمان قدير في اللغتين العربية  
والفرنسية . فكان جوابها بقبول المحامين ورد الترجمان اعتمادا  
على ترجمانها الذي ارتبك يوم محاكمتنا ارتباكا شديدا ولم يستطع  
تأدية المعاني التي بسطناها كما سيراه القارئ في حينه . أما  
نحن فكنا نفضل ان يكون ترجماننا أحد ثلاثة جميل بك مردم  
بك أو حليم بك حرفوش أو عارف بك النكدي .



ويوم الاحد قرب الزوال دخل علينا الاساتذة جلال بك وفارس بك والياس بك ، واخبرونا انهم كانوا في المحكمة العسكرية منذ الصباح ، فاطلعوا على الدعوى من اولها الى آخرها ، وعرفوا دخائلها وهم يخشون أن تكون مفعمة بتزوير الشرطة وتلفيق المفوضين فيما ذكروه أنه صورة أوراق تدعي انها خرجت من السجن فيها استنفار الامة الى الثورة وخلق نير الاستعمار ، فاطهرنا بطلانها ، وكان الياس بك خلاف رفيقيه تظهر عليه علائم التشاؤم ولم يخف ما كان يساوره من الهموم والشكوك ، ولما سألناه لم لم نؤخذ للاستنطاق ؟ قال : نعتبر السلطة ان التقارير التي حصلت عليها من الشرطة ورجال التحري كافية لتجريمكم ، ومنذ عرفت انها وحدثت الحوادث التي جرت قبل السجن وبعده تأكدت ان نيتها سيئة ، والا لكان الامر هينا لا يؤبه له ، فسألناهم : وما هي هذه الحوادث الموحدة ؟ فذكروا الاجتماعات التي عقدناها للمستمر كراين والمظاهرات التي قمنا بها والدعوة الى العصيان التي اثرنا ثاثرها بالسجن ثم التفتوا وقالوا: أي مسلك ستسلكون في الدفاع سلوك الملاينة والاعتدال أم السلوك الذي يلتزم مع غايتكم فقلنا : سلوك الحق والواجب .

ولم ينفك فارس بك وجلال بك من القول بان الحكم علينا لا يتجاوز الشهر بالنظر للايضاحات التي أوضحناها ، وأما الياس بك نمور فبقي على تشاؤمه ، وظهر لنا من حديثه انه زار القومانان أولا بوس خصيصا لهذا الغرض فعرف منه الشر الذي تضرره السلطة الاستعمارية لنا .

قد يكون الحكم اشتدت صرامته بعد حركات السجن ، ولكن المؤكد عندي أن علائم الشر ابتدأت منذ وضع الاغلال بأيدينا في دائرة الشرطة ، والتزوير علينا بالمؤامرة لتفجير شكل الحكومة ، حتى ان شرطي التحري الذي وقف ببابي ينتظرني عرف انني سأنفى مع اخواني .

ثم انني سألت الياس بك عن المحاكمة هل يطول أمرها ؟ فقال :  
جرت العادة في الديوان العرفي الافرنسي في مثل هذه المسائل  
الثابتة عندهم ، أن يتوا في أمرها في يوم واحد بل في جلسة واحدة  
ان امكن ، وان اقتضى الحال في بعض الاحيان ان لا يذهبوا الى  
الغداء ، وربما اذا اضطر احد الاعضاء الى قضاء حاجته اتبعوه برجل  
ينتظر الى ان ينتهي فيعود به الى الجلسة خشية ضياع الوقت .  
ودعنا الاساتذة على أمل أن يضعوا مشتركين صورة المدافعة .

### المحاكمة تختار ثلاثة افرنسيين للدفاع عنا :

وفي المساء دخل علينا ثلاثة من الشبان الافرنسيين ببززمهم  
العسكرية ففهمنا انهم ضباط في الجيش المختلط الذين عينتهم  
المحاكمة للدفاع عنا .

ان حديثهم اللطيف وحركاتهم الهادئة الانيسة والبستهم  
النظيفة والاحترام البادي على وجوههم ، كل ذلك دلنا على أننا  
نخاطب الان اناسا ذاقوا من التهذيب واصابوا من المدنية نصيبا حال  
دون الفطرسية التي تبدو عادة على المستعمرين في بلاد الشرق ،  
وفهمنا منهم أنهم من تلاميذ الحقوق في فرنسة لم يحصلوا على  
شهادتهم بعد وانهم يدرسون الان في المدرسة الحربية .

ذكروا أنهم طالعوا اوراقنا واحاطوا بوجهة نظر المدعي العام ،  
وانهم اتوا الينا ليطلعوا على رأينا ويلموا بقضيتنا ، فذكرنا لهم  
تصيينا للاساتذة السابقين بالنظر لمعرفةنا بهم ، فعذرونا على  
ذلك ، ثم اخذنا نقص عليهم ما جرى ونبين لهم الخطيئات المتسلسلة  
التي ارتكبتها السلطة وآخرها هذا التزوير الذي اقدمت عليه  
فأظهروا تفاؤلا عظيما وأجمعوا على أن الحكم لن يكون خطرا .  
ونصحني الملازم له (Leme) المدافع عني كما نصح سائر الاخوان  
ان نبين للمحاكمة الضيق الاقتصادي المستحوذ على البلاد وأنه  
هو السبب في هذا العجز الذي بدا على الوجوه ، ثم ودعونا وانصرفوا

على امل اللقاء في صباح الثلاثاء في المحاكمة .

## المسيو بيجان يحقق معي :

وقد صح قول الاستاذ نمور فيما ادعته السلطة من الاعتقاد الكاذب بان التهمة لاصقة فلا حاجة لاستجوابنا لولا انها ارسلت الي قبل اخلاء سبيل الذين اخلي سبيلهم المسيويبيجان مستشار الشرطة ليستجوبني عن حوالة المستر كراين التي ذكرتها سابقا . انذالي يوم الاحد قرب الغروب فاجتمعت به في الغرفة التي تسجلت فيها هويتنا في اليوم الاول من سجننا ، فاخذ يسألني خطبا لم اعطاني المستر كراين هذه الحوالة وما هي غايته منها ؟ فاجبته بالاختصار كما ياتي : ان المستر كراين لما زار دمشق في هذا العهد ، سألني : هل يوجد في نسائكم معاشر السوريين من تضارع في علمها الكاتبة التركية خالدة اديب خانم ؟ فقلت لا ، فقال انني مسرور أن أخبرك انها تخرجت في مدرستي في الآستانة ولي ضلع كبير في حثها على العلم وقد علمت على حسابي من بني قومها في أمريكا وفي غيرها نحو اثني عشر طالبا وطالبة ، وانا عازم أن ادعو طالبة او طالبتين من أوانس سورية للتعلم في أمريكا على حسابي أيضا ، فما رأيك ؟ فشجعته كثيرا ، وبعد البحث الدقيق وقع اختيارنا على الأنسة نازك العابد والأنسة أليس قندلفت فقاطعني سائلا :

لم انتخبتي الأنسة أليس قندلفت ؟ فقلت : بالنظر الى سنها وقابليتها وعلومها التجهيزية . فقال : الا يوجد مثلها في هذا المعنى كثيرات من الدمشقيات ؟ فقلت : بلى يوجد ولكن العارفات الانكليزية مثلها بحيث يستطعن تتبع الدروس في الولايات المتحدة قلائل ، ثم اتممت حديثي فقلت : أن هذه الحوالة هي أجرة طريق تعطى لكل واحدة نصفها وهو خمسمائة ريال أمريكي (خمسون جنيها) . وقد راجعت الأنسة قندلفت أهلها فقبلوا فارسلت الي بطاقة صباح سفر المستر كراين تعلمني ذلك كما أعلمت المستر كراين نفسه ، وأما

الآنسة عابد فاني ذهبت مع المستر كراين لبيتها لتكليفها فاطهر  
أبوها تمنعا ، ولكن جاءتني في اليوم التالي الى البيت فوضعت خبرا  
أنها تريد السفر من صميم فؤادها وأن أبوها يقبل على الأرجح اذا  
انا اقنعتة ، وهذه يمكنني ان اقول انها قبلت ايضا وان  
كان الامر معلقا على رضا والدها .

قال المسيو بيجان : ألم يدعك المستر كراين للسفر معه الى  
بعض البلاد كالأستانة ؟ ألم يكلنك السفر معه الى بلاد العرب ؟  
فعبجت من وصول هذا الخبر اليه كل العجب ، خصوصا والمستر  
كراين كان حريصا على كتمانها وأنا لم أفتح أحدا به .

فرايت الواجب ان أبين له الامر بدون اكرثا فأتملت له  
حديثي كأنه لم يقاطعني قائلا : اذا لم تستطع الآنسة نازك عابد  
السفر فقد كلفني ان اشتري له بالخمسائة ريال الباقية معدات  
سفر الى بلاد العرب مثل كوفيات وعقل ومقعدات ومحفوظات  
ونراجيل الى غير ذلك من الحاجات التي خبرتها أثناء سفري الى  
بلاد العرب لان المستر كراين يريد السفر الى الجزيرة فاليمن  
فالعسير وقد كلفني السفر معه فلم اعطه وعدا قاطعا بالنظر الى  
مشاغلي الخاصة .

هنا تم الاستنطاق وبعدها كتبه على نحو ثلاث صفحات  
من القطع المتوسطة أعطاني اياها لامضيه ، فتربصت ريثما عدت  
قراءته بانعام نظر وامضيته . واخيرا سألتني : هل يأتينا الطعام من  
بيوتنا ؟ فأجبتة بالايجاب ، ولكنني بينت له الشدة التي تنتابنا من  
قلة الشمس واستنشاق الهواء فوعد ان يقدم المساعدة ثم ودعني  
وانصرف .

# المحاكمة وأسرارها

## اقتراب الموعد وازدياد المضايقة :

اقتربت ساعة المحاكمة وازدادت شدة السجانين في احكام الحجر علينا ونبش طعامنا بحيث كانوا يتحرون اللبن الرائب الذي يأتينا بأصابعهم ويقطعون الارغفة اربا اربا خشية ان يكون فيها رسالة من الخارج .

ومما يذكر لهؤلاء الجناة ان الاخ منير بك شيخ الارض كان يوم الاثنين يسأل السجان ( دوس ) بعض اسئلة تتعلق بنا ، فقال له هذا تشفيا : غدا سيكون يوما مذكورا تعد فيه المقصات ، فقال : لم المقصات ؟ فقال : لقطع رؤوسكم ، وأشار بكفه على رقبتة بالحز ، فوجم الاخ وعاد الينا وعلائم الاضطراب بادية على وجهه ، فقص علينا الحديث من اوله الى آخره فأطرقنا الى الارض جميعا ، وبقينا واجمين حيننا من الزمن ، وقد قضينا يوم الاثنين على أحر من الجمر ننظر تقلبات الحدثان ونحسب لعبارة ( دوس ) الحسبان ، خصوصا وقد سبقها من سجان آخر عبارة تشبهها ، ولكن بدلا

من المقص استعمال كلمة المفصلة ، وعبارة الدركي ( فلان ) وان كان فيها ما يدعو الى الاطمئنان الا انها تضاءلت بجانب هذه التصريحات المرعجة .

### مفادرة سجن القلعة :

كنا عارفين ان الطلب سيكون في الساعة العاشرة ليلا ، لذلك حلقنا ذقوننا في النهار ، وقرب وقت العشاء لبسنا ثيابنا وهيانا انفسنا وقعدنا على فرشنا ، فلما ازفت الساعة دخل العريف علينا فجأة وصرخ علينا : استعدوا للمشبي بعد نصف ساعة واطسوا فرشكم ولحفكم . ولكنه حمله فينا فرآنا قد سبقناه الى طلبة ، فدهش من تسرب الاخبار اليها وخرقنا النطاق المضروب علينا . عاد اليها بعد نصف ساعة ومعه سرب من الدركيين فأمرونا ان نمد أيدينا فوضعوا فيها السلاسل والاغلال ، وخرجوا بنا الى صحن القلعة بعدما حملوا امتعتنا ومنها الى مركبة كانت تنتظرنا عند البوابة الخارجية .

صعدنا الى المركبة وصعد معنا الدركيون يحيطون بنا من كل جانب ، فأخذت تسير بنا الهوينا ، وكان يجرها أربعة بغال كبيرة ، وهي المركبات المستورة التي لا قوس لها يدفع عن ركابها صدمات الطريق والتي يساق عليها الجناة عادة .

كنا مطرقين من هذا المنظر الرهيب الذي زاد في وحشته أن الطرق مقطوعة من كل جانب عملا بأمر الاحكام العرفية التي خطرت التجول في المدينة من بعد الساعة السادسة مساء . وكان أمامنا نحو خمسون جنديا واقفين بنادقهم وعليها الحراب قائمة تلمع من بين طيات الليل كما يلعب البرق بين الضباب القاتم ووراءنا عدد يقاربهم .

صوبوا البنادق عند منعرج ( السروجية ) ومالوا عن الطريق العامة كما مالت المركبة بنا معهم ، ثم وقفوا هنيهة فما الذي طرأ ؟ . طرأ ان ثلاثة من رجال التحري كانوا يرصدون الطريق لاتخاذ

الاحتياطات ، فظنهم الجنود الفرنسيون أنهم واقفون لاجلنا ، فلما اطلعوا على الوثائق التي بأيديهم عادوا بنا الى السير في طريقنا الى أن أوصلونا الى ساحة الشهداء حيث دخلوا الى بناية العابد .

### في بناية العابد :

أنزلونا وأنزلوا متاعنا في صحن البناية ، ثم ساقونا والجنود محيطة بنا الى حجرة مظلمة تنبعث منها الروائح الكريهة وتشعر الاقدام فيها انها تدوس على الاقدار ، وبعد هنيهة نوروا مصباحا كهربائيا بجانبنا فرأينا ما حولنا ، فاذا نحن في مطبخ مهجور يدل العزق الحديدي المنصوب في وسطه والرماد المبعثر على جوانبه على انه لم تشعل به نار منذ سنوات ، وبجانب الثرن بركة فيها مياه راكدة اسنة تتصل بأنبوب ناشف ينتهي بحجرة خشبية قائمة بجانب البركة .

كنا عطاشى ظمآنين فطلبنا ماء، فأحضر لنا الجنود الافرنسيون المكلفين بحراستنا جرة شربنا منها حتى ارتوينا ثم أخذنا نلاحظ اطرافنا وجوانبنا فرأينا أمامنا كوخا جالسا فيه مفوض اسمه الحاج صادق المغربي رئيس القسم العدلي في الشرطة ومعه شرطي آخر فصارا يخاطبانا بطرف عيونهما وكان الجنود الافرنسيون يأتون من حين الى آخر فيطلون علينا .

أما نحن فكنا غير مكترئين بكل ما يجري حولنا وقد شعرنا بالفة صرنا نعد معها ايد الظالمين أحقر من أن تنالنا بسوء ولو توسلت بكل أنواع المكاره ، وصارت قصور الملوك وحظائر الماعز بنظرنا سوية كأسنان المشط ، لاننا سمعنا بنا نفوسنا محلقة في سماء العظمة حتى صرنا مثل الدنيا بعين النسر لا فرق فيها بين الاشباح التي تتراءى منها لانها كلها صغيرة بجانب قبة السماء . اتخذت ظهر الفرن - الوجاق - سريرا فوضعت عليه فراشي ونمت نوما هادئا حتى الصباح ، اذ أيقظني وقع أقدام اخواني ، فقممت وغسلت وجهي

وأفطرت معهم وما كدنا ننتهي من أكلنا حتى جاءنا الضابط الدركي  
ووراءه عدد من الجنود يحملون البنادق وعلى رؤوسها الحراب ،  
فأمرنا أن ننتهي الى المحاكمة في الساعة السادسة والدقيقة الثلاثين .  
سار بنا الى الطابق العلوي حيث انتظرنا في غرفة خاصة نحو نصف  
ساعة اجتمعنا خلالها بجلال بك محامينا فتذكرنا مليا بشؤون  
المحاكمة .





# يَوْمُ الْمَحَاكِمَةِ

طورا وزير وطورا سجين :

وفي نحو السابعة سار بنا الدركيون والجنود المسلحون حوالينا يجرسوننا الى غرفة كبيرة ، شعرت عند رؤيتها بتيار كهربائي يتمشى في بدني فيعثر في منابت شعري لان اندثار معالمها لم يمنعني ان اتذكر انها كانت مكتب المؤتمر السوري يوم دخلتها وزيرا بمحفظتي وبزتي السوداء الطويلة لاصحح فيها بيان وزارتنا قبل تلاوته على النواب الكرام وهانذا بعد مرور سنتين ادخلها سجيناً مكبلاً بالحديد بلباس يكاد السجن يجعله من الاطمار البالية ، وبدلاً من الجنود الواقفين بسلاحهم لتحتيتي ارى جنوداً مقومين حراهم خشية هربي، فسبحان مقلب الامور ومحول الاحوال .

امرنا ان نقعد على مقعد خشبي على صف واحد كنت على راسه ، وبجانبني حسن بك ثم سعيد بك ووراءنا مقعد للمحامين ، وعن يسارنا مقاعد متعددة لارباب الصحف والموظفين ملكيين وعسكريين وعن يميننا خمسة متكآت لاعضاء المحكمة ورئيسها ، وامامنا مقعد للمدعي العام في الديوان العرفي ، ووراء مقاعد الموظفين حجرة اخرى للمستمعين ورائنا العلم الافرنسي منشوراً على الحائط وراء المتكآت وفي وسطه رمز الجمهورية .

وما استقر بنا المقام حتى دخل علينا رجال المحكمة جميعاً فقمنا لهم بحسب الاصول ، وامتلات اكثر المقاعد باصحابها واصطف ورائنا المحامون عنا الاساتذة جلال بك وفارس بك والياس بك وسعيد

ثم أخذ المستمعون يدخلون الى الغرفة الخلفية واحدا بعد واحد ، والجنود المسلحون ببنادقهم وحرابهم وقفوا مكانهم ، وقد عرفت من بين ارباب الصحف مراسل المقطم ، وصاحب جريدة فتى العرب وسورية الجديدة ، ومن المحامين المستمعين عادل بك العظم وعبد السلام حلابة المصري ، ومن الموظفين الافرنسيين الكومندان اربابوس صاحب الوقائع المشهورة والمسيو سيرو مستشار العدلية والمسيو بيجان مستشار الشرطة وكثير ممن لا تحضرني اسماؤهم ، ورأيت من ابناء الوطن يحيى بك حياتي ويوسف أفندي الحاج صاحب مجلة الانوار وسري الاتاسي وغيرهم ، وامتلات غرفة الاستماع الخلفية بالوطنيين لحظت منهم الشيخ توفيق المنيني والسيد عثمان الشرباتي وزكي بك شيخ الارض وندرو أفندي مشاقه ترجمان القنصلية البريطانية والحاج اديب خير واسبر أفندي الداوا الى آخره بحيث تكسرت المقاعد من كثرتهم وأخبرت أن البهو الخارجي كان طافحا بالمستمعين والمنتظرين الذين كانوا على أحر من الجمر ينتظرون نتيجة هذه المحاكمة التي لطخت اسم المدينة الحاضرة .

أما الاحتياطات التي اتخذت خارج الديوان العرفي ، فيكفي أن يقال أن العساكر انتشرت من شارع السنجدار الى نزل فكتوريا وكلهم شاكى السلاح ، والدبابات تفرقت في ساحة الشهداء، ورجال الامن من الشرطيين ودرك ووطنيين وفرنسيين ملأوا المنعطفات والزوايا . وبالرغم من كل هذه الاحتياطات المرهبة كانت الساحة المذكورة تهيج كالبحر المتلاطم بالامواج من كثرة المنتظرين .

### المحاكمة :

في الساعة السابعة والدقيقة ١٥ بدأ الرئيس الكولونيل الى ... آخره ... ( ولأجل الاطلاع على اطراف الدعوى وسير المحاكمة يلزم مراجعة الجرائد ) .

وبعد تبليغنا الحكم ونحن منفردون وليس معنا الا الاستاذ جلال بك وفارس بك، بدت على وجوهنا علائم الاستهزاء والسخرية، وضحك غير واحد منا على هذه العدالة ، التي يمن علينا بها القرن العشرين ، ويبنى عليها الخياليون حصونا من صفائح المعدن لاتلبث امام غمز الهماز في أرجل الطغمة العسكرية أن تشق من كل جانب .

ان القوانين اذا لم يكن لها في قلوب رجالها تلك القوة والحرمة التي اكتسبت بها الشرائع السماوية بردة من التبجيل والتعظيم والتقدس ، تكون آلة بيد هؤلاء الطائشين ليسخرونها لاغراضهم الدنيئة ، ولتستان بين العدالة التي تبغيها القلوب التي لا تخاف الوزارة والصدور بل والملوك أيضا ، امامها غير عارفين حكمها لهم ام عليهم ، وبين دساتير كتبت على ورق ليسخر بها متنطع مسن متنطعي الجندية ، فيجعل اسم المدينة الحاضرة بعمله عارا وشنارا على مرور السنين والاحقاب . وترانا اليوم وقد جربنا الامور بانفسنا وعرفنا تزوير المستعمرين وقد رنا قيمة محاكمهم قدرها ، أقرب الى الاعتقاد بان دريفوس كان بريئا، وكابو كان مظلوما، وبولو اعدم غدرا ، وان المسيو بوانكاره لا غليوم الثاني رب الحرب كان سبب بلاء العالم في أوغسطس سنة ١٩١٤ .

ويل لكم أيها المستهزؤون بالانسان ، المستصفرون بقيمته ، العابثون بما زرعت في قلبه يد القدرة من الشعور الذي اذا تفجر دك الحصون والمعازل . هلا ثبتم الى رشدكم بعدما امتدت ايديكم الاثيمة الى أحرم المحرمات وأقدس المقدسات ، فهتكتها في هذه السنين الاربع؟ أما ارتويتهم من الدماء التي سفكتموها في الشرق والغرب؟ حتى جئتم الى هذه البلاد التي ذاقت من ويلاتكم وبسببكم من المجاعة والبلاء والتعذيب والشنق والقتل ما لا يقع تحت حصر ، لتقضوا على آخر رمق منها باسم الام الرؤوم ، والاب الحنون ؟ . والظاهر ان القدرة التي سخرت محكمة عالية العسكرية ، أيام أحمد جمال

باشا الغدار، لتوقظ الشعور الفاتر في هذه الامة، لم تجد فيها من القوة ما يشفي القليل ، فأرسلت عليها ريحا صرصرًا من أردان قضاة من الجنود المستعمرة فحركت الاموات في قبورهم وتجاوب صداها العالمان القديم والحديث .

جرت السنة المحكمة أن الامم اذا احتاجت الى التبديل ، ان لا تتخلق خلقا جديدا ، ولكن أن تكيف تكييفا جديدا لعوامل تدريجية متنوعة ، ربما كان على رأسها ظلم الظالمين . فهنيئاً لنا ثم هنيئاً اذا بلغ اعتناء القدرة بنا أن أرسلت علينا منذ الاضطرابات الاتحادية حتى اليوم ، جيشا من الظلام لم يترك زاوية من الزوايا المهمة ، بل ان المظالم والمغارم وانواع الضغط في كل ناحية وصقع، بلغت حدا لا يجهله حتى اقرب الناس وأشدهم اتصالا بالمستعمرين، وأحرصهم على تحقيق رغائبهم ، ولو كان في ذلك زوال المجد القومي وانهيال الاوطان .

لم تؤثر فينا قسوة هذا الحكم سوى اثر الاستهزاء والاحتقار، اذ شعرنا بعد رجوعنا الى المطبخ ، بشيء من الراحة التي تحدث عادة بعد البت في المسائل الخطيرة المعلقة . فلما تقدم اليها الطعام في المساء أكلنا بقبالية وانسراح خاطر، وقد بدا اثر من التعجب على وجوه الجنود الافرنسية على ما رؤوا منا من قلة الاكتراث ، فكانوا يطلعون علينا فيتهمسون فيما بينهم ويتخابطون برفع الحواجب ثم يعودون من حيث أتوا .

### العودة الى سجن القلعة :

وفي نحو الساعة العاشرة ليلا ، دخل علينا الرئيس ، فقال استعدوا للخروج من هنا . وبعد هنيهة ركبنا المركبة التي اقلتنا في الليلة الماضية بعدما وضعت في أيدينا الاغلال ، وما كدنا نخرج من باب البناية حتى أحاطت بنا الجنود من جميع الجهات وخرجت علينا الانوار من السيارات المصفحة والدبابات التي كانت تحرس

ساحة الشهداء بجانب المجلس البلدي .

سرنا الى جهة السنجدار ، فسارت الجنود امامنا ووراءنا ، وكانت تتماوج كتماوج الزرع في الحقول عند هبوب الرياح ، ولم نصادف في طريقنا أحدا حتى انتهينا الى القلعة فأعدنا الى حجرتنا ، حيث نمنا نوما هادئا لم ننمه في ليلتنا الماضية .

وفي الصباح دخل علينا السجنان دوس ، وصاح في وجهنا قائلا: الان صرتم من المحكوم عليهم ، ولم تعودوا من الموقوفين ، فالواجب أن تقوموا بتنظيف حجرتكم ، والا فانا ارتب على كل واحد منكم من غير تفريق نوبة يقوم بها ، فدفعنا عنه كلفة العناء لان بعض اخواننا قام حالا وكنس ورش ونظف الحجرة من الاوساخ المتلبدة على راحتها منذ اشهر .

جلسنا بعدما فطرنا ، وأخذ كل واحد منا يبحث في نفسه عن هذه المحاكمة الغريبة ، وعن سر المحاكمين ، وكيف انهم لم يقيدوا اجوبتنا ، بل اکتفوا بالتهمة التي وجهها علينا المدعي العام . ومن ثم أخذنا التعجب من هذا الحكم الذي تجاوز اقصى حد ذهبت اليه التهمة . ولكن الشيء الذي بقي سره محجوبا عنا ، واخذ تفسيره منا كل مأخذ ، هو اختصارهم في تبليغ الحكم علينا وحدنا دون المستمعين ، كما تبين لنا وقتئذ ، كأنهم ارادوا ان يبلغونا شيئا ويبلغوا العالم الخارجي شيئا آخر .

ليس على المستعمرين بمستنكر ان يبتكروا كل انواع الحيل ، لان سورية في نظرهم لا تستحق ان يحترم فيها القانون ، وهذا ما نذر به ( بريطون ) لما حمل على الادارة في هذه البلاد ، وبين كيف احرقت القرى ، واهلكت الحرث والنسل ، ولما اجابه المسيو بوانكاره بقوله: تذكر انك في سورية ولست في فرنسا !! .

## وصول الاخبار من خارج السجن :

قضيينا نهارنا تساورنا الافكار ونحن مقطوعون عن العالم الخارجي انقطاعا تاما ، وفي الليل بالوقت المعين انقطع النور الكهربائي فجأة، فألقيت الينا البطاقة المعلومة ففضناها ، فاذا صديقنا شريف أبو علي : لا تصدقوا ما يشاع من نفيكم بل تقرر ان تسلمكم للسلطة المحلية ، لذلك ستكونون غدا في ادارة السجن الوطني .

سرى عنا هذا الخبر بعض الهموم ، ولكنه لم يشف غليلتنا ، وكنا نود ان نطلع على جريدة من الجرائد المحلية لنرى فيها خبر محاكمتنا والحكم علينا ، ولكن ذلك لم يتيسر لنا ، فذهبنا الى فراشنا اكثر تعباً واكل اطمئنانا من ليلتنا الماضية ، فلم يغمض لنا جفن حتى منتصف الليل ، فنمنا اضطرارا من كثرة الجهد .

وبينا نحن في احلامنا المزعجة ، وكان الوقت قبل الفجر بنحو نصف ساعة ، أو الثالثة بعد منتصف الليل ، اذ سمعنا صليل الحديد ، فما كدت افتح عيني الا والعريف داخل ، فجلست وجلس من بعدي اخواني ونحن نتسائل في انفسنا عن هذه الزيارة المستغربة في مثل ذلك الوقت المشؤوم . فصاح العريف في وجهنا قائلاً بصوت جهوري ونبرة حادة : استعدوا فانكم ستذهبون من هنا بعد نصف ساعة ، ثم قال : اطووا فرشكم واكتبوا اسماء اهلكم لانكم لاتستطيعون ان تأخذوا شيئاً معكم !!! .

## رسالة الى زوجتي ووداع الاهل :

تهمتنا كانت شديدة تتعلق بثورة غايتها قلب الحكومة ، الحكم علينا كان جائراً ومبهما تكتنفه الاسرار ، ولم يسبق له مثيل ، وخصمنا استعماري عنيد لا يراعي الا ولا ذمة ، والوقت هو الوقت

المناسب التام للجر الى المشائق بالامر الذي صدر من فسم العريف واضح لا يحتاج الى التفسير ، فلا غرو أن تظهر علينا علائم الاضطراب ، لان المناجاة بالموت مزعجة على كل حال ، ولا عجب أن يسأل كل منا رفيقه الى الموت ذاهبون ؟ فكان الجواب : نعم من الممكن أو من المرجح أو بلا شك . فهجنا ومجنا هنيهة ، وصرنا نروح ونغدو في الحجرة على غير قصد ، واخيرا طوينا الفرش وأخذ كل منا يكتب ما سمح به الخاطر المضطرب . أما انا فانني قلت لزوجتي : الان دعيت الى الذهاب الى مقر اجهله ، قبلي عني وجنات الاولاد . وربما كتب غيري انه ذهب الى الموت فهو يودع اهله وداعاً لا لقاء بعده ، وكتب غيره انه ذاهب للقاء وجه ربه غير خائف ولا وجل .

لم تمنعني هذه الاضطرابات البادية على كل واحد منا من استعمال التؤدة والتأني لفهم حقيقة الواقع ، اذ انني تقدمت الى العريف فسألته : هل تمنعون عنا ثقل كل شيء حتى قميص النوم؟ فقال : لا اظن ان هنالك ما يمنع من اخذ صغرة فيها القميص الذي اشرت اليه ، فأطمأنت بعض الاطمئنان ، والتفت الى اصحابي فأخبرتهم بما حدث ، ولكن الاضطراب بقي باديا على وجوههم . ثم حدث امر اخر هداً روعنا كثيراً، وهو ان العريف دخل علينا حاملاً بضعة ارغفة مع علب من اللحم ، فقدمها لنا وقال : لا تستطيعون ان تطالبوني بجرايتكم فها قد اعطيتكم اياها . والواقع ان عملة هذا خفف ما علق بنفسي من تلك الافكار المزعجة .

### مغادرة سجن القلعة من جديد :

دخل الدركيون فوضعوا الاغلال في ايدينا ، وحملوا تلك الصرر التي جهزناها مع الجراية ، وخرجوا بنا الى صحن القلعة ، فأطل علينا السجناء من النوافذ والابواب ، فكنت لا تسمع إلا ترديد اسفهم على شبابنا وحسرتهم على اعدامنا ، فمن قائل لا حول ولا قوة

إلا بالله العلي العظيم ، ومن قائل أنا لله وأنا إليه راجعون ، وسمعت  
آخر يقول : وأسفاه على شبابكم يارجال الوطن !! .

حق للسجناء أن ينفذوا أيديهم منا ، لأن الوقت الذي خرجنا  
فيه هو وقت المشانق عادة ، والذين بقيت الأوهام تساورهم منسا  
زادتهم هذه الجمل فزعا . وأتت ضغثا على ابالة . ولكن رؤية  
السيارات عند باب القلعة كانت آخر العلامات التي دلت بطبيعة  
الحال على نفيها ، والخلاص من اتصالنا بعاصمة سورية وتهيمن  
أبناءها ...

## سوقنا الى ساحة الاعدام ؟

### أم الى أين ؟ :

كان الليل هادئا ، والطبيعة نائمة ، والسماء قاتمة تشع من  
خلالها النجوم ، كانها المصابيح بأيدي القدرة لتري الجلادين طريقهم  
في هذا الليل الحالك . وكان صوت المؤذن من الجامع الاموي يرن  
في الفضاء ، فيتراجع صده من الجبال كأنه صوت نعيينا ألسى  
المستفرقين في نومهم التائهين بأحلامهم ، ومن المحقق أن غير واحد  
كان يسائل نفسه اتراني يقدر لي ان أرى هذه السماء في الليلة  
القادمة؟ أم اكون في لحدي يجلطني التراب ويعلو في الآجر وترطب  
قيدي الدموع السخية ؟. كان بانتظارنا على باب القلعة سيارتان  
كبيرتان من صنع ( فيات ) ، وقبل أن نركبها التفت أحد الاخوان  
فوجد دركيا سوريا بجانبه ، فسأله : هل نصبت المشانق لنا في  
ساحة الشهداء ؟ فلم يبد جوابا . ومن ثم سعدت أنا والسيد حسن  
والسيد منير الى السيارة الاولى ، وركب سائر الاخوان بالسيارة  
الثانية ، وركب معنا تسعة من الدركيين بمسدساتهم ، ونحو  
خمسة عشر جنديا نظاميا بأسلحتهم الكاملة . اقلتنا السيارتان  
ونحن ننظر بتلهف الى أي جهة تتجهان بنا ، فلما مالتا بنا الى اليسار  
الى جهة الشارع تحققنا اننا خارجون من بلدتنا ، فقلت لاخواني



تمتعوا بمنظر هذه السماء الصافية ، وهذه الارض الزاهية ،  
وبأشجارها الباسقة ، وحدائقها الفناء ، وأنهارها المتدفقة ، لانه  
لا يعلم الا الله متى يقدر لنا أن نراها مرة ثانية ، وأي رجل يودع  
منظرا من المناظر لآخر مرة يشعر بحزن ، فما بالك بمن يفارق محتده  
ومنشأه ؟ ويترك وراءه أصدقاءه واخوانه وابناءه ؟ الا يرى في كل  
شيء يقع نظره عليه شيئا من الحنو والعاطفة ؟ .

### بين دمر وميسلون وصوفر :

تسلمنا طريق دمر الهامة ، ورأينا سيارة مدرعة تعدو وراءنا  
لتحافظ علينا من هجوم من ظن المستعمرون انهم يحاولون انقاذنا .  
وما زلنا نسير سيرا منتظما حتى بلغنا صحراء الديرماس ، ومنها  
خان ميسلون ، حيث اطللنا من تحت الستائر المستولية علينا لرمق  
قبور الشهداء ، وفي مقدمتهم البطل العربي السيد يوسف العظمة  
وزير الحرية في الحكومة العربية السورية الذي بذل نفسه بطوعه  
واختياره في اليوم الاخير للدفاع عن البلاد التي أنبتته . وقد صعب  
علي في تلك الدقيقة أن أقول من هو احسن حالا نحن الذين نرى اعداء  
الوطن يعبثون في الارض فسادا ويتمتعون برقاب الاهلين ؟ ام هو  
في لحده بعدما قضى واجبه ورأى بنفسه عن أن يحملها مالا طاقة  
لحر أن يحمله ؟ .

وجرى في السيارة وراءنا أن الدركيين الافرنسيين صاروا  
يوهمون اخواننا بالتلميح والاشارة واخراج الاوراق الرسمية من  
جيوبهم ، أنهم يريدون اعدامهم في الساحة المذكورة . واتفق ان  
السيارة في تلك الاثناء وقفت بهم قرب ميسلون ببقعة من الطريق ،  
فكانوا ينظرون الموت على ايديهم كل حين ، والواقع انهم لم يطمئنا  
حتى خلصوا منهم بتاتا ، وما زالتا السيارتان تعدوان بنا على

طريق بيروت ونحن لا ندري الى اين حتى بلغنا شتورا ، حيث تناولنا في الحانوت فطورنا لبنا رائبا وزيتونا وبيضا ، وكانت اليد الواحدة من كل منا مغلولة الى يد رفيقه . ثم استأنفنا السير حتى نفق صوفر ، وهناك عادت بنا الى طريق ينحني الى جهة الجنوب ، بعدما نزل الضابط الموكل امر حراستنا اليه ، فسأل احد الفتيان سؤال المستنير المستفسر ، مما دلنا على أنه ضل الطريق .

عرجت بنا السيارتان على طريق نضر يلتوي بين الاودية الزمردية ، فمن دور منفردة على الطراز الحديث ، مبنية على القمم ، الى اكواخ متقاربة على الحوانيت ، الى عيون ثراء ومروج خضراء ، وكاني ببعض تلك المناظر قد انطبع رسمها في ذاكرتي وان فاتني انها هي « عين زحلتا » التي زرتها من نحو عشرين سنة ، والقاع الذي سبحت فيه مع اخوان الصفاء وخلان الوفاء . عجبا عجبا هل قدر المستعمرون ان يبنوننا الى لبنان ، فيضعونا في بيوته المهجورة بحراسة هؤلاء الجنود ؟ وبذلك يطبقون علينا نظام الاعتقال ، أم هم ذاهبون بنا الى مقر ابعد ؟ ، وعلى كل حال زال من خاطري احتمال السفر الى ارواد او ( كورسيك ) .

### الوصول الى بيت الدين :

وبينما كانت هذه الهواجس تدور في صدري ، اذ ذكرني الاخ السيد حسن الحكيم انه قرأ منذ شهرين أن حكومة الانتداب قررت جعل بيت الدين معتقلا عاما ، وأنا في الغد ذاهبون الى سجنها ، فاستغربت كلامه ، ولكن هكذا كان ، لاننسي بعد هنيهة سمعت الضابط يسأل أحد الصبيان كم بقي امامنا للوصول الى بيت الدين ؟ فأجاب : قليلا . وبعد هنيهة رأينا ميلا منصوبا ، كتب عليه مفرق الطرق ، يدل من الجانب الواحد على الجهة المؤدية الى بيت الدين ،

وأن المسافة اليها كيلو متران ، فأتجهنا حتى اطلعنا على القرية ،  
وأول ما بدا لنا منها السجن ، دلت عليه الشبايك الصغيرة العالية ،  
والبناء الضخم الصنعة ، ولم تمنعنا الحوادث التي مرت بنا سراما  
من لمح تلك المناظر الرائقة التي تجلب الانظار . والحق يقال انسي  
والاخوان الذين معي في السيارة كنا مستبشرين ، يغلب علينا  
التفاؤل من هذه السفارة ، خصوصا بعد ما زال من النفوس كل  
خوف من النفي الى البلاد السحيقة .



## السجن في قلعة بيت الدين

### دخول السجن وتسجيل الاسماء والتفتيش :

نزلنا امام ساحة السجن فأدخلنا الدركيون الى حجرة المدير ، وكان رجلا مدنيا في نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، اسمه المسيو ستيفن ، تدل ملامحه على انه عربي تفرنج أو افرنجي تعرب ، وترجح عندنا النظر الثاني لنحفته ورشاقتة وظهور الانس على وجهه ، بخلاف الثقالة التي تبدو على العربي المتفرنج عادة ، فسجل اسماءنا وأحكامنا من الاوراق التي يحملها خفراؤنا . ومن هنالك ذهبنا الى مدخل السجن حيث لفتنا الى جهة اليسار ، فدخلنا في دهليز طويل ، وقف لنا في آخره الضابط الافرنسي السجان والخفراء ، فأخذوا في تفتيشنا تفتيشا دقيقا ، فلم يتركوا لنا شيئا له قيمة ، حيث اخذوا ساعاتنا واقلامنا فضلا عن دراهمنا ، وبلغ الامر بهم أنهم استخلعوا احذيتنا فنقبوها خشية ان نتخذها مطامر . وبعد ذلك ودعنا الضابط الافرنسي وقال لنا ان المدير مسؤول عنا واننا اذا كانت لنا حاجة علينا ان نطلبها منه وهو كفيل بقضائها .

ثم فتح لنا الباب فدخلنا حجرة واسعة ذات نافذة كبيرة تطل على حديقة نضرة والى يسار الباب جرن نصب فيه عين سلسبيل تأخذ بمجامع القلوب . أمر مدير السجن لنا بالحصر ففرشت على

الارض ، ومن ثم اعتذر لنا أنه ليس عنده غطاء ولا وطاء ، وأن القرية صغيرة لا يوجد فيها من ذلك شيء ، ولكن يستعمل جهده عليه يستطيع أن يستعير لنا من المسجونين شيئاً ننام عليه ، ثم ودعنا وأقل الباب وأنصرف .

أما نحن فإننا خلعنا البستنا الرسمية ولبسنا قمصان النوم وغسلنا وجوهنا ورؤوسنا ، ثم صعنا عتبة النافذة وكانت عريضة فقعنا عليها وتمتعنا بمنظر لا أذكر أنني رأيت في حياتي أجمل منه ، وربما زاد في رونقه الحبس الطويل الذي قضيناه ، فأول ما تطل عليه العين منه حديقة انيقة فيها من أنواع الأشجار ما يسحر الأنظار ، وأجملها دوحة كبيرة رصعت بزهر أحمر بلون الجنار وصورة الاقداح ، فيها عيون البراعم الخضراء الزمردية كأنها التطريز على الديباج الأرجواني ، وكان شكلها كالكبة ، ولها فرع منها بجانبها كأنه شرفة تطل على الوادي المنحدر من أسفلها .

وعلى القرب بيت مبني على الطراز الحديث يكاد سطحه الأحمر يلمس السماء، ويدل على ان بانيه من الذين اثروا في البلاد وعادوا بثروتهم يدفنوها على قمم الجبال ويتمتعوا بمناظر هذا الوطن العزيز .

مالت الشمس الى الغروب فأرسلت أشعتها علينا ، فشعرنا في انفسنا بنمو وبسطة ، كأن يد السجان التي حاولت كل تلك المدة ان تجتث اصول الحياة منا لسد المنافذ عنا ، هدتنا الى تقدير قيمة المواهب الطبيعية المحيطة بنا حق قدرها . فتللك الشمس المحرقة التي كنا نتجنب أشعتها بالمظلات أصبحت عروش المشرق تتسابق الى لثم محياها ، والخضرة المتبدلة صارت عزيزة ولو نبتت على اصول الجدران وزوايا الاعتاب ، والهواء الطلق الذي ملأ السهل والجبل هو النشوة التي تسمو بالنفس من مهابط الخمول الى معارج النشاط ، حقاً ان الصحة تاج على رؤوس الاصحاء لا

يراه الا المرضى ، وان المنح الطبيعية منهل عذب لا يظماً الى وروده  
الا الصيادون .

### كرم السجناء السابقين :

التهنا النافذة حيناً عن الالتفات الى مضجعنا ولكن الفسق  
حول وجهنا فأخذنا نفكر في أمرنا ، وهل منا من يستطيع النوم على  
التفريشة ؟ حصر بالية من تحتها عدسة قاتمة . بيد أن السجناء  
لم يشعروا بأمر الا وتسبقوا الى اسداء يد المساعدة لنا ، وفي  
مقدمتهم فوزي ييضون الذي اهتمته السلطة باحراق الاعتدة  
الحريرية ، فحكمت عليه بالسجن المؤبد منذ سنتين او اكثر ، هذا  
قدم فراشا وذاك مخدة وآخر ركوة أو طباخا ، الى أن حصلنا على  
حاجاتنا الضرورية ، وكان معنا بقية باقية من خبز ولحم محفوظ ،  
فأكلنا شيئاً منها وشربنا الشاي ، ومن ثم بسطنا الفرش الثلاثة  
التي أخذناها من السجناء بالعرض ، ونمنا عليها اثنين اثنين نوما  
هنيئاً هادئاً ما نمنا مثله منذ ليل .

### طعام السجن :

وفي اليوم الثاني دخل علنا المسيو ستيفن ومعه رجل عجوز  
من بني البستاني اسمه الخواجة سليمان كله أنس ولطف ، فذكر  
لنا انه المتعهد واننا اذا احتجنا الى شيء من الاكل والشرب  
والمتاع فهو مسؤول عن اعداده، فحضرنا قائمة لطعام الغذاء والعشاء،  
فلم نجد من حاجاتنا الا الزيتون والبيض واللبن الرائب المقطوع  
( لبنة ) مع الخبز الذي يتناوله السجناء عادة. أكلنا وشربنا من ذلك  
الماء القراح الذي يحيي القلوب ، ثم ثقيلنا ، وقرب العصر قمنا الى  
شباكنا فقعدها نتمتع من تلك المناظر ونتجاذب أطراف الحديث ،  
ويجمل بنا أن تزيد في تفصيل حجرتنا التي عددناها كالجنة بالنسبة  
الى حجرة قلعة دمشق ،

حجرتنا طولها نحو تسعة أمتار وعرضها نحو الخمسة، وسقفها عقد من الحجر المرصوص وجدرانها متينة من الحجر الصلب ، محكمة البناء لا تكاد تدخل فيها المسامير الدقيقة ، ومقامتها متر ونصف ، ولها باب من الحديد مربوط بالسلاسل والاقفال ، وله نافذة صغيرة مشبكة بالحديد لتناول الاشياء . أما النافذة التي كنا نجلس على عتبها فهي كبيرة ، يبلغ طولها نحو قائمة ونصف ، ومصلبة بقضبان الحديد الثخينة ، والجرن بجانب الباب وفيه مصب الماء ، ومن ورائه محل الراحة ، فيرى القارىء من ذلك أن السجين يستطيع البقاء في هذه الحجرة ما شاء السجان أن يبقى .

### راحتنا في بيت الدين :

علمنا أن مؤسس السجن وبانيه الامير بشير الشهابي ، وأن الذي أصلحه وجعله على هذا الطراز الحديث ، هو رستم باشا المصلح التليد ، وليت الحكومة التركية التي بقيت في البلاد مئات السنين تلفتت الى دمشق عاصمة البلاد السورية ، فأنقذتها من تلك القلعة التي يعد سجنها عارا وشنارا على المدينة الحاضرة ولكن أبت أن تتنزل فتأخذ درسا في الحضارة من أمراء سورية العرب ووزرائها الارمن !!! انني لم ادخل صحن هذا السجن ولكن رمقته وانا داخل الى حجرتي ، فوجدته أشبه شيء بساحات المساجد الكبرى في سورية ومصر ، وأبواب حجره مظلة على الصحن مباشرة ، وهي عرضة للشمس معظم النهار، ولا أبالغ اذا قلت أن الاثر الذي تركه هو أثر مصحح لا سجن ، خصوصا وان أكلنا فيه ازداد عن الشام أضعافا مضاعفة، وصحتنا تقدمت تقدا محسوسا ، ولولا التشديد علينا بالبقاء داخل الحجرة معظم المدة التي بقينا فيها في بيت الدين، ولولا ضيق قائمة الطعام واختصارها على الاصناف المتقدمة ، ما عدا قليلا من اللحم وشيئا من الخضرة والفاكهة في بعض أيام الاسبوع ، ولولا أننا المؤلف من ثلاثة فرش من السجناء وفرشتين بالاجرة من أحد الجنود الدروز ، لقلنا أننا في مصايف سويسرة .

عاد اليينا المدير المسيو ستيفن وقت العصر ، ومعه قائد دبرك السجن واسمه السيد عبدو والسجان السيد سليمان . . . وبعض المحافظين ، فوجدنا من الجميع ملاطفة وأنسا حتى أن السجان لما أخبرناه عن شدة اشتياقنا الى قراءة الجرائد والاطلاع على مجريات الامور ، أشار اليينا بطرفه أنه سيلبي الطلب ، ثم سألنا هل نحن بحاجة الى شيء آخر ؟ فقلنا : الى الخروج تحت القبة الزرقاء وتعريض أجسامنا الى الشمس فقال : انتظروا الى أن نأخذ التعليمات بهذا الشأن ثم اقفلوا علينا الباب وخرجوا .

لا يقل التضييق علينا في أمر الاختلاط هنا عن دمشق الشام، بل بقينا في بيت الدين الى آخر ايامنا ممنوعا عنا مقابلة أحد او الاجتماع بالناس . وقد وجد السجانون فيما بعد أن يكلفوا السيد عبدو بتناول القائمة منا واعطائنا حاجتنا من النافذة من غير فتح الباب والولوج منه . ومما لفت أنظارنا وعجبنا منه كل العجب ولم نفسره تفسيرا معقولا الا بعد مرور أيام ، ان المسيو ستيفن جاءنا في ضحى اليوم الثاني وهو يوم السبت ووقف بالنافذة يحدثنا فقال : ان أصله من الشام من أسرة رومانية وأن أخاه هناك اسمه أريكو ، ومن ثم انتقل برشاقة الى حديث آخر ، فقال : الحكم عليكم هو الاعتقال ، وقانون الاعتقال عندنا يسمح للسجين بالسكن في القرية في البيت الذي يختاره ، على شرط أن يأتي كل يوم في الصباح ليسجل اسمه ، وذلك بعد تقديم الضمانة المالية فقولوا : هل أنتم أغنياء ؟ وكم باستطاعتكم أن تقدموا في هذا الباب ؟ فقلنا له : ألوف الجنيهات ، من العشرة الى العشرين فالثلاثين . فهز رأسه وقال : طيب ، ثم ودعنا وانصرف .

### **خلاف بين المدير والسجان على معاملتنا :**

وعلمنا في المساء من تغير السجان أن اختلافا حدث بين المدير وبين السيد سليمان ، يتعلق بأمر التضييق علينا ، فكان هذا من



طالبني التساهل والمعاملة الحسنة ، وذلك من القائلين بالتشديد الى ان تصل التعليمات النهائية . والظاهر ان الاختلاف أدى الى المشاتمة والملاكمة ، مما حمل الحكومة على كف يد السيد سليمان وأخذه تحت المحاكمة . ومن دواعي الاستغراب ان لا يكون لنا الا يومين فقط في السجن ، وقد أحدثنا في ادارته هذا الانقلاب السريع فقسمنا موظفيه الى فريقين ، فريق يقول بالاخذ بناصرنا في الحال ، وفريق يؤجل ذلك ويعلقه على الاوامر . انها الوطنية شعرت بضيق فتريد أن تتنفس ، وحين وجدت غذاءها انسابت بطبيعتها نحوه أرادت أو لم ترد . وماذا يكون شأن سجن نصف موظفيه وثلاثة أرباع جنوده وحراسه يعطفون على قضية حبسنا من أصلها ؟ وكنا في اظهر مظاهرها ، فترى الحارس منهم اذا اعتكر الليل وانقطع الطريق يتغنى بذكر الوطن ويرى انقاذه من يد الاجنبي الدخيل فرضا . ولا يسعني ان ابوح بكل ما شاهدناه في هذا الامر من ضروب المساعدة والانعطف ، بل حسبي ان أقول ان الشعور في اللبناني الصميمي الاتجاه نحو الحرية والخلص من الاستعمار ، رغم أنف الاجراء الذين يشوهون سمعة بلادهم فيظفرونها بمظهر الذل والاستسلام .

### زيارة مفتش سجون لبنان :

زارنا في السجن عسارى السبت السيد بشارة البويري ، مفتش سجون لبنان الكبير ، فاطهر لنا كل عطف ولطف وقال لنا : ان البعثة حائرة في أمرنا ، وهي تنتظر التعليمات المتعلقة بنا من باريز ، واننا على كل حال ضيوف مؤقتون في بيت الدين ، وان الفكرة عند الافرنسيين انفسهم ان لا يطول امر السجناء اكثر من ثمانية أو تسعة أشهر . ولم يروا شيئا في اجوبتنا امام المحكمة العسكرية ما نواخذ عليه ، بل بالعكس قدروها كما قدرها كل من اطلع عليها حتى من الاجانب حق قدرها . فسألناه عن برقية كتبناها

في الصباح هل أرسلت ؟ فلم يعطنا جوابا شافيا ، بل نصحنا أن نعتدل قليلا في كتابتنا ، وهذه صورة البرقية المذكورة :

## برقية احتجاج :

دمشق

سعادة مندوب المفوض السامي

« أوقفتمونا وسفرتمونا على حين غرة ومن غير استعداد لمقومات الحياة، ومنعتمونا من الاختلاط واستنشاق الهواء في الخلاء، وما خصصوا لنا ما يقوم بأودنا . ألا ترون هذه المعاملة جائرة في القرن العشرين؟ »

عن المعتقلين السبعة

الشهيندر

ثم أمليت على السيد منير البرقية الآتية :

السيد زكي شيخ الارض ،

بلغوا أهالي المعتقلين اننا جميعا في شقاء ، خالين من الدراهم والملابس ومن مخصصات تكفل عيشنا .

ولذلك منير

فوعدنا خيرا ثم أخذ يعتذر لنا عن قصوره معنا وانه يود لو سمحت له الاحوال أن يخدمنا بما يستطيع ، ثم ودعنا وانصرف غير مخف اعجابه بحركتنا ووطنيتنا .

## فرار عدد من السجناء :

وحدث في الليلة الثانية وهي ليلة الاثنين أمر ذو بال ، لا بد أن يكون حمل المستعمرين على الشك في أمرنا والخوف من حركاتنا وسكناتنا ، وهو أن احد عشر سجيننا من ذوي الاحكام المتروحة بين

العشر سنين الى المؤبد ، ثقبوا العقد الحجري في السقف ، وفروا في نحو الساعة العاشرة ، وكان بينهم فوزي بيضون المار ذكره ، وأحمد الحبال ، وفائق الشرطي ، ووديع كرم من بيروت . وعمر اللوزي قيل الغزاوي وغيرهم ممن لم نعر على أسمائهم .

فبينما كنا سارحين في أحلامنا اذ أيقظنا ستيفن في الساعة الثالثة صباحا ، وأوهمنا أنه يريد أن يسألنا هل لنا غرض في بيروت ليقتضيه لنا ، لانه مسافر في ذلك الصباح اليها ، فشكرنا له اعتناؤه ، بيد أننا استفربنا هذا السفر الفجائي ، فسألناه عن السبب ، فقص لنا ما جرى ، فظننا انه انما أيقظنا ليطمئن ، هل نحن في حجرتنا أم فررنا مع من فروا . والواقع اننا لما اطلعنا في اليوم الثاني على جلية الامر لم نبرء ساحته وساحة كثيرين غيره من الاشتراك في هذا العمل الغريب ، اذ كيف يعقل أن يتمكن احد عشر سجيناً من نقب عقد من الحجر تتجاوز صفاقته الذراعين ، فيفرون أمام الجند الذين لا يفارقون السطح ، ومن بين يدي الخفراء الذين يطولون على السجناء من النوافذ كل ساعة ، وعلى كل حال كانت نتيجة المحاكمة فيما بعد عزلة مع ثلاثة من السجنائين .

اننا على مثل اليقين أنه لو قدر لنا أن يبقى مديراً في أيامنا ، وأردنا أن نحذو حذو هؤلاء لما تعذر علينا ، وما سؤاله عن ماليتنا، والضمانة التي نستطيع أن نقدمها الا مقدمة لذلك .

أما ما جرى للسجناء المذكورين ، فان الإدراك التقطهم واحدا فواحدا من القرى المجاورة ، وآخرهم كان أحمد الحبال ، فانه نزل الى بيروت وهدد القاضي الذي حكم عليه في بيته ، وفي اليوم الثاني رآه شرطي في الطريق فأمره أن يقف فلم يلتفت الى كلامه مما حمله على اطلاق النار عليه فأرداه صريعا يتضرج بدمائه .

### تغير ادارة السجن اثر ذلك

سبب هذا الهرب انقلابا عظيما في السجن واضطرابا في ادارته،

لانه حصل عقب مجيئنا ، فأرسلت البعثة حالا ثلاثين عريفا ودركيين، فسلمتهم ادارة السجن وكفت يد المسيو ستيفن وسلمت مفاتيح السجن لبيروتي متمصر أو لمصري متبirt اسمه الحاج محمد . تظاهر بالشدة والتقطيب في الايام الاولى ، ولكنه عدل عن هذه الخطة الجافية في الايام الاخيرة ، وبقي علينا سجان مسلم من لبنان اسمه مصطفى حمدان ، تشكى اخواني من معاملته حق الشكاية ، والواقع أنه من أولئك الموظفين الذين يربطهم جيبهم برباط وثيق فيعجزون عن التقصير بالواجب القانوني فضلا عن اسداء المعونة .

بلغ عدد الوطنيين الدركيين لخفارة السجن نحو الخمسة عشر مع قائدهم ، ولكن هذا العدد ازداد ضعفين ثم ضعفا ثالثا ، وهكذا أصبح العدد وافيا لضرب نطاق من حوالينا بمنع اتصالنا بطيور السماء . هذا من الوجهة النظرية ، وأما الواقع فاننا أيضا خرقتنا هذا الحاجز بدعوتنا اولا ، وبمالنا ثانيا ، كما يرى القارئ في القريب العاجل .

وفي يوم الثلاثاء عاد السيد بشارة البويري للبحث عن الحادثة المهمة ومعه السيد جورج زويني المفتش المدني في دولة لبنان الكبير ، فدخلنا علينا . وأخبرانا أن الجنرال قد عاد من رحلته الى باريس في اليوم السابق وأن أول قضية عرضت عليه قضيتنا . وأعاد السيد بشارة ما قاله في اليوم السابق ، ان بقاءنا في سجن بيت الدين مؤقت على التحقيق ، ولكن لا يدري الى أين يكون مصيرنا . فقال السيد جورج ان البعثة سألت باريز في أمركم ، وهي تنتظر جوابها ، ولاندرى هل يرسلوكم الى قلعة محصنة في فرنسا مثل (فردون) او (الفوج) مثلا ، او الى غيرهما . ولما ذكرت جزيرة ارواد اجاب جوابا مبهما ، ثم في النهاية قال : الان وقد عاد الجنرال فإنه سيبت في أمركم مع الحكومة الجمهورية . وقد حثنا السيد بشارة على كتابة شيء الى الجنرال ، نذكر له فيه شيئا من جور هذه المعاملة ، فأحجمنا في اول الامر ، ولكننا رأينا من المصلحة بعد حين أن نكتب الكتاب الاتي

لتسجل به على فخامته وعلى المستعمرين بعبارة رقيقة ما أمكن ،  
هذه المعاملة القاسية التي لو صدرت بالقرون الوسطى لعُدت  
مستغربة ، خصوصا وقد فهمنا من السيد بشارة أن سفرنا قد  
تقرر ، وأنه قد يباغتنا الافرنسيون كما في المرة الماضية فيحملوننا  
من غير أن يكون معنا شيء من لوازمنا الى منفى ربما يكون من وراء  
البحار ، وشأن هذه الامة مع خصومها بالقسوة مشهور جعلها مثال  
الشراسة في نظر العالم المتمدن ، والخلاصة أننا بعد المذاكرة قررنا  
جميعا كتابة ما يأتي :

### رسالة الى المندوب السامي الفرنسي :

فخامة المندوب السامي في سورية ولبنان المعظم .

المعروض لفخامتكم أننا بلغنا مفادرة دمشق في الساعة الثالثة  
من صباح عشرين نيسان سنة ١٩٢٢ على حين غرة ، فلم يكن معنا  
من اللوازم الضرورية من حال اللباس وادوات النوم ما يكفل لنا  
شيئا من راحتنا ، وقد جيء بنا الى سجن بيت الدين في ( لبنان ) ،  
بعد أن بقينا في قلعة دمشق أسبوعين كاملين لم نر فيهما الشمس ،  
ولم نستنشق الهواء الطلق ، ولم يسمح لنا بمقابلة أهلنا . ونحن  
اليوم في سجن بيت الدين على مثل تلك الحالة ، بل أشد ، وقد  
انتهزنا فرصة تشريفكم بالسلامة ، فكتبنا هذه العريضة راجين فيها  
من فخامتكم وأنتم أعلم الناس بحقيقة ما نسب اليانا نعامل بمثل  
ما يعامل به المعتقلون السياسيون أمثالنا ، وأن تسمحوا لنا  
بمخابرة أهلنا بعدما تتكرمون علينا بتعليمات فخامتكم النهائية بما  
يلزمنا من الحاجات الضرورية وعلى كل فالامر لفخامتكم سيدي ،

في ٢٤ نيسان سنة ١٩٢٢ .

عن المعتقلين السبعة  
الشهبندر

وأنبعنا هذا الكتاب الى الجنرال بكتاب آخر الى نفس المفتش ليكون لديه حجة لاجل مساعدتنا والسؤال من البعثة عن أمرنا وهذا نصه :

### رسالة الى مفتش السجون :

حضرة الفاضل مفتش السجون في لبنان المحترم ،  
لنا الشرف ان نعلم حضرتكم انه جيء بنا من دمشق على حين غرة من غير ان يسمح لنا باتخاذ الاحتياطات الكافلة لراحتنا ، وقد مضى علينا ستة ايام في سجن بيت الدين ونحن بحالة سيئة جدا ، بالنظر لفقد الوسائط الصحية من هواء طلق وغذاء صالح ونوم مريح ، فاذا أضفنا فقد الالبسة والمال معنا ، قدرتم ما نتحمل من العناء والشدة ، لذلك أتينا بعريضتنا وأجبن من حضرتكم ان تزيلوا عنا الاسباب المضرة بصحتنا وتأذنوا لنا بمخابرة أهلنا بالشؤون الخصوصية المتعلقة بنا . واذا كان في النية نقلنا من بيت الدين ان تعلمونا قبل ذلك بعشرة ايام على الاقل ، لنستجلب من بيوتنا ما نحتاج اليه من الضروريات وتفضلوا في الختام بقبول مزيد احترامنا سيدي ،

### عن المعتقلين السبعة . الشهنندر

ثم لما ادرك المفتش قرب نفاذ المال في ايدينا ، قال انه مستعد ان يوصل لنا بصورة شخصية أي رسالة تتعلق بهذا الموضوع لأي أحد من أصحابنا في بيروت . فخشينا ان يكون في الامر دسياسة يراد بها معرفة من نعتد عليه في بيروت ، فانتخبنا من اصحابنا التجار من لا تحوم حولهم التهم فكتبنا له ما يأتي :

### رسالة الى صديق :

حضرة الاخ الفاضل . . . المحترم .  
سلاما واحتراما وبعد . فقد بلغنا مغادرة دمشق على حين

غرة ولم يكن في جيبنا نحن ورفقاؤنا من الدراهم ما يكفينا اسبوعا واحدا . وحتى الان لم يتسنى لنا مخابرة اهلنا لنطلب منهم ما نحتاج اليه من الدراهم والحاجيات ، وقد رغبتنا ان نكتب لحضرتكم راجين منكم ان تتداركوا لنا ولرفقائنا ١٥ ورقة سورية لنسد بها عوزنا واننا ننتظر جوابكم بما يمكنكم من السرعة وتفضلوا بالختم فائق احترامنا .

### توفيق الحلبي

لم نأخذ جوابا على هذه الرسالة ، ولا ندري ما فعل الله بها وليس بالمستبعد ابدا أن تكون دسياسة من اساسها ، فنكون قد دفعنا كيد الكائدين وان قضينا بضعة ايام اخرى في ضيق وعار . عاد المفتشان من حيث اتيا ونحن بقينا على الحال التي كنا عليها من الطعام والملبس . وربما لذ للقارئ أن يطلع على فصل من فصول هذه الحياة في سجن بيت الدين فنقول :

### كيف أمضينا الايام التالية :

مللنا اللبن والزيتون والبيض والحلاوة فاشتاقت نفوسنا الى الطعام المطبوخ، فاشترينا قدرا وبعثنا الى سليمان البستاني المتعهد فاشترى فولاً وأرزاً ولحماً ثم أنبرى من بيننا احسن الطهاة فينا ، فطبخوا لنا أرزاً بالفول على الطريقة الدمشقية المعروفة . وبينما كنا نحمي السمن نشفت الطبخة على النار فسقاها من يجهل صنائع الاواني الفخار فانفلقت البرنية ، ولولا رحمة ربك واسراع السيد الحكيم الى صفيحة كاز فارغة التي كفتنا فيها الطعام لذهبت اتعابنا ادراج الرياح . رفعنا الصفيحة على النار واتممنا الطبخ ، ولا انكر اننا اكلنا حتى امتلأنا فكنا نزدرد الطعام كالبدو ان بأيدينا او بملاعق الخشب . وحسبنا اثر الكاز من الارز من الفلافل والمقبلات . هذا مثال من الطبخ في سجننا على منواله سارت مدة اقامتنا ، وان كنا تعلمنا بعد دروس عدة أن لا يصب الماء البارد على الوعاء الفخار

السخن الناشف ، ثم أخذنا نوع المآكل ، فالمفركات والتوابل  
 والمصقعات وحساء العدس كانت ضمن قائمتنا . وأما منامتنا فقد  
 تقدم شيء عنها ، وأريد هنا فأقول أن الفرش في لبنان ضيقة بعرض  
 النائم الا قليلا ، واللحف خفيفة وعريضة ليلتحفها المرء من جميع  
 جهاته فتدفع عنه منافذ الهواء البارد الى جسمه . لذلك كانت  
 اللحف فوق حاجتنا ، أما الفرش فمددناها بالعرض لنسند عليها  
 نصفنا الاعلى ، واما الباقي من جسمنا فقد بقي مدلى على الارض  
 الجرداء في الليل، وكانت الوسائد مسألة المسائل لانها صغيرة ويابسة  
 أشبه بما يسمى بالحديديات . بيد أننا لم نعدم الحيلة ، ومن وطد  
 النفس مثلنا على أفتراش الرمل ونحاة الأجر في سبيل الوطن المقدس  
 لا يستنكف بوجه من الوجوه أن يستوسد الصرر ويستخدم الاحذية  
 كما فعلنا ، ولعمري انها لتذكريات مؤلمة ولكنها مفرحة في آن واحد  
 فأبي غضاضة على الرجل الشريف أن يذوق أنواع الاذى والاسى في  
 سبيل الهدف السامي الذي وضعه نصب عينيه ؟ وهذا محمد بن  
 عبد الله مثل جبروت الوثنية ومزعزع عروش رومة وفارس ورافع  
 لواء التجدد على المشارق والمغرب ، ذاق في سبيل الإصلاح السذي  
 ينشده من الاضطهاد والتعذيب وهجرة الاوطان ، ما ليس يخفى على  
 أحد . ومن تلك المخازي التي اقدم عليها اهل الجاهلية دفاعا عن  
 جهلهم ومنعا لنفوذ النور الى بصيرتهم ، ما أشرنا اليه من وضع  
 الكرش الطافح على أشرف اعضائه وعلى رأسه حيث المجد والعلاء  
 والشمم والاخلاص والثبات والصدق والمؤاساة والايثار ورؤية الحق  
 الناصع .

### التحليل للاتصال بالخارج وشراء الجرائد :

ان اعظم اسباب الوحشة في السجن انقطاع المرء عن العالم  
 الخارجي ولا سيما من كان مثلنا تتعلق اسباب سجنه على قضايا  
 عامة تتناول مجموع الامة ، واذا تيسر خرق ذلك الحاجز في دمشق  
 فذلك بفضل اخواننا ومن عرفناهم ، واما في بيت الدين فلم نرسخ



قدمنا بعد لنؤسس لحم التعارف . ولكن لم يمض الا قليل حتى  
قيض الله لنا من الرجال من دعوانه بدرا ، فأظهر استعدادا لخدمتنا  
والقيام بما تصبوا اليه نفوسنا ، فكان اول طلب طلبناه ان يوافينا  
باخبار الخارج ، ويثما يذهب بنفسه الى دير القمر ويشترى لنا  
الجريدة الموافقة .

كان سبيل الكلام بيننا اننا كنا ننتظر غفلة سائر الحراس  
وهجعة النائمين فنتهامس من النافذة او نتبادل الرسائل ، فكل  
رسالة تأتينا منه كانت على قلوبنا احلى من رسالة فيها موعد اللقاء  
بين الاحبة . فكنا اذا سمعنا حفيفا تشتد عزائمنا وتنتفح عيوننا  
فنأخذ نرمق الارض ونتحفز كما يتحفز الاسد عند رؤية الفريسة،  
حتى اذا وقفنا على الرسالة الملقاة تأهبنا الى التقاطها ولو زحفا على  
البطن ، فذهبنا بها الى الزاوية المنحرفة عن الانظار حيث نقرأها  
على شعاع المصباح الضئيل همسا . وتفاهمنا كان بالإشارة والغمز .  
وقد تمر الساعات الطوال على بعضنا كالسيد منير وهو واقف في  
النافذة ، في الهزيع الثاني من الليل يترصد دورة البدر من وراء  
الفيوم المتلبدة على دير القمر . واول جريدة تناولناها قرانا فيها  
شبه بيان من الكومندان كاترو، منقول على الارجح عن جريدة المقطم .  
وقد حصل عليه الخواجة مزراحي مكاتب تلك الجريدة ، وفيها  
يدعي كاترو وتدعي البعثة ، اذا شئت ، اننا لا نمثل الرأي العام  
لان اغلاق المدينة جرى خطأ بتشويق بعض المفرضين ، وكان في  
الغالب خوفا من السلب والنهب ، وان سواد الناس واعيان البلاد  
هم من طلاب الانتداب الفرنسي، الى اخر ما هنالك من السفطات  
المضحكة التي تجعلها سخرية في اعين الناس . وذكر في نفس الجريدة  
وزعمت البعثة ان عملنا بسيط لا يؤبه له ، لولا ان ثبت علينا ان  
الاعمال التي حدثت في المدينة اثناء سجننا هي من اغرائنا وتحريضنا .  
منطق بديع وتنسيق افكار ساطع . مدينة عظيمة اغلقناها  
ومع ذلك يدعي المستعمرون اننا لا نمثل رأبها؟ وقرانا فيها ان اللورد

كرزن ادعى ان سواد الشعب المصري من فلاحين وموظفين هم من انصار الحماية البريطانية ، كان جواب الاحزاب التعطيل ثلاثة ايام متواليات في جميع دوائر الحكومة المصرية . وقرأنا اعلانا كان كالحجر في فم المستعمرين ، وهو تكذيب من حقي العظم حاكم دولة دمشق ، للذين اشاعوا عنه انه زاد الدرك والشرطة لحراسته عند نزوله لصلاة الجمعة خوفا من اغتيال الوطنيين له .

زلق لسان دولته فقال : ان تلك الزيادة اقتضاها الاضراب العام الشامل للبلدة منذ اسبوع .

هذا اول خبر التقطناه عن دمشق منذ غادرناها ، وهو خبر كما يرى القارئ ذو شأن عظيم ، يدل على ان المظالم ( النمرودية ) عجزت بكل وسائلها القاهرة ، عن اضعاف صوت الوطنية . لست شعري ماذا يقول كاترو بعد ذلك ؟ وهل مصر على رايه أن يرجع الى العصر الروماني فيدعي ان شياطيننا وشياطين اخواننا في السجن تمثلت لاهل الوطن ملائكة فساقتهم الى اغلاق حوانيتهم والاضراب العام عن العمل ؟ . نعم ان الذي تمثل لهم لهي الروح التي تمثلت لكل من ذاق طعم الشرف ، وعرف معنى عزة النفس ، بل الشبح الذي انذرهم بالويل الذي حل بهم في عصر الانتداب الباهر .

وفي اليوم الثاني شكرنا لبدر معروفه وقدمنا له شيئا من الدراهم ، فكان جوابه لنا : ان المرء اما ان يعمل للشرف واما ان يعمل للمال . وهو لا يريد أبدا الا ان يعمل للوطن المقدس فزاد مقامه رفعة في نظرنا . ( ١ )

---

وقف المرحوم الدكتور الشهبندر عند هذا الحد من الكتابة دون أن يتم هذا الموضوع الشيق . وبذلك ينتهي القسم الاول من مذكراته .

الناشر



# القسم الثاني

مذكرات الدكتور عبد الرحمن الشهبندر

عن

الثورة السورية: عوامها، وقائعها، نتائجها



قال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر :

**تمهيد :**

من الخطأ الفادح أن يتصور الانسان ان الثورة تكون عادة بنت ساعتها ووليدة قائدها ، تنفجر من قم بندقيته كما انفجر الماء من شق الحجر لما ضربه موسى بعصاه .

فعلى من يريدون تدوين تاريخ الثورات ان يرجعوا الى اسبابها . وهذه كثيرا ما تكون بعيدة او قريبة .

### **الاسباب البعيدة :**

بقيت سورية جزءا من المملكة العثمانية من الوجهة الاجتماعية حتى اواخر سنة ١٩١٠ م ، كما يبقى الطفل جزءا من الكائنات الى ان يدب فيه الوعي الفردي . فلم يخطر ببالها طيلة قرون متوالية انها وحدة منفصلة ذات قومية خاصة وكيان اجتماعي معين وذلك لان اجداد السلطان عبد الحميد الثاني ، كانوا مثله متمنطقين بسيف الاسلام القاهر ، ومكتسين بكسوة اللاقومية الانسانية الجذابة .

احتلت فرنسا سورية فلم تحفل بهذا الشعور الحي النامي ، بل عدت اعمال العصابات في جبال الكلبية وعلى حدود لبنان « الكبير » والحرب في ميسلون والتظاهرات في دمشق ، بل تقرير اللجنة الاميركية الاستفتائية برئاسة المستر تشارلس كراين والدكتور كنج ضربا من ضروب الدسائس الانكليزية والدعاية التي اثارها الفيصليون وما فتئت متعلقة بزوايا التقارير التي رفعها اليها الجواسيس مهملة ما يقع تحت سمعها وبصرها حتى استفحل الامر وامتلات القلوب فلم يعد في قوس الصبر منزع .

## العامل الاقتصادي :

ان كل خلاصة موجزة لمثل تاريخ هذه الثورة لا تلتفت الى العامل الاقتصادي تكون ضربا من الاقاصيص والاهام فتراجع سورية في عهدها الجديد الى الوراء في منتوجها ومحصولها وصادرها وواردها وقيمة نقدها ودولاب صناعتها بل عدد سكانها لكثرة الهجرة وقلة المواليد ، كل ذلك كان له الشأن الاساسي في تزايد النفرة من الحكومة المسؤولة ودرس صفائح الديناميت تحت اركان هيكلها ولكن لا يفرب عن البال ان العامل الاقتصادي مهما علت مكانته في الشؤون الاجتماعية ليس الا نقطة الاستناد في التطورات الذهنية الكمالية ، فالمال وما اليه من اسباب الرفاه المادي ان هي الا الاقية الدنيا ، واما الصرح الشاهق فالكفايات النفسية التي تطلبها الاقوام الحية الشاعرة ، ان الضائقة الاقتصادية في اوسع معانيها نبهت في الشعب المشاعر الكمالية وفي مقدمتها الشغف بالحرية .

وكان حصر الوظائف الرفيعة في ابناء الترك وحرمان ابناء العرب منها على عهد الحكومة العثمانية نافذ الفعل بهذا المعنى مثل زيادة الوارد على الصادر اضعافا ستة في عصر الجمهورية الفرنسية .

ان هذا جميعا ادى الى الاستياء ، والاستياء هو الحلقة الاولى في سلسلة التطورات العقلية .

## فوزي بك القاوقجي :

وقد رأيت ان اتوسع في هذا البحث قليلا وافصل ما اجملت فسألت الاخ فوزي بك القاوقجي ان يتحفني بالاسباب التي حملته على الانضمام الى الثورة ، مع انه قد عرف بولائه للفرنسيين ونال في جيشهم رتبة عالية قلما ينالها غيره من الوطنيين فقال وقوله له قيمة منطقية خاصة ، لانه صادر عن بيئة خاصة :

« بارحت دمشق عقب الاحتلال الفرنسي لاتسلم وظيفتي

الجديدة في حماه وهي قيادة الجيش الوطني - المليس - فوجدت أعمال الظلم والارهاق سائدة في تلك الارحاء .

واول مشهد رأيتة ، هو أن جميع وجهاء المدينة وعلمائها القوا في غياهب السجن مع اشنع انواع الاهانات لتأخرهم عن تنفيذ اوامر الكابتن « ميك » « المستشار الاداري » - وهنا عدد القائد فوزي بك مشاهد اخرى تتعلق بتصرفات الجيش واعمال الموظفين ، وقد تناول فيها حادثة المفتاح الذي اصاب كلب الكابتن « ميك » ومسألة تحريض عائلة المرحوم مصطفى بك العظم على الانتقام من قاتليه وتقسيم البلاد الى حكومات واستخدام الاسافل في الوظائف ، وفصل ادارة العربان عن الحكومة المحلية واعمال جيش الجوقة السورية وتضخيم الضرائب على المكلفين واذكاء النعرات الطائفية الى غير ذلك من الامور التي يتعذر علينا نشرها بحذافيرها بسبب الظروف الحاضرة فنكتفي بالإلماح اليها .

ثم اخذ فوزي بك في الختام يشرح مضار المصرف السوري ومقادير الذهب التي اخرجها من البلاد مما هو معروف ، فلا حاجة الى اعادته . وماذكرت هذه الخلاصة في الاسباب الا لتكون شهادة من موظف كبير خدم الجيش الافرنسي حيننا من الزمن ورأى الامور عن كثب ولو اردنا ان نضيف اليها بقية اعمال الموظفين الآخرين كالقومندان « أرلابوس » من الضباط السابقين مثلا لضاق بنا المقام .

**ثورتان أخريان سابقتان :**

ولا بد لمن أراد الإلمام بالعوامل البعيدة التي ادت الى هذه الثورة ، من الاطلاع على خبر المظاهرات الخطيرة التي حدثت في سورية سنة ١٩٢٢ والتي قتل وسجن فيها وعذب ونفي بسببها مئات من الرجال ، فقد كانت هذه المظاهرات تمرينا عمليا على ثورة مدينة انعمشت القلوب واعادت اليها ثقفتها بنفسها بعدما استولى



عليها وهم العظمة العسكرية .

ان هذه الثورة الصغيرة كانت على التأكيد فاتحة عصر عملي جديد في تاريخ الوطنية الحديثة في سورية ، ويلحق بذلك تظاهرات سفكت فيها الدماء ايضا ، كان حدوثها في دمشق في اوائل سنة ١٩٢٥ يوم زارها اللورد بلفور مؤسس الوطن الصهيوني القومي في فلسطين على حساب الامة العربية .

وكان لتلاميذ المدارس العالية في العاصمة الاموية دور خطير في تنفيذ خططها وترتيبها ولم يكن الاحتجاج فيها والحق يقال على اللورد بلفور ووعده فحسب ، بل كان على الاستعمار جميعا في كل زمان ومكان .

ومما هو جدير بالذكر ، أن المزاج العصبي في بعض الموظفين الافرنسيين ، وجهلهم الفادح بالادارة وبالشؤون المحلية كان اداة صالحة لنزخ النار وزيادة لهيبتها .

### الاسباب القريبة :

هذه بالاجمال هي الاسباب البعيدة ، واما الاسباب القريبة فقد حدث في جبل الدروز ان المسيطرين توسلوا بالحيل الاستعمارية المعلومة من القاء بذور الشقاق بين الطائفة الواحدة الى احلال حاكم عسكري افرنسي بعد وفاة سليم الاطرش محل الحاكم الوطني ، فكان اسم هذا الحاكم الجديد الذي طبقت شهرته الخافقين بفضل نوادره القرقوشية وسيرته الابيكورية « الكابتين كاربيه » .

بدأ هذا الرجل حياته في الجبل مستشارا ثم ارتقى فصار وكيل حاكم فأصيلا على عهد الجنرال « فيجان » المفوض الاستعماري الاكليريكي المشهور . وسار في اول الامر سيرة لين وعطف حتى تمكن من العض فنهش .

ومن نوادره الفذة انه كان اذا ذهب الى قرية ولم يخرج

أهلها لاستقباله بالخييل والرجل كليهما فرض عليها الغرامات الباهظة وحشاها في جيبه كما فعل في قرية « عرمان » مثلا .

ومن ذلك ان هرة للملازم « موريل » ضاعت في السويداء ففرم الاهلين بسببها عشر ليرات عثمانية . وأن مصباحا للبلدية كسر او سرقه احد الجواسيس فحل برقاب الاهلين اذ ارغموا على تأدية عشرة جنيهات ايضا .

وأن « دي بوشل » العريف الجندي خاصم محمد عز الدين بك الحلبي مدير العدلية فسدد اليه مسدسه فأطلقه ، ولكنه اخطاه ولم يجاز على جنايته هذه المشهورة ولو بكلمة التعنيف من سيده .

وأنة استاء مرة من فهد بك الاطرش خريج الاستانة فضربه بيديه ورجليه وبالسياط على مرأى ومسمع جميع الناس .

وكان اذا سمع وشاية من الجواسيس على احد من الاعيان او شيوخ العقل ارسله حالا الى السجن من غير محاكمة او استنطاق وشغله بتكسير الحصى لتعبيد الطرقات كما فعل بسليمان بك نصار مثلا وهو شيخ قرية « سالة » وعين اعيانها وبالشيخ صالح طربية وهو علم في الفقه والصلاح في الجبل .

ولما تقم على بني الاطرش وحاول سحق نفوذهم وارغام انوفهم صار يلقي كل من تردد اليهم ولو بالسلام المجرى البسيط في غياهب السجن . وكثيرا ما كان يترك السجنين من غير طعام بل على الماء المالح فقط ثلاثة ايام متواليات . وبالغ بعضهم فقال لي بقيت اسبوعا كاملا على هذه الحال .

ومن نوادره التي لو كتبت بالابر على آفاق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر ، أن الجواسيس ذكروا له في جملة ما ذكروا ان الدرور اذا تنحنحوا فانما يقصدون في تنحنحهم لعنة من يمرون به من

غير طائفتهم وشتم دينه . فويل لمن كان مصابا بالتهاب حبيبي في حلقه او زكام في حنجرتة ، فان ذلك يعني بقاء في السجن الى ان تزول اعراض قرحته .

هذه نبذة مختصرة من نوادره في الظلم وحجز الحرية الشخصية اجمع الرواة عليها وبلغت حد التواتر .  
فاذا اضفنا الى ذلك كله المرض البهيمي الذي بقي معه من سن الصغر والى الهنات السافلة التي كان يرتكبها والتي لا يسمح الادب بالاشارة اليها اكثر مما فعلنا ، ادركنا حالا علاقته القريبة بهذه الثورة المباركة .

وكثيرا ما كنا نقول في مناطق الثورة ، ان الاعتراف بالجميل يقضي بوضع الكابيتين « كارييه » في مجموعة صور المؤسسين لنهضة سورية لانه من غير شك كان من العوامل العظيمة التي لفتت الانظار الى شر المستعمرين وأسرعت بالأخطى للوصول الى الحرية .



# ابتداء الثورة

ضاق « بنو معروف » ذرعا بحاكمهم ، وسدت سبل النجاة من اعماله في وجوههم ، فاخذوا يفكرون ، والحاجة تفتح من اذهانهم حتى ادركوا ان لا مناص لهم من الثورة .

ولكن ما العمل والجبل صغير وفرانسة دولة عسكرية كبيرة وهل تدخل سائر المناطق السورية معهم في هذه الشركة الخطيرة يا ترى ؟ . .

## الوطنيون :

كان الوطنيون قد مهدوا السبيل الى الاعمال الكبيرة بالثورات المحلية التي احدثوها ، والاضطرابات العامة التي سببوها من اضراب عن العمل واغلاق الحوانيت والمخازن واحتجاجات داخلية وخارجية ومعلومات صحيحة رفعوها الى عصبة الامم مما نور الاذهان ورفع مستوى الادراك السياسي العام .

وكان الاستياء المستفيض ، والحق يقال ، هو المادة « الخام » التي استخدموها في معاملتهم ، فاستخرجوا منها خير المعمولات المتينة ذات الطراز الحديث ، بحيث تمكنوا بواسطتها من انشاء بعض الاحزاب السياسية العظمى في طول البلاد وعرضها واعداد

الآراء لقبول التبعات العملية الجديدة ، ثم صفوا حطب « الابلية » وكوموه بصورة منتظمة ولم يعدموا من يولع فيه النار من انباء البلاد الابرار . فلما اذنت الساعة والتقى الدروز الهائمون في بحار الافكار باخوانهم في دمشق ، شعروا انهم بلغوا ساحل الامان اذ نزلوا بينهم على الرحب والسعة .

## الاجتماع الاول :

عقدوا اول اجتماع تمهيدي في بيت القاسم الهيماني صاحب جريدة الفيحاء في اوائل شهر مايو « ايار » سنة ١٩٢٥ م حضره المرحوم الامير حمد الاطرش ، ودار فيه الحديث حول اشعال نار الثورة ثم اعقبه اجتماعات اخرى متعددة في منزلي في « عنوس » على طريق الصالحية حضرها عدد كبير من زعماء الدروز كالمرحوم نسيب بك الاطرش وعبد الفغار بك الاطرش وابي حمدي سيف العيسمي ومنتعب بك الاطرش وغيرهم من كبار الرجال فأخذت فيها العهود والمواثيق بصورة سرية واقسم الحاضرون باغلق الايمان على تحقيق الوحدة والاستقلال وقد جرى ذلك كله من غير ان يكون للحزاب الرسمية وغيرها اقل اتصال مباشر . ولم يحن الوقت بعد لتنفيذ مزاعم الجنرال « سراي » وغيره في اتهامهم الابرياء والقائهم في غياهب السجن لان تبعة الاشتراك وتوحيد المساعي تعود على من حضر هذه الاجتماعات فقط لا على غيرهم .

وما تم لم يتم باسم الاحزاب بل باسم الافراد ومن تشبثهم فقد غادر زعماء الدروز دمشق الى الجبل وايمانهم اشد رسوخا بوجود الثورة .

وحدث في تلك الاثناء ان الكابتين « كارييه » سافر بالاجازة الى فرنسا فحل محله الكابتين « رينو » بالوكالة ، ولما آمن في الدروز تلك النفرة الخالصة التي فضتهم من حول « كارييه » ، طمع ان يحول الوكالة الى اصالة ، فأخذ يدس دسا اصوليا حاذقا بحيث اجمعت

الآراء على انه من الافواه المهمة التي نفخت في بوق الثورة .

### دور الكابتنين «رينو» :

ارتأى « رينو » أن يقابل الزعماء الجنرال « ساراي » ويطلبوا اليه الخلاص من « كارييه » ففعلوا وسافر منهم الى بيروت المرحوم الامير حمد الاطرش والمرحوم نسيب بك وعبد الفغار باشا الاطرش واسعد بك مرشد وغيرهم . ولكن الجنرال رفض هذه المقابلة كما هو معلوم ، فعادوا من حيث اتوا وهم اشد حنقا واكثر رغبة في الانتقام ، وكان هذا العمل من اشد العوامل القريبة التي أدت الى الانفجار .

### بوادر الثورة في السويداء :

وفي اليوم الاول من عيد الاضحى ٢١ تموز سنة ١٩٢٥ اجتمع فتيان بني معروف في السويداء باشارة من الاعيان ، وقاموا بتظاهرات نادوا بها : فليسقط « كارييه » الظالم وليحيا « رينو » العادل ثم أخذوا يبحثون عن اعضاء المجلس النيابي ليحملوهم على عزل ذلك واحلال هذا محله ، فصادفوا فارس بك الاطرش وهو احد الاعضاء وممن لعبوا اشنع الادوار هو واولاده في تأييد المستعمرين على ابناء وطنهم فهاجموا عليه ووسعوه ضربا . ولكن قائد الدرك حسن بك صخر انقذه من بين ايديهم وصر فهم عنه .

# إعلان الثورة

انصرفوا وهم يهزجون أهازيجهم الحماسية المعروفة ففاجأهم الملازم «مورل» صنو الكابيتين «كاربيه» وزميله في الاعمال القاسية البربرية ، فنزل على ظهورهم بالسياط ، وعلى أذانهم باللعنات فما كان من حسين مرشد الباسل الا ان ضربه على انفه بالعصى ومن يوسف بك ابن عبدالغفار باشا الاطرش الا ان اطلق عليه عياراناريا .

انهزم « موريل » والاحجار من ايدي المهاجمين ( المتظاهرين ) تنهال على كتفيه حتى بلغ دار الحكومة ، فطلب معاونة الجنود بالهاتف في القلعة - من غير استشارة رئيسه الكابيتين « رينو » ، أما هذا فقد ارتأى أن يقف عند هذا الحد ويحل المعضلة حلا سليما ، فدعى اليه الوجوه والاعيان وحملهم على الاعتراف بخطأهم ففعلوا ، ثم طلب منهم غرامة قدرها مائتا جنيهه عثمانى فأدوها لكن ذلك لم يكن كافيا في نظر المستعمرين . بل اصروا فوق ذلك جهلا منهم بطبائع البلاد على هدم دار حسين مرشد فهاج الشعب لهذا الطلب القاسي الذي لا يعمل المستعمرون شيئا مثله وقام بتظاهرة مسلحة اطلق فيها الوفا من العيارات النارية .

وفي غضون ذلك نزل الجند الذي طلبه « موريل » واستعد للقتال وراء المتاريس ولكن سلطان باشا الاطرش وعبد الغفار باشا الاطرش وحسني بك صخر كانوا قد تمكنوا من اخماد الهياج وصرف الناس الى منازلهم .

## المضاعفات :

اراد سلطان باشا الاطرش في صباح اليوم الثاني ان يتفیب عن السويداء وینذهب الى قرية سمیح لحضور مأتم « حمود نصر » فأوعز اليه الكابتين « رینو » بالبقاء لان خطته في تهییج الناس على « كاربيه » لم تنته بعد ولم تتكلل بأكاليل الظفر كما یشتهي وهذا ما یفسر لنا الاجتماع الذي عقد في المساء في بیت الترجمان یوسف الشدیاق وقد حضره كل من سلطان باشا والمرحوم البربور البطل المشهور وحسني بك صخر قائد الدرك ، وكانت الغاية من هذا الاجتماع المثابرة على التظاهرات لعزل « كاربيه » اذداد الاضطراب واكفهر وجه السماء الصافية فارسلت المفوضية في اليوم الخامس من العید القائد « تومي مارتن » الاستعماري الظالم المشهور لتناول مقالید الامر من « رینو » بتهمة انه هو المؤسس لهذه الاضطرابات فأخذ في التحقیق الدقیق ومن ثم دعا اليه عبد الغفار باشا ونسیب بك والامیر حمد الاطرش وقال لهم ان الجنرال « ساراي » یرغب في مقابلتهم .

## استدراج الزعماء واعتقالهم :

غادروا الجبل لتحقیق هذه المطالب فلما بلغوا دمشق قبض عليهم المسیو « شوفلر » مندوب المفوض السامي وساقهم الى المنفی في تدمر ، فجازت عليهم هذه الحيلة التي كانت من اكبر الاسباب في منع الناس من الاستسلام للخداع الاستعماري فيما بعد .

وكاد يكون من باب الاساطیر ان ممثلا خطيرا لاعظم دولة عسكرية یتذرع بحيلة الصعاليك الصفار فيحول دعوة رسمية للالقاء في السجن والنفي الى الاماكن الخالية .

وبعد ايام سیق الى « حسجه » كل من برجینس بك الحمود وعلي بك الاطرش وحسني بك صخر وعلي بك عبید ، واخذوا معهم



في طريقهم الى دمشق يوسف بك الاطرش .

وكان سلطان باشا الاطرش في تلك الغضون قد رحل السى قرية « رساس » ف جاء الامير حسن الاطرش وقص عليه ما جرى من حديث النفي الى تدمر فاشمأزت نفسه كثيرا ورأى الفرصة سانحة لاشعال النار فأخذ يتجول في القرى والدساكر ويحض الناس على استعمال السلاح .

### الدروز ينتخون ويتقلدون السلاح :

ابتدأ ( سلطان باشا الاطرش ) من ام الزمان فامتان فملح ثم عرمان فصرفد . وليس في تاريخ الثورة جميعا صفحة تلذ قراءتها اكثر من خبر السياسة التي سلكها في التنقل من قرية الى قرية .

فلما ذهب من امتان الى ملح مثلا ، سار معه نحو اربعين فارسا لكنه ارسل رسلا قبله فأوهموا أهل ملح ان جميع الرجال القادرين على حمل السلاح في المقرن الجنوبي هبوا على قدم وساق لانتقاذ شرف الطائفة الدرزية .

وكان اذا دخل قرية رصف الناس حوله ورتبهم ترتيبا يلفت الانظار ثم يأخذون جميعا في اطلاق العيارات النارية في الفضاء مع اهازيجهم الحماسية التي قلما يجاريهم احد في استخدامها وحسن استعمالها .

لا جرم ان القرى كانت تلاقهم بتلك العادة الجميلة عادة (الانتخاء) المشهورة ومن ثم تنضم اليهم وتسير معهم .

ويجدر بنا ان لا نفعل هنا اسم الشيخ يوسف العيسمي من قرية امتان فقد مثل في هذا الترتيب دورا خطيرا .

### بداية الزحف :

لما بلغ المجاهدون قرية عرمان استقبلهم اهاليها خير استقبال

وعلى رأسهم ابو حسن فضل الله بك الاطرش البطل الحر المشهور  
وفيها تقرر الزحف على صرفد لحرق البعثة الفرنسية فيها .

وقد انفذ هذا القرار بمساعدة اهل صرفد انفسهم وبهمة  
رجلها جاد الله بك الاطرش .

هنا بلغ سلطان باشا تجمع العسكر في القرية فقرر مع الزعماء  
الزحف عليهم والايقاع بهم فطاروا الى الحرب كالصواعق المحرقة .  
اراد الجنود الذين قدموا القرية لارهاب سلطان باشا واخوانه  
الدخول اليها، فحذرهم علي بك شقيقه من مغبة الامر ، فرحلوا عنها  
الى الكفر حيث نزلوا في ٢٢ تموز سنة ١٩٢٥ على ماء واخذوا في غسل  
ثيابهم واصلاح شؤونهم ، لكن شيخ الكفر اسعد بك مرشد ، عرف  
ما كان جاريا وراء الستار فانذر الكابتين « نورمان » قائد الحملة  
ثلاث مرات متواليات بوجوب الحذر ومفادرة هذا المنزل فلم  
يحفل بكلامه سوى ان ترفع بجنوده الى موقع وعر مستدير يشرف  
على الطرقات واستعمل من انواع التهديد والوعيد للرجال الذين  
انذروه مادل على غروره حيث قال : انه بمجرد الرشاش الذي  
يستعمله قادر على قتل ثلاثة الاف درزي .

### المعركة الاولى :

الموقع الذي حدثت فيه الموقعة من اوعر واحسن ما رات  
عيني ، فقطع الصخر مصطفة فيه بشكل مستدير اصطفافا يكاد  
يكون مصطنعا ، وكل واحدة منها متراس قائم بنفسه ويؤلف  
مجموعها شكل بحيرة جافة لا مثيل لاحد بمفاجأتها او مهاجمتها  
اللهم الا من اوتي ايمان الانبياء وعزم الجبابرة .

انقسم الدروز الاشواس بقيادة سلطان باشا الى قسمين  
وقفوا من جبهتين متقابلتين وكان منظرهم وهم يقتحمون نيران  
البنادق من ارهب المناظر .

ومن اراد ان يقدر حرارة الحماسة التي كانت تغلي في صدورهم فحسبه ان يتذكر انهم قطعوا تلك المسافة الشاسعة من صرفد الى الكفر عدوا ولم يقفوا الا حيث اوردوا خيولهم ماء في منتصف الطريق وأوردوا سيوفهم في منتهائها .

لم يمض عشرون دقيقة على الملحمة بالسلاح الابيض حتى قضاوا على الحملة قضاء مبرما ، فلم يفلت منها الا بضعة افراد استطاعوا نقل خبر الكارثة الى « تومي مارتان » في السويداء .

ولم يزد عدد المجاهدين على المئتين وتجاوز عدد الجنود على المئتين والستين وكانت خسائرنا اربعين شهيدا منهم مصطفى بك الاطرش شقيق سلطان باشا واسماعيل بك الاطرش نجل جادالله بك .

ان الداخل اليوم الى هذه البحيرة ( اوائل ايلول سنة ١٩٢٥ ) وقد جفت دماؤها يرى فيها ارجل الجنود مستترة وراء الصخور ومن هنا وهناك جماجم تبصص وهي مكشوفة عن انيابها كأنها منكمشة من هول الضربة التي نزلت بها .

ويؤكد الثقة ان الجمجمة التي على الباب هي جمجمة الكابتين « نورمان » فكانها تجرسها من سباع البر وطيور الفلا .

### نتائج المعركة الاولى :

ولهذه الملحمة شأن خطير في تاريخ النهضة السورية :

١ - انها جعلت الثورة امرا مبرما .

٢ - انها دلت على أن الحق الصريح ولو نقصته العدة والعدد قادر في كثير من الاحيان على مقاومة القوي ولو ايدته الآلات الضخمة والجحافل العظيمة .

وهذا من اكبر البواعث على النشاط الذي ابداه المجاهدون

في معاركهم التي تمت فيما بعد .

٣ - لانها القت عبء القيادة العامة في الجبل مدة الثورة على عاتق الزعيم الذي انتصر فيها هذا الانتصار الباهر ومعنى ذلك انها اوجدت من الفوضى التي يتعشقها السوريون نواة صالحة للنظام وتوحيد المساعي لبلوغ غايات حربية معينة . ولولا ذلك لكان عدد الذين يتسنعون غارب القيادة الحربية بحق او بغير حق لا يحصى ، لان عادتنا ان من آنس في نفسه قمحة من الحياة يتوهمها جبلا من القوة .

ويجدر بنا ان نذكر ان المراسلات الرسمية التي اطلعنا عليها مسيو « كيريلي » في جريدة « ايكودي باري » دلت على ان « تومي مارتان » كان واسع الاطلاع شديد التشاؤم ، عارفا بالدماء التي ستسيل في الجبل .

وقد ذكر هذا في احد تقاريره تاريخ اتفاق عقد بيننا وبين زعماء الدروز فجعله في اليوم الثامن من تموز سنة ١٩٢٥ . ولعله يشير بذلك الى الاجتماعات التي عقدناها في دارنا لان الجلسة التي قررنا فيها اضرام نار الثورة في الشمال مع اخواننا في الجنوب عقدناها في بيت رجل من كبار رجال الوطن في مساء اليوم العشرين من آب سنة ١٩٢٥ ، ودامت الى صباح اليوم الحادي والعشرين وقد حضرها من كبار الرجال « يحيى حياتي بك » وحسن بك الحكيم وسعيد بك حيدر وجميل مردم بك ونسيب بك البكري وفوزي بك البكري والمرحوم سعد الدين بك المؤيد العظم والمرحوم توفيق بك الحلبي وغيرهم وتقرر ان يكون خروجنا من الشام في يوم الاحد في ٢٢ منه .

### حصار السويداء :

نزل المجاهدون في السويداء لحصار القلعة بعدما كثر عديدهم

وتضخم بانضمام البيوتات الى جانبهم ما عدا بعض افراد لوثوا شهرة آبائهم واجدادهم ببقائهم على موالة المسيطرين .

### معركة المزرعة وحملة الجنرال ميشو :

اضطرب الجنرال « ساري » لتعيق الغربان ايما اضطراب، واخذت الاوهام تستولي عليه فلم ير امام عينيه بابا لاعادة السكنة لا بالقوة شأن كل عصبي يفقد موازنته في الكوارث المفاجئة فجهز حملة كبيرة لتأديب الثوار يتجاوز عدد افرادها خمسة الاف وعلى رأسها الجنرال ميشو . وهي مجهزة بأحسن العتاد واحمدت الآلات ، وتحوم فوقها الطائرات وعزرائيسل يتدلى من تحت اجنحتها . شرقت هذه الحملة من محطة ( ازرع ) في صباح اليوم الاول من آب سنة ١٩٢٥ ، فعلق معها الدروز في حرب ، وكان عددهم يقارب الثلاثة الاف فراوا ان لا مثيل لهم بمصارعتها للوهم الذي استولى عليهم مما رأوا بأعينهم من نارها وسمعوا بأذانهم من افواه الجواسيس عن عددها وعتادها ، فانهزموا شر هزيمة بحيث ان علم قرية ( امتان ) وهي في الطرف الجنوبي من الجبل بات مع من يحمله في ارجائها . واما الحملة فقد نزلت على ماء يدعى ماء المزرعة بالقرب من السجن والمجدل .

### المجاهدون يستعيدون المبادرة :

حدث في المساء ان ثلة من المجاهدين من اهل المقرن الغربي من نجران وعاهرة وغير ذلك من القرى ومعهم عدد كبير من اهالي المقرن الشرقي بينهم من الابطال امثال : جادالله بك سلام ، ومحمد بك شرف ، والجميع لا يبلغ عددهم المائتين التقوا بمؤخرة الجيش حيث الذخائر والطنابر على ظهور البغال تحرسها « الفرقة السورية » وكان ذلك في المقرن الغربي ما بين قريتي « السدور وبصرى الحرير » فانقضوا عليها انقضاض الصاعقة حتى اذا خيم المساء كان العتاد جميعا من الطنابر والبغال والخيول في قبضة

المجاهدين من القرى .

ولم ينج من الحملة الا من لاذ بالفرار ليعلم القائد ان سياتي  
بني معروف لم يبق ولم يذر .

### اثر هذا الهجوم واحتدام المعركة :

فتح اهل القرى عيونهم في الصباح فرأوا الاحواش والاصطبلات  
مملوءة بالاحمال المعلمة والدواب المسومة . والاهازيح تشق عنان  
السماء بذكر النصر الباهر والكسب الثمين ، فهبوا الى خيولهم  
واسرعوا الى اكمال العمل الذي لم يتم في المساء . وقد تقدم الجميع  
مائة وسبع عشر فارسا من اشاوس السويداء المشهورين ووراءهم  
على البعد من اهل المجدل ونجران وسليم وغيرها من القرى  
القريبة زهاء اربعمائة مجاهد فلما لاحت عين المزرعة من القرى  
القريبة لهم كان في السماء طيارة تحلق فوق الجيش فنزلت لتخبر  
القائد بوجود التفهقر للانكسار المريع الذي حدث في اليوم الماضي،  
ويقال ان الجنرال « ميشو » كان في هذه الطيارة .

### وصف المعركة المهولة :

وبينما كان الجند يستعد لتنفيذ الامر في التفهقر رأى على  
بعد ابناء معروف ، فأسرع لتكويم المتاريس والاضطجاع في الخنادق  
الطبيعية ثم اخذ البرق يومض من افواه المدافع والبنادق والرعد  
يقصف فيصم الأذان . ولكن اشاوس بني معروف تقدموا . خرق  
الرصاص الصدور وحصدت قذائف المدافع الارض ، ونثرت قطع  
الصخر في السماء لكن اشاوس السويداء تقدموا .

وأخذت المصفحات تكرر وتفر كأنها أبطال الجاهلية وهي تصب  
من افواها الحمم ، لكن اشاوس السويداء تقدموا .

ثم جاءت الطيارات تحلق فوق هام الرجال وتلقي من تحت

اجنحتها اطنان المفرقات فتحفوا هذه في القلائع حفرا ما أشبهها  
بالآبار الناضبة يغوص فيها الناس الى فوق الرأس . لكن  
اشاوس السويداء تقدموا . وتقدموا لانهم مؤمنون . والمؤمن اذا  
اهتزت نفسه بتيار العقيدة اقتحم المهالك وشق طريقه ولو في ظلم  
الغضاء .

دب الفرع الاكبر في قلوب الجنود ، فأخذوا يتلفتون  
كالصرعى ويتنقلون كالمخالطين في عقولهم على غير هدى ويطلقون  
نيرانهم بصورة طائشة ومن غير تسديد لان حذر الموت اعتراهم وحال  
دون ارتكاز انتباههم على قمحات البنادق فانقض عليهم انباء  
السويداء ومن ورائهم سائر الدروز الذين تبعوهم ، فجرت ملحمة  
بالسلاح الابيض لم يجر مثلها في البلاد منذ ذكر الواقدي خبر  
الفتوحات العربية .

### ابطال المعركة وشهداؤها :

وممن برز في هذه الملحمة وفاق الاقران المرحوم سليمان  
العقباني من قرية السجن ، فقد كان ينفرد عن الدروز ويهز صارمه  
وينادي : اشهدوا ، اشهدوا ، اقرأوا ، اقرأوا .

ثم يكر على المستعمرين فيضرب الواحد منهم ضربة كثيرا ما  
بترت عنقه او شقته نصفين .

وقد قتل في هذه الطريقة نحو ثمانية عشر جنديا ، الى ان  
اصابته رصاصة ، فخر صريعا يتخبط بدمه .

وممن قتل في هذه الملحمة من الزعماء الكبار المرحوم «حمد  
بك البربور» من قرية ( أم الرمان ) وهي قرية في المقرن القبلي لها  
الشأن الاكبر في الاعمال الوطنية الخالصة . ولشيخها سليمان بك  
الاطرش وزعمائها قيا سم النبواتي والشيخ امين زين الدين  
وغيرهم من رجال السمعة الطيبة في الكرم والشجاعة .

فقد كان المرحوم حمد بك ، على صغر سنة آية في الذكاء والعقل والشجاعة النادرة وكان اليد اليمنى لسلطان باشا في السلم والحرب واجمع الرواة على ان فقده كان مصيبة في هذه الحرب ولو بقي حيا الى يومنا هذا ، لكان له شأن في هذه الثورة ما بعده شأن .

وحدث في تلك الساعة ، ان جاسوسا اتى احد الزعماء في دمشق من قبل الكابيتين « بسكال » فأخذ من جيبه ساعة وقال وهو يشير اليها :

« حينما يصل العقرب الى هذا الرقم - يعني الساعة الاولى بعد الظهر - يكون الجيش قد بلغ السويداء وقضى على المتمردين من الدرور » .

ولم يدري في خلده ، ان الجيش في تلك الساعة يكون قد خرج من عالم السكون الى عالم الزوال .

### بعد المعركة :

باد الجيش ، ولم يسلم منه الا القليل من فلول تبلغ زهاء الف ومائتين لم يصلوا الى السكة الحديدية في قرية ازرع الا بشق الأنفس . وقد وصفهم احد المسافرين في المحطة فقال : « لا ادل على الاختلال الذي طرا على عقول هؤلاء في هذه اللحمة من رؤيتهم وهم يلقون بانفسهم على القطار الذاهب الى دمشق ، فقد كانوا يتمسكون بالمركبات تمسك الفريق بنواتئ الصخور ، وكثيرا ما كان الشبح منهم يترأى عن بعد قادما الى المحطة ثم يختفي اما لخور عزيمته او لضلاله عن الطريق .

وكانت الضمائد على جراهم واللفائف على رؤوسهم توهم المرء انهم اهل مستشفى فروا منه لحريق اصابه » .



## ساحة المعركة :

وقد زرت ساحة هذه الملحمة مرارا وحاولت ان احصي عدد الجثث الملقاة فيها بالضبط ، فلم افلح لسعتها ، وحسبي ان اقول انني مشيت من عين المزرعة ، الى الطريق المعبدة مغربا نحو ساعتين بين الجثث والعتاد الملقى على الارض فلم انته منها ، ورايت خمس سيارات مصفحة محروقة وقد امالها الدروز على جوانبها حين الهجوم باكتافهم وقتلوا سواقيا ومساعدتهم بالمسدسات من كواها المرتفعة ، وان رؤوية هؤلاء السواقين متعانقين ملتحمين تدل على هول ملاقوه من المهاجمين .

## ساراي يخفي نتائج المعركة عن السوريين :

عمل الجنرال ساراي جهد المستطاع لاختفاء خبر هذه الكارثة عن المناطق السورية وفرق العيون والإرصاد على دور المشتبه فيهم ، وكان نصيبي من ذلك ثلاثة يعملون بالتناوب والاشترار مما عرقل المساعي كثيرا وحال دون عقد الاجتماعات المهمة عندي .

بيد ان كل سعي لزحزحة الكابوس الفرنسي عن صدور البلاد لا تستطيع القوى البشرية ستره عن الراصدين لان عيونهم تشبه عين الفلاح في السنين المحملة الناشفة . فهي ابدا محدقة بالافق ترقب اكفهار وجه السماء .

## ليت الدروز تابعوا زحفهم الى دمشق :

اخطأ الدروز فلم يواصلوا الزحف على الشام بعدما افنوا حملة ميشو هذه وخلصوا قلب الجنرال ساراي من موضعه وبذلك اضاعوا فرصة ثمينة ، ولم تكن نحن في الشام على استعداد لجني ثمار هذا الانتصار النجائي الباهر .

## دراسة الوضع بيننا وبين الدروز :

وقد تناولنا بعد حين رسائل الدعوة لوضع الخطط المشتركة من سلطان باشا الاطرش وجاد الله بك الاطرش ، ومحمد عز الدين بك الحلبي ، فدرسناها درسا وافيا وقررنا بشأنها القرارات الضرورية .

وكان مندوب الجبل الذي حمل الينا رسائل هؤلاء الزعماء الضابط محمد بك كيوان الذي نزل ضيفا في بيت نسيب بك البكري .

ولكن الذي حدث في تلك الغضون ان بعض الاصدقاء ارسل الى الجبل ثلاثة مندوبين لمذاكرة الدروز ، هم السادة :  
توفيق الحلبي ، واسعد البكري ، وزكي الدروبي فبلغوا الجبل في الساعة التي كان الكابيتين « رينو » مندوب الجنرال سارايي يفاوضهم باسم الدولة المنتدبة لوضع اسس السلام .

فحالما دخلوا المجلس ، تكلموا باسم الاحزاب وفي مقدمتها ( حزب الشعب ) وقاوموا فكرة الصلح مقاومة عنيفة حتى قضا عليها بعدما اوشكت ان تتحقق .

ان عملهم هذا قد حال دون عقد الصلح حتما ، فهو بذلك كان ثوريا من الطراز الاول ، بيد انه اضر ببعض الزعماء وباعضاء ( حزب الشعب ) ضررا بالغا فوضعهم تحت المراقبة الدقيقة وكاد يشل حركتهم .

والانكى من ذلك انهم اتفقوا مع سلطان باشا على ان يزحف الدروز على جهات الكسوة في صباح اليوم الثالث والعشرين من اغسطس (اب) بحيث تخرج الى ملاقاتهم مع عدد من المجاهدين الشوام لا يقل عن المئتين فنهجم مشتركين على عاصمة الامويين الخالدة .

لقد تم هذا الاتفاق في نحو اليوم السابع من شهر اغسطس وبلغ الوطنيين خبره في اليوم العشرين ، فلم يعد امامهم لتنفيذه الا يومان اثنان : الحادي والعشرون والثاني والعشرون اذن فتنفذ مثل هذه الخطة الخطيرة على هذا الوجه من السرعة هو من باب المستحيلات ، ومع ذلك فقد صرفت الجهود العظيمة واتخذت القرارات العملية الخطيرة ، وبعد ثلاثة ايام كنت في طريقي الى الجبل بعدما حاولت الوصول اليه من قرية ( حوش متبن ) بحسب الاتفاق الذي تم بيننا في دمشق .

وقد صرفت تلك الليلة مع يحيى حياتي بك ، ونزبه بك المؤيد عند جميل بك مردم بك ، فلم اجد شيئاً من الاستعداد مما اضطرني الى العودة في صباح اليوم التالي قبل الشروق من غير ان يشعر بي احد .

### الاستعداد لمعركة دمشق :

اجتمعت بسُلطان باشا الاطرش في قرية ( كفر اللحي ) في اواخر اغسطس سنة ١٩٢٥ ومعني نزبه بك المؤيد والمرحوم سعد الدين بك المؤيد وحسن بك تحسين وقد استشهد في سبيل هذه الثورة ، وكان نسيب بك البكري ويحيى بك حياتي قد سبقانا الى قرية عرى ، وفي ( كفر اللحي ) هذه جاء دروز الاقليم فاطهروا تحفزهم للحرب وارتباطهم بالثورة وكانت الحماسة بالغة اقصى اعماق القلوب وكانوا وهم ينتخون او يعرضون امامنا على الطريقة الدرزية الحورانية شعلة تندلع منها السنة اللهب .

وكان اول اعمالنا عند بلوغنا الجبل اننا حشدنا المجاهدين لمهاجمة دمشق لان الحملة الدرزية التي وعد سلطان باشا بسوقها الى الكسوة للاجتماع بالمجاهدين الشوام لم يبلغ عددها النصاب الكافي . ولما وصلت الى جبل « المانع » في ٢٣ اغسطس سنة ١٩٢٦ تلاقت مع الفرنسيين فاضطرت الى الرجوع بعدما امطرتها الطيارات

وابلا من القنابل .

صرفنا المساعي في الاسبوع الاول من شهر سبتمبر لتنفيذ خطة الهجوم على الشام وسلمنا القيادة في هذا العمل الى يحيى حياتي بك فكان رايه حشد خمسمائة فارس تنقسم الى خمسة اقسام ، فتدخل العاصمة الاموية من ثلاثة مداخل مختلفة . لكن لم يجتمع لدى سلطان باشا العدد الكافي ايضا للقيام بهذه الخطة الجوهرية . وقد رأينا من الدماشقة الذين قدموا الجبل للاشتراك معنا في الخطط والتعاون غير من ذكرنا ، المرحوم حسن الخراط الذي لعب اعظم الادوار في الفوطة والمرحوم سرحان ابو تركي الديري الشجاع الباسل والشيخ محمد حجاز ثم حضرتي حسن بك الحكيم وسعيد بك حيدر من كبار مؤسسي حزب الشعب . وقد وصلا الى الجبل من زحلة بطريق وادي العجم وبعد حين وصل عدد من الضباط والمتطوعين الاشاوس منهم المرحوم ابراهيم صدقي وجميل البيك وعبد القادر القواص وبشير الهندي وغيرهم .

وبينما كنا نمد السبيل لتأليف حملة مشتركة تهاجم الشام، كان الجنرال غاملان يحشد الجند طول السكة الحديدية في حوران، فرأت القيادة العامة ان توجه نظرها الى مهاجمة هذا الجند ، فتركنا قرية « أم ضبيب » في الشمال وذهبنا الى جهة الجنوب الى قرية « عرى » حيث اجتمعت القرى للتداول في هذا الامر .

### معركة المسيفرة :

اسفرت المداولات الطويلة المترددة المملة عن الاتفاق على مهاجمة الجند في اهم نقط تجمعه . وكان المجاهد الذي وضع الخطة وأصر عليها محمد بك عز الدين الحلبي الثائر الشجاع الذي مثل دورا مهما في هذه الحرب الضروس .  
وخلاصة رايه أن يفاجأ الجيش الفرّسوي بقرية المسيفرة

مفاجأة تامة في الصباح تقضي عليه وتكسب الدروز الذخائر العظيمة التي يحملها ، فاجتمع من بني معروف عدد يناهز الخمسمائة وربما بلغ عدد الفرنسيين الالفين او اكثر .

وقد حضر هذه المعركة من ابناء الشمال نزية بك المؤيد العظم وسرحان ابو زكي الديرى .

وخلصة ما جرى ، ان الثوار ارادوا الزحف على المسيفرة خلصة قبل طلوع الفجر السابع عشر من شهر ايلول ، فاتفقوا على ان لا يأتي احدهم بحركة من شأنها تنبيه العدو ، الا ان عيارا ناريا اطلقه احد المشتبه فيهم « ابراهيم الاطرش » يقظ الحرس الفرنسي قبل وصول المجاهدين بنحو خمس دقائق ، فاخذوا في اطلاق الاسهم النارية في الفضاء لانارة الظلماء . ومن ثم ابتدأت المعركة بصورة شديدة جدا بحيث اضطر الجنود الى الانسحاب والالتجاء الى الاستحكامات التي اقاموها داخل القرية .

واخيرا احاطوا بالقرية من جميع اطرافها بواسطة الامدادات التي اخذت ترد عليهم تباعا . فلما اشرقت الشمس بنورها كان قسم كبير من الثوار في القرية نفسها ، واما الجنود فكانوا في دائرة عميقة ، حوالها الاستحكامات ومن وراء الاستحكامات السيارات المصفحة تدور لتحميمهم من المهاجمة . وكانت القذائف من الناحيتين تصل الى بئر الماء فتمنع الفرنسيين والدروز معا من الوصول اليه .

هلعت قلوب الخصوم لهذا الاقدام الباهر ، لولا تلك الخلة القبيحة التي كثيرا ما اضاعت على الامة العربية جهودها الثمينة وهي الالتهاء « بالكسب » او الغنائم وترك العدو وشأنه كما حدث في وقعة ( بواتيه ) في فرنسا بين عبد الرحمن الفاقي امير الاندلس وشارل مارتل قائد جيوش الفرنجة سنة ٧٣٢ م . ولو قدر للعرب يومئذ ان يحصروا جهودهم في مقارعة العدو لاستولوا على فرانسة

جميعها ، كما لو قدر لابناء معروف في « المسيفرة » ان يحولوا وجوههم عن الفنائم الى العدو المتحصن على بعد امتار منهم لنفذوا الى حوران ودمشق وسائر المناطق الداخلية .

### انسحاب المجاهدين من القرية :

اتت الطائرات فوجدت جموع المجاهدين لاهبة بالخيل والبقال والسلاح واكوام الذخيرة فامطرتهم وابلا من المفرقات شتت شملهم واكره المحيطين بالقرية منهم على الانسحاب . واما الذين دخلوها فقد تحصنوا في بيوتهم واروقتهم الى ان جن الليل ، فخرجوا تحت جنح الظلام بفنائمهم .

وقد ابلى « حمزة بك الدرويش » في هذه المعركة داخل القرية بلاء حسنا اكسبه شهرة فائقة .

وذكر لي نزيه بك المؤيد انه رأى محمد بك عز الدين الحلبي يقتحم النيران التي تتساقط عليه كالطر من كل حدب وصوب ومع سبعة عشر فارسا فقط لانقاذ الدروز المنقطعين في القرية .

ومما يجدر ذكره ان عتاد المجاهدين نفذ منهم بعد ابتداء المعركة بمدة لا تتجاوز الساعتين ، ولكنهم استعاضوا عنه بالعتاد الذي ربحوه في المعارك حتى تمكنوا من الاستمرار على القتال سحابة يومهم .

### نتائج المعركة :

وكان من نتائج هذه المعركة العظيمة ، ان فقد الفرنسيون ما يربو على تسعمائة من الجنود علاوة على الدواب والعتاد مما لا يدخل تحت حصر .

واما خسائر الدروز فكانت دون المائتين حتما . واما الذي بهم في هذا الشأن ان العدو بفضل دهائه وتنظيم دعايته

استطاع ان يقنع الدرور قناعة تامة بانهم هزموا شر هزيمة .

ولولا معركة السويداء الاخيرة التي حدثت في الخامس والعشرين من نيسان سنة ١٩٢٦ لقلت ان وقعة المسيفرة هذه هي ختام الحرب التي ظهرت فيها البطولة الدرزية في الجبل في اضخم مظاهرها واعظم شدتها .

### من قصص البطولة الدرزية :

وحسبي ان اذكر القصة التالية للدلالة على المفاداة الغالية والوطنية الصادقة والشجاعة الفائقة التي بدت في تلك الايام .

### بيت حمزة :

في قرية ( رساس ) اسرة تدعى « بيت حمزة » كان على ابنائها حماية العلم ، العلم الذي يحمله الغزاة من اهل هذه القرية . فلما نفروا الى حرب المسيفرة نفر معهم رب هذا البيت وهو شيخ مسن في نحو الثمانين من العمر ومع اولاده الاربعة ، وقد اتخذ على نفسه سقاية المجاهدين من قربتين حملهما على بعيره لهذه الغاية . واما اولاده ، فالدفاع عن علم ( رساس ) .

حدث ان الاول منهم حمل هذا العلم وتقدم به امام اهل قريته حتى كاد يطا استحكامات الفرنسيين ، فسدوا عليه بناذقهم فقتلوه . فتقدم اخوه يعمل محله ، لكنه اصابه ما اصاب اخاه فخر بجانبه فتقدم الثالث لان نفسه ابت ان ينام علم ( رساس ) ويتراجع الرساسيون ولكنه اصاب بالرصاص ايضا فخر الى جانبهما .

ولما تقدم الرابع للقيام بواجبه حاول الرساسيون عبثا ان يشنوه عن عزمه رحمة بالعجوزين امه وابيه ولكنه ابى الالتفات الى ضراعتهم وما زال يمشي حتى وصل الى العلم والى اخوته القتلى بجانبه ، وما كان يرفع ليلوح به لاهل رساس حتى اصابه ما

اصاب اخوته فخر صريعا مثلهم .

اما الشيخ الذي كان يستقي المجاهدين فقد عاد في مساء اليوم التالي من المسيرة محملا على ظهر بعيره لان شظايا قنبلة اصابته من الطائرة وهو غير عالم بحديث اولاده . فانزلته زوجته وانحنت عليه تقبله طيلة ليلها وهي تدعو الله ان يعجل برجوع اولادها ليخففوا عنه الم الجراح لكن دعاءها لم يستجب وامالها لم تتحقق ، وقد انتظرتهم حتى الصباح فلم يعودوا ، فأخذ قلبها يخفق واطرافها ترتعش لان التغييب في مثل تلك الايام نذير مبين .

شعرت الوالدة برعشة الفراق بعد امل التلاقي فأخذت تنظر في وجه الشيخ الراحل وتقبله قبلات حارة كأنها تحمله منها ما يستطيع حمله لفلذات كبدها المضطجعين بجانب استحكامات المسيرة . وكانت في بعض الاحيان تنحني عليه وتهمس في اذنه كلما لم يفهمه احد من الموجودين بجانبها . واخيرا خارت قواها فتمددت بجانبه صامتة من هول الموقف وشدة الالم .

جاءني اهلها الى بيت متعب بك الاطرش شيخ القرية يستنجدون بي لاسعافها ، فذهبت معهم على الفور علتي انجدها ، فبلغت الدار بعد عشرة دقائق فوجدت ذراعها الايمن تحت رأس الشيخ وكلاهما جثة هامدة لا حراك بها .

حقا لقد مات رب بيت حمزة وربته واولادهما الفتيان الاربعة . ولكن روح حمزة باقية في قلوب الاجيال العربية الاتية توحى اليها كيف يكون القيام بالواجب .

### نار الجهاد في حماه بعد المسيرة :

وقد حدث عقيب معركة المسيرة حادث ذو شأن تاريخي من الطراز الاول في هذه الثورة .

فان السيدين منير الرئيس والمرحوم مظهر السباعي



الضابطين المجاهدين قدما الينا من حماه الى الجبل بطريق شرقي الاردن يحملان صورة اتفاق لاجل اشعال نار الثورة امضاه بعض الزعماء امثال بني العظم والبرازي .

ومن مواد هذا الاتفاق ان تحصل مناوشات تهديدية في اول اكتوبر من تلك السنة في الفوطة وان يتقدم الى جهات القريتين قوة من الجبل لا تقل عن المائة فارس لينضم اليها فوزي القاوقجي ومن معه من الجنود . وان يكون يوم الثورة في حماه اليوم الثاني من اكتوبر وان لا يعقد الجبل صلحا منفردا بل يكون الصلح مشترطا باسم سورية وغير ذلك من الشروط التي لا محل لذكرها الان .

قرأت صورة هذا الاتفاق فرأيت من الضروري الاسراع في قبوله لاشغال الجنود الفرنسية ، التي كانت يومئذ في حوران ، عن الجبل خصوصا بعدما تزلزلت معنوياته من تأثير الدعاية الفرنسية عقب المسيرة .

ركبت وركب معي الاخوان في طلب سلطان باشا الاطرش فالتقينا به في قرية ( رساس ) حيث تباحثنا ملياً في هذا الاتفاق وفي طريقة تنفيذ بنوده . فقرر القرار على قبوله جميعا .

ولما كانت الضرورة تقضي بتطمين الاخوان بحماه بان الجبل على العهد الذي عاهدناه ، من حيث الصلح المشترك ، فقد طلبت منه ان يوقع الرسالة باسم الدرّوز فوقها .

وحينئذ سلمتها للبطل نزيه المؤيد ومع مظهر بك السباعي وكلفتها ايصالها الى الشمال ، فسافروا حالا الى الفوطة وارسلها مع الاخ المجاهد خالد بك الخطيب .

وقد كان لهذا الاتفاق شأن عظيم جدا في دوام الثورة لان المعامع التي حدثت في ( حاضر حماه ) بحسب هذا الاتفاق سحبت

( غاملان ) من السويداء بعدما احتلها وحالت دون اخضاع الجبل جميعا .

### الجنرال غاملان يعود للسويداء :

بعدها احدثت الدعاية التي بثها الفرنسيون بين الدروز عقيب معركة المسيفرة ، الزلزلة المعنوية المطلوبة ، ظن الجنرال غاملان انه يستطيع اقتحام السويداء . ففعل ذلك بعد اسبوع تقريبا وقد كانت نفوس بني معروف ميتة الى درجة انهم لم يطلقوا عليه عيارا ناريا واحدا .

هذا ما شهدته بعيني وسمعتة بأذني في قرية (عري) بالقرب من السويداء ، وكان معي حضرة الاخ جميل بك مردم بك . حتى ان المجاهدين لما رأونا اصروا على وجوب انتقالنا من مكاننا الى محل ابعد .

ودخول الفرنسيين السويداء هذه المرة لم يكن له قيمة حربية تذكر بطبيعة الحال ، لانه كان شبيها بالاستسلام .

### الجنرال غاملان يخلي السويداء دون قتال :

ان قلة المياه في الجبل واعتقاد الفرنسيين ان تكون هذه خطة عسكرية دبرها يحيى حياتي بك لحصارهم ، ثم عودة النشاط الى الثوار بعد معركة طفيفة قضاوا بها على نحو أربعين جنديا مغربيا خرجوا من القلعة لورود الماء في ( ام صاد ) ، كل ذلك القى الرعب في قلب الجنرال غاملان وحمله على الانسحاب والتقهقر بجنوده وبالقائد تومي مارتان ومن كان معه من المحصورين في القلعة ، منذ معركة الكثر الماضية . ففادرها خلسة تاركا ما كان فيها من عتاد ثقيل وسلاح كثير وجد في التراجع بحيث ترك قدور الطعام تغلي على النار .

وهكذا نرى الانتصار على جنود غاملان يوم انسحابه من

السويداء لم يكن عملا ايجابيا من قبل الثوار ، بل سلبيا من خوف  
الفرنسيين وتزلزل معنوياتهم .

### بعد خروج غاملان من السويداء :

يظهر لنا أن الجنرال غاملان بعدما انسحب من السويداء لم  
يقنط من التغلب على الدروز في القرن القبلي اذ صرح في بلاغاته  
انه ينوي احتلال ( صلخد ) بعد أن يؤدب بعض القرى الاخرى .

وقد قامت قوة عظيمة من جنوده تتجاوز الالاف ومعها  
الدبابات والسيارات المصفحة وبطاريات المدفعية . فصادمت  
شرذمة صغيرة من الدروز بالقرب من ( المجير ) علمتها كيف يكون  
الصبر على المكاره . وقد اظهر فيها المجاهد الكبير سعيد بك  
العاص من ضروب الشجاعة ما بقي يتردد في الافواه .

لكننا ويا للأسف خسرنا فيها بطلا مغوارا هو المرحوم نسيب  
بك الاطرش . ثم انها واصلت زحفها ، فدخلت قرية ( عرى )  
حيث استسلم المرحوم الامير حمد الاطرش . ثم زحفت على قرية  
( رساس ) وعسكرت فيها . وبقيت هناك ثلاثة ايام كاملة ضربت  
اثناءها البيوت وقطعت الاشجار بصورة همجية وفي اليوم التاسع  
من تشرين الاول سنة ١٩٢٥ ، انسحبت عند طلوع الشمس ،  
فلاحقها المجاهدون وعلى رأسهم الامير حسن الاطرش ويوسف بك  
الاطرش وسعيد بك العاص والمرحوم فؤاد بك سليم وصياح بك  
الحمود وغيرهم مما اضطر الجنرال غاملان الى نشر جنوده  
المشاة . لكن حمد بك عامر البطل المشهور لاقاهم في جهات تل  
الحديد .

وقد دام الحرب حتى العصر اذ اصيب العدو بانكسار  
شنيع ، فاضطر حمد عامر الى الانسحاب الى المزرعة حيث قضى  
ليلته . واشترك في هذه المعارك ايضا زيد بك الاطرش وحمزة بك

الدرويش وفضل الله باشا هنيذة الوطني الصميم والشجاع  
الباسل .

وكانت خسائر العدو عظيمة بينها طيارتان ، وقتلاه تملأ  
السهل امام (رساس) لكننا فقدنا رجلا لا تعادله الرجال هو المرحوم  
حمد بك عامر وجرح ايضا فضل الله باشا هنيذة .

### انسحاب غاملان من جميع الجبل الدرزي :

ولما ظهرت بوادر الثورة في سورية رأى الجنرال غاملان شدة  
الخطر المحقق بالفرنسيين فاضطر الى الانسحاب من الجبل  
نهائيا .



# الثورة في حماه

سافر نسيب بك البكري من ( طربا ) الى جبال انصفا لتهييج عربانها الفياث وعلى رأسهم خلف النعير .

وحدثت في الفوطة في اول اكتوبر المناوشات التي تم الاتفاق عليها لكن الثورة في حماه تأخرت الى اليوم الرابع منه .

وغني عن البيان ان حركة حماه كانت فريدة في بابها بين جميع الحركات التي حدثت في هذه الثورة من حيث تعيين الوقت واتفاق كلمة الزعماء وتطوع موظف كبير مثل الكابتن فوزي بك القاوقجي للعمل .

## تقرير القاوقجي عن ثورة حماه :

وقد كتب الكابتن فوزي بك القاوقجي عن ثورة حماه ما خلاصته :

« تقرر نهائيا ان تكون الثورة مساء الاحد الواقع في ٤ تشرين الاول سنة ١٩٢٥ وقت العشاء ، فطلبت الى القومندان كوستيليه المستشار الاداري لحماه ان اخرج لتفتيش البدو بحجة منع

اضرارهم عن القرى ، فلبى طلبي . وخرجت مع مفرزة خيالة من ( الاسكادرون ) الذي كان تحت قيادتي ، وطفقت اطوف بين هذه العشائر وابث فيهم روح الكفاح بصورة علنية . فاتفقت معي المشايخ ، وقد تخصص لكل واحد منهم راتب ووظيفة يقوم بها ثاني يوم الثورة في حماه . وفي مدة خمسة ايام كانت جميع الاستعدادات تامة ، فلما ازفت ساعة العمل ، اعطيت التعليمات المفصلة لجميع الزعماء ، وفي نحو الساعة الثامنة مساء دخلنا حماه . وهاجمنا جميع المخافر وتسلمنا اسلحتها وقبضنا على الدرك والشرطة ثم سرنا الى دار الحكومة حيث فيها كل قوة الدرك وفرقة من الجيش المختلط ، فهاجمناها ايضا ، وبعد معركة دامت حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل استولينا عليها عنوة واحرقناها وقتلنا من فيها من الجنود ثم اخذنا نستعد لمهاجمة المواقع العسكرية الحصينة .

وفي الصباح خرج فرسان العدو من الثكنات للملاقاة فرددناه بخسارة عظيمة بعد معركة دامت نصف ساعة على ( جسر السرايا ) ثم اننا طوقنا الثكنات فبدأت المعركة تشتد والنجاح حليفنا حتى تكبد العدو خسائر فادحة وفقد اكثر من ثلثي جنده واستسلم بعض المحافظين خارج الثكنات مع رشاشاتهم ولم يعد في طاقة المحصورين الدفاع .

ثم لما وصلت طائرات العدو اخذت تلقي قنابلها على المدن فاسقطنا منها طيارتين . وقبيل الظهر وصلت نجدات قوية تمكنت من انقاذ المحصورين بعد معارك دامية . وقد ازداد في آخر الامر عدد الاعداء زيادة عظيمة ادت الى امتناع كثيرين من وجوه حماه الذين جبنوا وحافظوا على الحياد عن القيام بوعودهم وعهودهم ولما اصبح الاستيلاء على الاماكن العسكرية المملوءة جنودا متعددا ، قررنا الانسحاب الى خارج المدينة لنقوم بالحركات الثورية مشتركين مع البدو .

وكانت خسائر العدو لا تقبل عن اربعمائة بين قتيل وجريح في حين كانت خسارتنا خمسة وثلاثين .

وفي الليل السابع من الشهر انسحبنا الى جهة الشمال ، وحملنا عربان الموالي على مهاجمة فرسان الفرنسيين المتحصنين في مركز قضاء المعرة وبعد معركة دامت اربع ساعات قهرنا العدو وغنمنا منه ٣٥ رأسا من الخيل و٤٢ بندقية وغير ذلك .

وقد خسر العدو في هذه المعركة ثلاثة ضباط فرنسيين وسبعين جنديا وخسارتنا بدوي واحد .

( انتهى تقرير فوزي بك القاوقجي )

### اخفاق حركة حماه واسباب ذلك :

ان السبب الجوهري في فشل ثورة حماه بهذه السرعة هو احجام الزعماء الاعيان الذين تأمروا على تنفيذها ، فلما ظهرت الى حيز الوجود اختبئوا في بيوتهم ليروا ما يكون من امرها فان نجحت فهم المؤسسون لها واصحاب الشأن فيها ، وان فشلت فهم عنها معرضون .

ولا تخلو هذه الحركة من عبر ، فان الاعتماد على البدو كان في غير محله ، الا اذا كان الغرض من الاستعانة بهم قدح الزناد لان التجارب في هذه الثورة دلتنا بصورة عملية على ان البدو لا يصلحون للحروب الدولية التي تتطلب صبرا ، بل هم اصلح ما يكون للهنات الموقته . لذلك قيل في الامثال العامة ( مثل العرب بالصياح ) .

### اثر حركة حماه على المناطق الاخرى للثورة :

على ان ذلك لا يعني ابدا ان ثورة حماه لم تات بشمرة ، بل على العكس ، كانت ثمرتها من اطيب الثمار لانها ما هبت ريحها حتى

صدمت اشرة غاملان المنشورة في جبل الدرور فاقلعت بها عنه .

وتفصيل ذلك ان الجنرال ساراي على اثر هبوب ثورة حماه طلب نصف القوة الموجودة مع غاملان على جناح السرعة . فأبى هذا وطلب اما الانسحاب كاملا او البقاء كاملا ، لكن الجنرال ساراي اصر فاضطر هذا الى الرجوع عن الجبل بقضه وقضيضه .

ثم ان هذه الثورة، في حماه، سببت تجزئة الجيش الفرنسي وارغمته على اتخاذ خطة الدفاع بعدما كان مهاجما ومكنت الثوار فيما بعد ، في المرج والقوطة من الدخول الى دمشق بذلك الظفر الذي كاد يقضي على فرنسة في سورية .





# معركة الشام الكبرى

## ارهاصات المعركة :

كانت المصادمات تجري في جوار نهر العاصي وحامل لواء المجاهدين فيها فوزي بك القاوقجي ، بينما كانت المعارك تدور في جوار بردى ، والبارز بين الثوار فيها حسن الخراط ، وقد لعب هذا العصامي اعظم الادوار في حروب الفوطة ودمشق .

## حسن الخراط :

فمن هذه المعارك ، وهو ما اطلق عليه الثوار اسم « وقعة الزور الاولى » خرج الى الفوطة بضعة اشخاص معروفين ، منهم ابو عبده ديب الشيخ والشيخ ابو صلاح العرجا ، والشيخ نديم . وغيرهم .

فالتحق بهم حسن الخراط بعدما عاد من الجبل ، فالفوا عصابة قوية استمدت طعامها وعتادها من القرى القريبة من دمشق . فارسلت السلطة عليها قوة من الدرك الى قرية ( المليحة ) بقيادة الرئيس رفيق العظمة ومع عدد من الضباط المحليين ، فاشتبكت هذه القوة في ( المليحة ) مع الثوار ، فكانت النتيجة ان غنمت

العصابة نحو ٢٩ حصانا وأسرت الضباط جميعا ، وأسفر الحال عن اندحار الدرك بعد أن تركوا قتلاهم على الحضيض .

وقد كان لهذه المعركة تأثير حسن في النفوس شجع المجاهدين على دخول الشام .

### في صميم المعركة :

لم يفضح الاستعمار امر كما فضحه ضرب الشام ، اذ لما صار الضرب على الاوتار الدولية الحساسة ، على الرعايا الاجانب وقنصلياتهم ومدارسهم وكنائسهم ومصالحهم الاقتصادية ، لم يعد بالامكان اخفاء الشر . وعلى ذلك ف ضرب الشام حداث في الدرجة الاولى من الخطورة .

وقد ادرك الثوار هذا الامر منذ الايام الاولى للثورة وعرفوا ان الحروب اذا بقيت محصورة في الاطراف استطاعت فرانس ان تتظاهر باهمال شأن هذا الجهاد المقدس .

### دخول المجاهدين الى دمشق :

لا عجب ان تتواصل الرسائل بين الزعماء في اوائل الثورة لتحقيق هذه الغاية الحربية والسياسية في آن واحد . الا ان ما فشل في اغسطس ( آب ) تحقق في اليوم الثامن عشر من شهر اكتوبر ( تشرين الاول ) بدخول المجاهدين عاصمة بني امية .

دخلوها وكان عددهم على وجه التقريب كما يأتي :

٢٠٠ مجاهد من المرج .

١٠٠ مجاهد من القوطة .

١٠٠ مجاهد من جبل الدروز .

وعلى رأس الجميع نسيب بك البكري ، ثم انضم اليهم من الاحياء ( الدمشقية ) اهل الشاغور ، وباب السلام بزعامة كل من

حسن الخراط ومحمود سلام وابي عبده ديب الشيخ وحسن  
المقبعة .

وقد بقي المجاهدون في دمشق اربعة ايام متواليات سحقوا في  
غضونها جميع الجنود المعتصمين في التاريس في الشاغور والميدان  
واما من بقي منهم مبعثرا في المدينة وضواحيها مع من انضم اليهم  
من الموظفين الفرنسيين ونسائهم فقد لجأوا جميعا الى القلعة  
واحتموا بابرأجها .

### اثر دخول المجاهدين الى دمشق على الفرنسيين :

فقد الجنرال ساراي موازنته واختلط عليه الامر فلم يعد  
قادرا على فهم الوضعية وتقديرها بالضبط . ثم انه استشار من  
استشاره من الضباط الطافحين بالخيلاء العسكرية فأقروا جميعا  
ضرب الشام بالمدافع من القلاع .

### ضرب دمشق بالمدافع :

وفي الوقت المعين فتحت هذه الآلات الجهنمية افواهها  
وصبت على ائمن حي من الاحياء حممها فلم يمض اربع وعشرون  
ساعة الا وقنابل التدمير والتحريق قد اكلت ما يربو على ستمائة  
دار من احسن الدور تقدر قيمة كل واحد منها الوسطية بالفى  
جنية على اقل تقدير ، ناهيك بما وقع من السلب والنهب بصورة  
لم يعهد لها مثيل في القرون الحاضرة .

فقد كانوا يكسرون ابواب الحوانيت والمخازن الطافحة بالبضائع  
النفيسة وينقلون ما فيها ويترقون البيوت المتطرفة ويحملون  
متاعها واوانيتها الثمينة حتى امتلأت بيوت ( . . . . ) برياش  
الدماشقة .

## حسن المقبعة ، بلاؤه واستشهاده :

ومما هو جدير بالذكر ان بعض المجاهدين وعلى رأسهم حسن المقبعة أخذوا يومئذ خبرا بان الجنرال سارايي قدم لدمشق لزيارة قصر بني العظم في البزورية فقرروا اختطافه ، لذلك دخلوا المدينة من جهة الشاغور ، وواصلوا سيرهم في الشوارع حتى بلغوا القصر ، لكن الجنرال كان قد خرج منه على جناح السرعة ، ولم يبق فيه الا بعض الجنود الفرنسيين . فأخذوا يطلقون النار على المجاهدين فقابلهم هؤلاء ، وجرت ملحمة اشتعلت النار في آخرها في القصر .

ومما يسجل بالشرف والفخر انصراف المجاهدين الى الدفاع عن الاثار الموجودة فيه حين كان الجنود المحصورون يطلقون النار على كل من راوه . وأخيرا اصابوا حسن المقبعة نفسه ، فخر صريعا بجانب الباب بعدما أظهر من فنون البسالة ما لا تنساه الابناء والاحفاد .

## نصارى الشام في حماية المجاهدين رغم دسائس الفرنسيين :

وقد حاولت بعض الجهات ان تظهر هذه الثورة الوطنية القومية بمظهر التعصب الديني الدميم ، وربما ارادت هذه الجهات بترك ( باب توما ) و ( الباب الشرقي ) حيث يقطن المسيحيون من غير قوة مدافعة ان تلج للشوارع بمهاجمتها ، لتملأ الدنيا بأخبار تعدي المسلمين على النصارى ، لكن سهمها طاش .

وقد قال مراسل ( فرانكفورت غازيت ) يومئذ : « ان الاحياء المسيحية التي تخلى عنها الفرنسيون في دمشق ، سلمت من النهب بفضل الزعماء المسلمين ، ويجب على فرنسا ان تسلم الان بان سورية اليوم هي غير سورية المعروفة بتعدد منازعاتها الدينية . وان الوطنية السورية حلت محل الطائفية ، وقامت تطالب بحقها المهضوم » .

وجاء في البرقيات العمومية ، ان الشائع ان الثوار لم يقوموا  
بما يؤخذون عليه ، بل ان حسن الخراط ، زار محلات المسيحيين  
وهذا روعهم قاتلا لهم ( انكم اخواننا ) .

### **القناصل يشهدون بحسن معاملة المسلمين للنصارى :**

وقد شهد التقرير القنصلي المشترك الذي وضعه القناصل  
في دمشق مثل هذه الشهادة وقرع الفرنسيين على ضربهم البلد  
من غير انذار وتركهم احياء المسيحيين تحت رحمة الثوار وذكرت  
كيف قام المسلمون بحماية اخوانهم في الوطن .

### **الصحافة الاجنبية تستنكر ضرب دمشق بالمدافع :**

وتساءلت جريدة الجورنال الفرنسية قائلة :

« هل كان صحيحا ما اذاعته الصحف الانكليزية عن الجنرال  
ساراي بانه اهمل العمل بقوانين الدول وهي تبليغ القناصل في  
دمشق قبل اطلاق المدافع على المدينة وانذار النساء والاطفال  
بمغادرتها وعلية تقرر ان هذا الاهمال قد حمل القناصل هناك على  
الاحتجاج بواسطة اقدم واحد بينهم . »

### **المدافع على دمشق واثرها :**

وقد استمر اطلاق المدافع من منتصف يوم الاحد الى مساء  
الثلاثاء ولا يعرف عدد الذين قتلوا تحت الانتقاض بالضبط ، وتقدر  
الخسائر المادية التي خسرتها المدينة بثلاثة ملايين جنية وكان عدد  
القتلى قليلا، لكن سيارات الفرنسيين المملوءة بجثث الجنود كانت  
كثيرة .

ولما رأى الثوار الرعب الذي استولى على النساء والاطفال  
من مواصلة القنابل على الاحياء وتحليق الطيارات في السماء وضربها  
البيوت من غير تعيين ، غادروا المدينة على امل النزول في البساتين

التي في جوارها .

وقد كان لهجومهم على دمشق اثر محمود في الجبل اذ شعر ( بنو معروف ) بأخوة حقيقية تربطهم بسكان الفوطة . وان الغباء الذي كان منيخا على الجنوب سيوزع على المناطق الشمالية .

### الثوار يفادرون دمشق الى الفوطة :

ان ضبط المعارك التي حدثت في الفوطة ، منذ غادر الثوار دمشق حتى احتلال المقرن الجنوبي في جبل الدروز ، هي مما لا تسعه هذه الخلاصة .

وحسبنا القول هنا ان الثورة في الشمال ، ولا سيما في منطقة دمشق لم تلق الرعب في قلب الخصم فقط، بل دفعت تيار الجيش عن الجبل فاراحته من الحروب نحو سبعة اشهر تمكن الدروز خلالها من جمع شملهم والاشتراك مع جيرانهم في الجهاد القومي . ويحسن بنا ان نشير فيما يلي الى بعض المعارك المهمة التي جرت في الفوطة وضواحيها في تلك الفترة .

وربما بلغ عدد المعارك المهمة جميعها يومئذ الخمسين .

### معركة الزور :

حدثت هذه المعركة في السابع عشر من نوفمبر سنة ١٩٢٥ ، وكان عدد المجاهدين اثنين وثمانين فارسا . وقد بلغهم ان الحرب قائمة في الزور بالقرب من قرية المليحة فتقدموا اليها ، وهنا جرت معركة حامية الوطيس جدا .

قال سعيد بك العاص ، البطل الكبير :

اتت الطيارة لكشف مواقعنا فخاف الفرسان على خيولهم فربطوها في قرية ( البلاط ) ، وانا بقيت ومعني فرحسان شرف

وسليمان بك ويوسف بك والملازم خير الدين الطيار ، ثم لحقنا بضعة رجال من البدو ليس معهم سلاح . وقد امسكنا الطريق الموجود غرب ( العبارة ) وسرنا في طريق المليحة مسافة ثلاثماية متر حيث مترسنا وصادمنا العدو حتى قرب الغروب اذ نفذتادنا ، فاضطررنا الى الانسحاب ، وانسحب العدو ايضا . ولكن محمد بك عز الدين لاقاه في جوار طريق جرمانا وضربه ضربا مبرحا حتى ادخله دمشق .

وكانت خسائرننا فرحان بك شرف ، البطل المغوار ، وجريح اسمه ابو علي طربوش .

اما قتلاهم وجرحاهم فقد ملؤا اربع عشرة سيارة بشهادة عبد الحميد النابلسي احد رجال جيشهم .

واسباب هذه المعركة ، ان الفرنسيين خرجوا لحصار الخراط وعصابته في الزور ، وعدد افراد هذه العصابة نحو تسعين رجل وقد ابلوا خير البلاء . واطهر حسن الخراط منتهى الشجاعة حتى جرح في كتفه . وكذلك ابرز منير الرئيس اقداما عجيبا .

اما البلاغات الرسمية ، فقد قالت عن هذه المعركة : « دامت الحرب في المليحة ست ساعات خسر الثوار فيها مائة وخمسين وخسرنا خمسة اشخاص فقط ! » .

# حسن الخراط

لم يكونوا كثيرين ، الذين اشتهروا في هذه الثورة ، اشتهار حسن الخراط ، وهذا بحق ، لان معرفتنا بالرجل واحاطتنا بالاحوال التي اکتففتها دلتنا بأجلى بيان على انه من ارباب القيمة الشخصية . وماذكرته قط ، الا وقلت لنفسي ، كم رجل كان يظهر في سورية ويكتب له التفوق والبروز لو تعهدته الفرص السانحة ولم يقضه منجل التسوية العمومية .

لقد اختلف العلماء من قبل ، فزعم بعضهم ان اصحاب القيم الثمينة لن تحول دون بروزهم الحوائل . وقال اخرون ، تبقى القيمة الشخصية مستترة الى ان توضع في البيئة الصالحة وتمتع بالفرصة السانحة فتتمو .

وعندي ان سيرة حسن الخراط ومن حدا حذوه من المجاهدين العصاميين من افراد الطبقة الشعبية العامة ، امثال ابي محي الدين شعبان ، تؤيد هذا القول . اذ لولا الثورة ما برزت لهم صفات يمتازون بها وانوار يتلأثون باشعتها واظن ان مثل هذا الخبر لا يقدر في الطبقة التي ندعوها عادة (طبقة القبضيات) .

رايت حسن الخراط لاول مرة في هذه الثورة في قرية (ام ضبيب) من قرى جبل الدروز في اوائل شهر سبتمبر (ايلول)



سنة ١٩٢٥ فاذا هو رجل ربعة في نحو الخمسين من العمر ، بوجه مستطيل وجبهة بارزة وعينين شهلاوين يشتعلان ذكاء ورأس اصلع وقد خط الشيب شاربيه ورأسه . والخفة الظاهرة كل الظهور في حركاته ولعل ذلك ناشىء عن تمرنه على ضرب العصى ( الشوح ) وهو يعتمر بالعمامة الاغباني ويلبس القنباز وفوقه العباءة . وكان اميا لم يفس التعليم المدرسي ، وقد صرف شطرا من حياته حارسا في الاسواق وناطورا في البساتين .

ولا شك ان الباعث الاكبر الذي بعثه على الالتحاق بالشورة هو الوطنية الصحيحة . وقد حضر معارك متعددة امتاز في جميعها . منها ، معركة الزور الاولى كما قدمنا ، والثانية ، ثم وقعة النيك الكبرى التي سيرد ذكرها ومعركة الشام ، وكان كلف بمهاجمة الشاغور وضرب مخفر ( الشيخ حسن ) واشتهر عنه انه لم يقعد في متراس ولا احتفى بشجرة ، بل كان يحارب الاعداء واقفا على ابعاد قد لا تتجاوز مائة متر .

وقد ذكر لي احد من رآه في وقعة الزور الثانية ، انه كان يصيح في وجه الاعداء وينادي ، لا تفتشوا عني في بيوت الشام بل امام استحكاماتكم ، انا حسن الخراط .

وقد ظهرت عليه ميزات التنظيم والقيادة بحيث كانت عصابته مترابطة تأتمر بأمره وتنتهي بنواحيه . اشتراكي المبدأ ، لو تناول تفاحة ، لعض منها غضة واحدة وفرق ما بقي منها على اخوانه . على انه كان بطاشا بالخونة لا يرحمهم ، وقد علق بعضهم على ابواب دمشق .

وحدث له ان حارب في احد الايام الفرنسيين في « معمل الزجاج » فضربهم بحيلة حربية ضربة مزقتهم فتمكن من الدخول

في العمل واخذ جميع السلاح الذي فيه مع العتاد وفرق ذلك كله على اخوانه ، فكان له خير ذخيرة استعملوها اشهرها متواصلة ولقد جرح في كتفه في معركة الزور الثانية التي وقعت في ١٨ تشرين الاول سنة ١٩٢٥ ، وقضى نحيبه غدرا على ايدي اثنين من الشراكسة المختبئين وذلك في وقعة (بلدة) في الحادي والعشرين من كانون الاول سنة ١٩٢٥ .

وما شددت بذكره على هذه الصورة الا لايظهر القوى المستترة في امتنا ، ولا قدم للقراء مثالا واحدا من امثلة كثيرة رأيناها في هذه الثورة المباركة .

### معركة بلدة وبييلا - ٢٩ تشرين ثاني سنة ١٩٢٥ :

من اهم المعارك التي حدثت في القوطة بعد ضرب الشام ، معركة بلدة وبييلا ، فانها القت الرعب في قلوب الجيوش المستعمرة وشلت حركاتها وحملت قيادتها على اتخاذ خطة المخافر الثابتة استعدادا للمهاجمات الفجائية المتكررة .

اما خطة المجاهدين ، فكانت طيلة تلك المدة وما بعدها اتخاذ الدفاع امام هجمات العدو من جهة وارسال قوى اخرى لتطويقه من جهة اخرى .

وبهذه الوسيلة كانوا يمزقونه شر ممزق ويفرقون بينه وبين نقلياته وذخائره ويكرهونه على الانسحاب .

وخلاصة هذه المعركة الباهرة ان نزيه بك المؤيد العظم ذهب بخمسين فارسا لقتل الخائن المعروف سليم المفتي وهو رجل ساقط . وقد قام بتأليف عصابة من المأجورين امثاله لقتال الوطنيين .

ولما وصل نزيه بك الى جوار الميدان صادم الجيوش فاستدرجها بالانسحاب الى (بييلا) حيث جاء متعب بك الاطرش من قرية (الست) ومعه نحو ثمانين فارسا ، فجرت ملحمة عظيمة

بالسلاح الابيض ، وكان سعيد بك العاص وعلي بك الاطرش وعبد القادر اغاسكر ومن معه من الرجال ، قد سمعوا اصوات البنادق والمدافع فهبوا لمساعدة اخوانهم المجاهدين .

قال سعيد بك : كان دليلنا ابو عبده سكر ، وقد اشتدت الملحمة حتى اصبحنا نتصارع مع العدو بالقنابل اليدوية فجاء لنجدتنا محمد بك عز الدين بمشاته ودام الحرب من الصباح حتى الساعة السابعة اذ تم انهزام الجيش بقضة وقضيضة .

اما غنائم المجاهدين فأحد عشر رشاشا وعتادا لا يحصى وقتلى العدو وجرحاه ستمائة علاوة على نحو مائة جثة بقيت على اقية المياه .

وقد بلغ الحال بالمجاهدين ، ان سعيد بك العاص تعقب الاعداء بنفسه حتى القشلة العزيزية في حي الميدان ، فقتل على بابها ضابطا من الضباط الفرنسيين المتقدمين .

ولم تتجاوز خسائرنا من قتلى وجرحى ثمانية عشر . وبقيت المدافع الضخمة تطلق قنابلها والطائرات تلقي مقذوفاتها حتى خيم الليل .

### معركة حمورة - ١٧ ك الاول سنة ١٩٢٥ :

حملة لواء هذه المعركة السادة نزية المؤيد وسعيد العاص وابو عبده سكر ومحمود ابو يحيى ومنير الرئيس .

وقد كانت المصادمة وجها لوجه في داخل القرية ( حمورة ) وظهر فيها هؤلاء الرجال الافذاذ بطولة نادرة . وكاد السيد منير الرئيس يقبض عليه ، لو لم يشلح ثيابه العسكرية . وقد نفذ عتاد المجاهدين في آخرها ولو لم يتداركهم نزية بك المؤيد والمرحوم محمد علي الدروبي واخوان لهم آخرون ، لفعل الاعداء اكثر مما فعلوا .

على ان هذه الواقعة ستبقى شهيرة بكثرة ما اقرتف فيها من الجرائم والاعتداء على الاعراض وقتل الفلاحين العزل من كل سلاح واحراق اكوام القنب بمن فيها من النساء والاطفال وهدم البيوت على رؤوس اصحابها . وقد شهد معظم هذه الحوادث السيد منير الرئيس وهو مختبىء في احد الحقول التي لم تصلها النيران .

وكان عدد القتلى من هؤلاء الابرياء نساء ورجالا اثنين وعشرين عدا الاطفال ، واما خسائر الجند فبلغت اثنين وستين قتيلًا .

### الهدوء في الفوطة :

ومما هو جدير بالتدوين، ان هذه المعركة وقعت عرضا بالنسبة الى المجاهدين ، فانهم كانوا قادمين لاغائة قرية جوبر من الجيوش التي احاطت بها في صباح ذلك اليوم ، وهذه القرية والحق يقال ، فعلت الاعاجيب في معارك الفوطة . ولما اشتدت وطأة الشتاء وزعت قيادة الجيش الفرنسي المخافر على القرى الاتية :  
دوما اوتاية ، خرابو ، والشبعة ، سكنت العاصفة في الفوطة ولم يبق للحوادث اثر يذكر الا ما تعلق بقتل المرحوم حسن الخراط اغتياالا من قبل الشركس في قرية يلدة في ٢١ ك الاول سنة ١٩٢٥ .  
وقتل الكولونيل (فيرن) في واقعة الشيعة المهيبة ، وقد اخفى الفرنسيون قتله سبعة اشهر .

وكان بطل هذه المعركة الظافرة الشهيد العربي الحر شوكت بك العائدي .

### اسباب الهدوء في الفوطة :

وسبب هذا السكون ، ان محمد عز الدين الحلبي البطل المعروف ومن معه من الدروز الموجودين في الفوطة من جهة .  
والقسم الاكبر من مجاهدي الفوطة انفسهم من جهة ثانية ،

غادروا هذه المنطقة الى جبل الدروز وانسحب سعيد بك العاص  
ومن معه من الرجال الى النبك ووجهات الشمال ، وتبعهم على  
الاعقاب فوزي بك الفواقجي ورجاله من الجبل .

ولم يبق في منطقة الشام غير نزية بك المؤيد ومعه السيد  
ابو عبده سكر والدرخباني والمهائني وغيرهم ، وقد كان استمرارهم  
على العمل في هذه المنطقة بعدما غادرها من غادرها آية في الجراة  
وتحمل الواجب تسطر لهم جميعا ، وعندي ان هذه الصفحة من  
ادق الصفحات في تاريخ الثورة المباركة ، خصوصا بعدما جاءتنا  
التقارير المطولة من الاخصائيين طافحة بالتشاؤم مملوءة بالتذمر ،  
فقد قال نزية بك في احدى رسائله :

« صممنا على القيام باعمال فجائية شديدة ، تقلق السلطة  
اكثر من غيرها فابتدانا بمهاجمة الخطوط الحديدية . وفي مدة  
يومين قطعنا خط درعا ، شام ، بيروت . ومكثنا نحو سبعة ايام  
على خط بيروت كسرنا في خلالها حملتين فرنسويتين شر كسرة ،  
ثم بالنظر الى قلة طعامنا وفقد العلف لخيولنا عدنا الى الفوطة .  
وهنا ، نظمنا شؤوننا ودعونا الاهلين للجهاد فحملوا السلاح معنا ،  
فكان نصيب كل قرية من المجندين عددا معيننا من سلاح وعتاد ،  
وحدث في تلك المدة رجوع ابي عبده ديب الشيخ من الجبل  
فساعدنا بهذا العمل مساعدة تذكر فتشكر . واخذت جموعنا  
تزداد زيادة مضطردة الى ان بلغت بضعة الاف ، وهذا مكثنا من  
تجهيز الحملات الى القلمون لشد ازر اخواننا فيها . »

ولنترك الان حديث الفوطة موقتا مدة الشتاء ولنشكر  
نزية بك واخوانه على احيائهم هذه المنطقة بعدما كاد القنوط  
يتسرب الى القلوب من انعاشها ، ولنلق نظرة على حوادث النبك  
وما اليها من القرى .

# الثورة في النيبك

١٤ و ١٥ اذار سنة ١٩٢٦ :

حصلت في النيبك قبل هذه المعركة العظيمة معارك عديدة في شهر اكتوبر ( تشرين الاول ) سنة ١٩٢٥ ، والفائزون فيها هم العصابات الاربع التي تجمعت في تلك الارجاء يومئذ : عصابة جبل قلمون ، وعصابة النيبك ، وعصابة عكاشة ، وعصابة حسن الخراط .

وفي احدى هذه المعارك ، ارسل العدو مائة جندي مع ست سيارات كبيرة مصفحة ، بقيادة ضباط الدرك ، فصادفهم المجاهدون في البساتين وعددهم لا يتجاوز الخمسة والعشرين واسروا منهم الضابط بهيجا ، وغنموا اربعة رشاشات كبيرة ورشاشين صغيرين وعددا من سيارات الركوب .

## المعركة الكبرى :

اما معركة النيبك الكبرى فحدثت بعد ذلك ببضعة اشهر ، وتفصيل خبرها ان الزعماء الكبار وعلى راسهم سعيد بك العاص وفوزي بك القاوقجي قرروا اتخاذ (النيبك) مركزا للثورة في جبل قلمون بعدما خمدت فيه النار من جراء الفوضى والمعاملات

الشاذة التي عوامل بها .

وغني عن البيان ان مثل هذا المركز اذا اشتد ساعده تناول حمص وحماه بالتهديد الدائم ، لذلك جهز العدو في حمص حملة كبيرة بقيادة الجنرال (مارتي) الذي اشتهر بين القواد الفرنسيين بالحروب الجبلية ، وقوام هذه الحملة اربعة الاف جندي من المشاة والفا جندي من الفرسان وثمانية مدافع ، ومثلها مصفحات واعتاد اخرى كاملة منها سبعون رشاشا .

**وكتب الي فوزي بك يقول :**

« اما نحن فلم نجد متسعا من الوقت لاتمام ترتيباتنا بيد اننا تمكنا من جمع ثمانماية مقاتل من انحاء القلمون وقررنا ان نافع عن النيك اولا في جهات (قارة) شمالا ثم في (النيك) نفسها وذلك لاستكشاف قوته ولضربه في مضيق (عيون العلق) ضربة مادية تؤثر في معنوياته ولا توصله الى (النيك) الا منهوك القوى » .

وفي اليوم الحادي عشر من مارس (اذار) دخل المجاهدون المشاة (قارة) والفرسان (دير عطية) لاحاطة جنود العدو من الايسر . وفي اليوم الثاني عشر اعدوا له العدة اللازمة في مضيق (عيون العلق) وقابلوه فكان في الخط الامامي سعيد بك العاص وفوزي بك القاوقجي ومعهما نحو ١٥ مجاهدا ولكنهم لم يطلقوا نارهم من عقالها الا بعد ان استبانن لهم ملامح العدو واصبحوا منه قاب قوسين او ادنى ، فصمدوا له كالراسيات وتمكنوا من صد تياره ساعتين ونصف الساعة رغم انف المصفحات التي كانت تقذف حممها مثل البراكين الثائرة ، والمدافع التي كانت تفتت الصخر وتحصد الارض ولكن المفرقات بأيدي المجاهدين والقلوب في صدورهم كانت اشد بأسا .

ونظرا لتأخر النجدة وقلة العدد الذي انضم الى رجال الصف الاول وكثرة الأعداء الذين تألبوا على المجاهدين من كل

حذب و صوب فقد امر فوزي بك وسعيد بك الاخوان بالانسحاب  
فانسحبوا بمعجزة غريبة عملتها ستائر الضباب التي انسدلت  
عليهم في تلك الساعة من السماء .

ومن هناك انسحبوا الى النيك حيث التقوا بالجيش فاصلوه  
نارا حامية من وراء استحكامات احكموا بناءها على الفن الحديث  
بحيث يستطيع كل واحد منها ان يدافع بثيرانه عن الاستحكامات  
الاخرى .

وقد ابتدأت المعركة في ضحى اليوم الرابع عشر من مارس  
(اذار) ولم تنته الا بعد العصر اذ تمكن العدو من احتلال المستشفى  
الدانماركي غربي البلد .

لكن المجاهدين اعادوا الكرة فهاجموا المستشفى واحتلوه  
عنة بعدما اخترقوا صفوف الفرنسيين وهزمهم شر هزيمة .

وهكذا استعادوا جميع ما اضاعوه بثلاث هجمات متوالية  
وربحوا خيلا وسلاحا وعتادا وافرا وخربوا مصفحتين . وكانت  
الخسائر في صفوفه عظيمة ظهر تأثيرها عند المساء اذ انقلب مدافعا  
وقد ضعفت ناره وكثر الفراغ فيه .

الا ان مواصلة القتال افقدت المجاهدين العتاد الذي ربحوه  
فاضطروا الى الانسحاب . ومع ان بعضهم بقي محتلا الروابي  
المحيطة بالبلدة حتى ١٥ مارس (اذار) الا ان الوضعية تطلبت  
انسحابه ايضا .

وهكذا نرى العدو الذي كان عازما على الانسحاب نهائيا  
قد عاد الى احتلال البلدة من جديد بعدما رأى جلاء المجاهدين  
عنها .

وقد اتفق الزعماء المعنيون على ان معركة النيك هذه من  
اكبر معارك القلمون التي ظهر فيها تفوق الثائر بنضاله واستبساله .



## خسائر المجاهدين :

وكانت خسائر المجاهدين في (عيون العلق) ثمانية عشر قتيلًا أشهرهم فؤاد ارسلان من حمص ، والملازم ابراهيم صدقي افندي من دمشق .

## خسائر العدو :

أما خسائر العدو فقد قال سعيد بك العاص عنها : انها في اليوم الاول بلغت ثلاثة ارباع مدفعيته وفي اليوم الثاني زهاء اربعمائة قتيل .

## ابطال المعركة :

وابطال المعركة هم سعيد بك العاص وفوزي بك القاوجي ، ومن الزعماء احمد منلا الكردي ، وابو مصطفى الحرستاني ، وابو شريف شرف ، والقائمقام زكي بك الحلبي ، والملازم خير الدين اللباييدي الطيار ، ومنير افندي الرئيس ، وجميل العلواني واخوانهم .

## بطولة اهل النبك :

ومما هو حري بالتدوين ان اهل النبك حاربوا في اليوم الثاني حربا صلبا اذ انهم كانوا لا يدافعون عن الوطن فقط ، بل عنه وعن الاعراض المهددة ايضا .

# الشّوْرة في الاقْلِيم

## احتلال حاصبيا :

بينما كانت المعارك تدور في القوطة وفي القلمون ، كان الاقليم  
شعلة نار يضرها السادة :

صياح الحمود ، وزيد الاطرش ونزية المؤيد ، وفضل الله  
الاطرش وحمزة الدرويش ، وعلي عامر ، واسعد كنج وشكيب  
وهاب واسد الاطرش ومتعب الاطرش ، والبطل الكبير المرحوم  
فؤاد سليم والامير حسن الاطرش، وغيرهم من الابطال الذين لا تتسع  
هذه الصفحات لذكر اسمائهم ويجوز لنا بالاجمال ان نذكر ان هذه  
المعارك العظمية ابتدأت في اول نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩٢٥ يوم  
كنت عائدا من جهات الجنوب وانتهت في اواخر يناير (كانون الثاني)  
سنة ١٩٢٦ يوم كنت ذاهبا الى جهات الشرق العربي في مهمة سياسية.

## سير المعركة :

اخذ المجاهدون من جميع الجهات يتجمعون في المقرن الشمالي  
في اواخر اكتوبر (تشرين اول) ثم ساروا الى جهات الغرب فانشطروا  
شطرين ، الشطر الاول ، احتل اقليم البلان فاتخذ قصبة المجدل  
مركزا له وكان بقيادة زيد بك الاطرش .

## القصص من احتلال الاقليم :

اولا - المحافظة على الاهلين من تعديتات الفرنسيين بناء على الدعوة التي حملها الى زعماء الثورة اهل المجدل انفسهم في قرية (كفر اللحا) في اواخر اغسطس (آب) كما تقدم معنا .

ثانيا - استمالة الشركس ومفاوضة الامير محمود الفاعور للانضمام الى الثورة .

واما الشطر الثاني ، فقد سافر من المجدل الى حاصبيا فاحتلها دون اقل مقاومة حربية لان قائد الحامية الفرنسية علم بقدوم الثوار اليها وشعر بضعف قواته امامهم ، فعرض امرهم على الشيخ حسين قيس كبير الشيوخ في البيضاة راجيا منه ان يتوسط في الامور وينجيه هو وحاميته من ايدي الثوار . فلبى حضرة الشيخ طلبه وارسله مع القوة التي كان يقودها الى ( النبطية ) ففازوا جميعا بأرواحهم ، ودخل الثوار بقيادة حمزة بك الدرويش ونزيبه بك المؤيد العظم واسد بك الاطرش وشكيب بك وهاب وغيرهم من زعماء البلدة بين اناشيد الرجال واغاني النساء .

## الثوار في حاصبيا :

بقي الثوار في حاصبيا اياما تتوارد عليهم وجوه قضائي حاصبيا وراشيا واقاموا حفلة ضخمة في قصر الحكومة حضرها جموع غفيرة فخطب فيهم نزيه بك وصبري بك البديوي الباسل خطبا سياسية وحثا الناس على الانضمام الى الثورة وبينما مقاصدها الحقيقية ، وبالفعل ، اخذت اهالي القرى تظهر خضوعها وتحكم انضمامها الى الثائرين يوما فيوما .

وحدث ان وفدا من مسلمي (جديدة مرجعيون) ومسيحييها عرض خضوعه وطلب الى القواد ان يحتلوا (الجديدة) حسالا لان العدو اخلاها فسار المجاهدون وعددهم بضعة الاف اليها وصادف حمزة بك الدرويش في طريقه سيارة فركبها مع ستة اشخاص من

دروز حاصبيا . وعندما وصل الى مفرق الطريق الموصلة الى قرية كوكبة ، اعترضه وفد من اهالي هذه القرية برئاسة خوريها فدعاه الى تناول الفداء في القرية فلبى حمزة الدرويش الدعوة غير ان اهالي قرية (كوكبة) كانوا منشفين شقين ، منهم قسم موال للسلطة الفرنسية وقد امدته بالسلاح والعتاد ، وسوست له ان يقاوم الثوار . والقسم الثاني كان مواليا للثوار وهو الذي دعاهم الى تناول الطعام .

ولما وصل حمزة الدرويش الى القرية ، قابله القسم المعادي من الاستحكامات بالرصاص ، فخر ثلاثة من رجاله قتلى ، فنادى حمزة باعلى صوته : « يا قوم لا تطلقوا علينا الرصاص ، لاننا ما اتينا هذه البلاد لمحاربتكم بل لمحاربة الفرنسيين المستعمرين واني اقسام لكم بشرف الدروز وشرف هذه الثورة المباركة اننا لا نمسك بسوء واننا نعتبر هؤلاء القتلى فداء عن الوطن ، فكفوا عن الرمي ، وتأكدوا انكم اذا اردتم مقاومتنا ، انكم لخاسرون . »

فلم يلبوا طلبه ، بل داوموا على اطلاق الرصاص على حمزة وعلى الجموع القادمة . فهاجت تلك الجموع وماجت كالبحر الزاخر وهاجمت القرية ، وبأقل من نصف ساعة غدت القرية اثرا بعد عين وقتل من الاهلين عدد عظيم من جملتهم الخوري ، وكان قتله برصاص اهل قريته .

ثم عاد الثوار بغنائمهم الى حاصبيا وبعد بضعة ايام سارت قوة كبيرة بقيادة حمزة الدرويش ونزية العظم قاصدة «الجديدة» ولما وصلت الى مفرق طريق « ابل السقي » التي تبعد عن «الجديدة» نحو نصف الساعة ، اعترضها اهالي القرية ومعظمهم من المسيحيين ودعوها الى تناول الطعام في القرية ، فلبت الدعوة ، وبانت تلك الليلة فيها ، وفي اثناء السهرة قدم احد شيوخ القرية يحمل كتابا مرسلا من (بطرس كرم) الى زعماء الثوار وكان كله

شتائم ووعيد وتهديد . وبطرس كرم هذا هو احد اللبنانيين  
المتفرنسين جلبته السلطة الفرنسية لمرجعىون على رأس عصابة  
من المتعصبين لتكسب الثورة صبغة دينية ، فلم تجز هذه الحيلة  
على الزعماء، بل انهم في الحال قرروا عدم التعرض (لجديدة مرجعيون)  
وكتبوا كتابا لطيفا الى بطرس كرم يفهمونه فيه ان الثورة ليست  
ثورة دينية وان الثوار لا يرغبون في قتال المسيحيين ، وانهم  
سيفادرون (ابل السقي) ولا يتعرضون للجديدة كيلا تكسب الثورة  
الصورة الدينية التي يتطلبها الفرنسيون .

وبعد ارسال هذا الكتاب الى بطرس كرم ، عاد الثوار الى  
حاصبيا فوجدوا زيد الاطرش وسائر الزعماء قد قدموا اليها من  
الاقليم مع قواتهم ، فقصوا عليهم حقيقة الموقف فوافق الجميع  
على عدم التعرض (لجديدة مرجعيون) واتصل الخبر ببطرس كرم  
فتوهم ان الثوار يخشون بأسه فتحرك فيه حس الانتقام ،  
وارسل قوة الى (يرغز) وهي مزرعة درزية صغيرة تخص (آل شحي)  
لكي تحرقها ، فكن لها شكيب وهاب ، ولما وصلت ظليعتها المؤلفة  
من ستة عشر رجلا الى قرب القرية ، قبض عليهم شكيب وهاب  
واخذ سلاحهم واطلق سراهم قائلا لهم : «يا اخواني ، اذهبوا وبلغوا  
جميع اخواننا المسيحيين اننا لا نريد بهم شرا واننا لا نرغب في  
محاربتهم ، بل نود مقاتلة الفرنسيين . »

فذهبوا الى اخوانهم وقصوا عليهم الخبر ، فلم يرجعوا عن  
غيهم بل هاجموا القرية ، فقابلهم شكيب وهاب ومن معه بالرصاص ،  
وفي الحال اتصل الخبر بزعماء الثوار في حاصبيا فامتطوا ظهور  
خيولهم واقبلوا على (يرغز) بسرعة هائلة ، فلما رأهم (بطرس كرم)  
وقومه ولوا الادبار الى (جديدة مرجعيون) وانضموا الى الحامية  
الفرنسوية التي وصلت اليها حديثا ، وتحصنوا في الزور  
والاستحكامات فتبعهم الثوار ودار بينهم قتال عنيف دام نحو  
سبع ساعات ، وانتهى بنصر المجاهدين وانخزال العدو وفراره

الى صيدا .

ولم يقتف الثوار اثر المنهزمين لانهم دخلوا حدود لبنان الصغير الذي قرر الثوار عدم التعرض له . وعليه اكتفوا بنسف جسر (الخرادلة) وعادوا بعد ذلك الى مقرهم (حاصبيا) .

وقد اشترك في هذه المعركة قسم كبير من اهل (العقوب) وفريق من عرب الامير القاعور .

### احتلال راشيا واحراق قلعتها :

ولما عاد الثوار الى (حاصبيا) علموا ان معركة كبيرة وقعت بين دروز (راشيا) وبين حاميتها ، فهرع قسم منهم بقيادة السادة حمزة الدرويش ونزيه المؤيد العظم واسد الاطرش وغيرهم من الزعماء الى راشيا ، فتحصنت الحامية في قلعة ( ال شهاب ) وتحصن معها معظم مسيحيي القرية . ولما ابصروا جموع الثوار قادمة نحوهم قابلوها بالرصاص ، فهجمت الجموع واحتلت القرية، وبقي الجند متحصنا في القلعة ودام الحال على هذا المنوال بضعة ايام واخيرا قرر الثوار مهاجمة القلعة فانقسموا الى اربع فرق واحاطوا بالقلعة من جميع اطرافها ، وعهدوا الى السيد نزيه المؤيد العظم بدخولها فقام بمهمته احسن قيام وتمكن من الوصول الى اسفل السلالم بواسطة خرق جدران الدور الموصلة اليها .

ووضعت السلالم على السور فتسلقها الثوار ودخلوا القلعة عنوة ببطولة نادرة تفوق الوصف . واحرقوا قسما كبيرا منها وقتلوا عددا عظيما من المحاصرين الذين لم يفروا ولم يختبؤوا في الاقبية الارضية ، والذين حال الليل دون الوصول اليهم ، وقد استسلم اليهم كثير من المسيحيين فلم يمسوهم بسوء بل اطلقوا سراهم حالا بعدما استولوا على اسلحتهم .

وفي الصباح اتت نجدات كبيرة من الجند مجهزة بالمدافع والدبابات والمصفحات ، ثم حلقت الطائرات فألقت على الثوار

مقادير كبيرة من المفرقات مما اضطرهم الى ترك البلد والاعتصام  
بالجبال .

حينئذ دخل الجنود القرية فقتلوا جميع من وجدوهم وفي  
مقدمة الجميع ، كان الشيخ نعمان وجميع افراد عائلته .

### استشهاد فؤاد بك سليم :

هذه خلاصة مختصرة لمعارك الاقليم الكبرى ذكرتها بصورة  
اجمالية ولما كنت عازما في اواخر تلك الايام على زيارة المناطق  
الجنوبية لتنفيذ بعض المهام السياسية سمعت في دار الوطني  
الكبير والبطل الشهيد المرحوم فضل الله باشا الهندي زعيم قرية  
(المجدل) خبرا قضت له المضاجع الا وهو خبر مصرع المجاهد  
المتماز واللوزعي المفادي ، المرحوم فؤاد سليم .

ان انسى لا انسى قدوم هذا البطل الى الجبل متطوعا في  
اواسط شهر سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٢٥ بعدما اقتحم الاخطار  
وخاض المناطق المحظور عليه المرور فيها ، فكان اول من رأته في  
الجبل من القادمين من المناطق الاخرى بعد اخواننا .

قص علي يومئذ كيف استطاع اقتحام صحراء التيه والمرور  
بفلسطين وشرقي الاردن مع كثرة العيون والارصاد وحرص  
السلطات المتنوعة على منع المتطوعين من الالتحاق بالثورة فشكرت  
له مساعيه وحمدت له وطنيته ثم رأته ملازما للقيادة العامة  
يتحمل اعباءها ويتحمل وعت السفر وشقاء المعيشة غير حريص  
على التفوق بل جعل نفسه داعية واداة منفذة .

ان هذا الا احتمال وراء شخصية باهرة وشجاعة نادرة وعقل  
راجح ، وهو الذي كلف بنشر الرسائل الوطنية البليغة في الاقليم  
باسم القيادة العامة وبعنوان : « الدين لله والوطن للجميع . »

وافاه اجله من قنبلة اصابتة عرضا وعفوا في احدى الطرق

في الاقليم ، فخر صريعا يتخبط بدمه .

وبعد فترة ابتدا تراجع الثورة في تلك الانحاء .  
ان اسم فؤاد سليم هو من الاسماء التي ستوضع في اوائل  
اسماء المرشحين لنيل الاولية في جهاد الميدان من بعد القائد العام .  
وهو لا شك مقرون دائما بالفحول امثال حمد البربور وفوزي  
القاوقجي وفضل الله هنيدي ونزيه المؤيد وصياح الحمود ، وزيد  
الاطرش وسعيد العاص ، وشوكت العائدي وحمد عامر وشكيب  
وهاب وعبد القادر سكر ، وابي محي الدين شعبان ، وعادل نكد  
وتوفيق هولو ونسيب الاطرش وسليمان العقباني وزين مرعي  
جعفر ومحمود ابويحيى واسعدكنج ومحمد شرف ومحمد عز الدين  
الحلبي وسلمان الاطرش والامير حسن الاطرش والامير عز الدين  
الجزائري، وغيرهم من كبار الرجال الذين لا تتسع لهم هذه العجالة  
للاحاطة بهم ولذكر اسمائهم .

وحسبنا ان نقول هنا ان العقل الراجح اذا انضمت اليه  
الشجاعة النادرة وكان الاخلاص حلقة الوصل بينهما تمثل امامنا  
شخص شهيد الوطن ، فؤاد سليم .



# معركة السويداء

في ٢٥ نيسان سنة ١٩٢٦

بعدهما فشل غاملان في هجومه على الجبل في سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٢٥ واضطر الى سحب جنوده الى الشمال عقيب الثورة في حماه ، نشر على الملأ ان سبب هذا الفشل هو قلة الماء فقال ان الجيش الصغير يعجز عن اقتحام تلك البلاد ، والجيش اللجب يموت فيها من العطش .

ثم اخذ في ذكر الخطط التي ينوي تطبيقها سريعا من احتلال صرفد في الجنوب وبناء القلاع في القرب الى اخر ما هنالك من الكلام .

لكن الواقع هو ان الفرنسيين خافوا مغبة الحوادث في الشام وحمص وحماه وحلب ، فأرسلوا جنودهم الى تلك الارحاء سدا للذرائع ، خصوصا بعدما بدرت البوادر في الفوطة ، وهبت العاصفة في حماه .

ثم مرت الاشهر الطوال والجبل خال من الجنود الا على الحدود في بصرى الشام وبصرى الحرير وازرع . ولولا قنابل المدافع من بعض هذه القلاع وزيارة الطائرات المتوالية للقري وخصوصا للسويداء حيث التدمير كان فظيما ، لقلنا ان الجبل

منذ اوائل اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٩٢٥ حتى اواخر نيسان سنة ١٩٢٦ كان في حالة سكون نسبي .

غير ان ذلك لا يعني ان المجاهدين في الجبل اخلدوا الى السكينة طيلة هذه المدة ، بل انهم خاضوا غمار الموضوعات السياسية في مؤتمرات عقدوها في قنوات وعتيل وشقة ودامة عقيب دعوة دو جوفنيل السلمية ، واحتلوا اللجاء ليهددوا السكة الحديدية في حوران ويقطعوا على الفرنسيين خط الرجعة .

### اثر دعاية دو جوفنيل في الجبل :

ومما هو حري بالتدوين ، ان الدعاية الجوفنيلية اثرت اثرا ظاهرا في الجبل ، حتى ان بعض الزعماء الكبار انتدبوا الشيخ اسماعيل عز الدين من اهالي ( السويداء ) ليحمل كتابا الى القومندان (كوستيلير) في درعا وفيه الشروط التي يطلبونها وقد عاد المندوب الى السويداء في اليوم الرابع عشر من يناير ( كانون الثاني) سنة ١٩٢٦ فقال :

« قابلت كوستيلير في درعا وعرضت عليه الرسالة فاجابني لا اسمح ابدا ان يكون هنالك في الجبل زعيم . وان هذه المفاسد هي من الدكتور شهنندر وهو رجل (قرماسون) لا دين له . والشروط التي نطلبها هي ان تعيدوا جميع الاسلحة الفرنسية وتؤدوا ثمن الخيل الاميرية التي بعتموها في شرق الاردن ، وتعيدوا بناء القلعة وسائر دور الحكومة الى حالها السابق وتضعوا سلاحكم في محل تأمين عليه وتأتوا خاضعين بعد اخراج الدكتور شهنندر من الجبل ، ولا بأس ان تجتمعوا للمذاكرة ولكن على شرط ان تضعوا على صدر رسالتكم اشارة خضوعكم ثم توقعوا عليها لا بصورة فردية بل بعدد كبير من الرجال ، منعا للزعامة التي تأبأها فرانسة . وكان احد رجال الدروز الكبار موضوع نقده الخاص ، وفي النهاية قال كوستيلير : « ولا بد من استدعاء جميع

العصابات التي تعبت بالامن خارج الجبل ، وانني لا اضمن العفو  
عن احد » .

### !فساد خطة كوستيلير :

كان الدروز يوم عودة الشيخ اسماعيل عز الدين في ( شقة )  
للمداولة في الشؤون فرايت الفرصة سانحة لاطلاعهم على نيات  
الفرنسيين ، فأرسلته اليهم قبل تفرقهم فلقبهم في اليوم الثاني  
وقص عليهم هذا الحديث الفظ الخالي من كل ادب وحنكة .

فبلغت الحماسة في رؤوسهم ذرى المفارق حتى ان فضل الله  
باشا هنيدي حلف يمينا غموسا ان لا يسمح لاحد من الهنديات  
الذين هم على اقل اتصال بالفرنسيين بالبقاء في الجبل ومن ثم  
اتخذ المجتمعون قرارا بان يذهب كل فرد من كل بيت معروف في  
قرية ( ذيبين ) ليحرقوا بيت فارس الاطرش و ( للمجيمر ) ليحرقوا  
بيت سليمان عبده الاطرش وهما زجلان قد خانا العشيرة وعبثا  
بالوطن وقد تنفذ القرار هذا فيما بعد ، ثم انهم تحالوا على  
الاستمرار في الحرب بصورة جدية .

ثم ان هذه الخطة التي ارتكبها القومندان كوستيلير هي  
الثانية من نوعها ، الا اذا كان هو وحزبه من طفاة العسكريين  
قاصدين دوام الثورة .

والخطيئة الاولى هي ما مر معنا من امتناع الجنرال ساراي  
من مقابلة الزعماء .

### قرار المجتمعين في الجبل :

وكان من نتائج هذا الخطأ الفادح ان تقرر في ( شقة ) ايضا ان  
تقدم ربع محاربيها بالتناوب للاستمرار على الثورة وان يشمل  
الحريق بيوت غير من ذكرنا امثال نجيب عامر وتركي عامر وعبد  
الكريم نصر ، وان يكتب الى كوستيلير كتاب يليق بكلامه ويشمل

## مطالب الثورة .

ثم تقرر تأليف لجنة لإدارة الجبل وبحث في قضية حملة الفوطة بقيادة فوزي بك القاوقجي بحثا مستفيضا .

ويظهر لي ان العامل المؤثر في تصلب الفرنسيين هو (اندريا) وغاملان في الدرجة الاولى .

ثم اننا عقدنا في السويداء مساء الاثنين الواقع في ١٨ يناير (كانون الثاني) جلسة للتفاضل بين حملة تذهب الى الفوطة او حملة تذهب الى اللجاء وهوران ، فترجحت لدينا هذه باكثرية الاصوات للاسباب التالية :

للقرب وخطورة النتائج والسرعة الضرورية والاستغناء عن الرواتب الضرورية لمثل حملة الفوطة ، وقد ذهب المجتمعون الى ان حملة حوران اذا كتب لها النجاح ، تريح الفوطة وتخفف الوطأة عن سائر المناطق الشمالية .

وبينما كنا نسير في تنظيم الثورة على هذا النحو كان كوستيلير يتآمر مع ظاهر القنطار وابراهيم الاطرش على اغتيالي . واول من كشف لي الفطاء عن ذلك (.....) اذ ان لوالد صهرها ، ابراهيم بك الحاصباني اتصالا مباشرا بالمتآمرين وقد قصت علي الحديث في اليوم التاسع عشر من يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٢٦ وذكرت لي مقدار المال الوافر المعروض لتنفيذ هذه المؤامرة .

وفيما بعد ذكر لي ابو محمد نسيب صخر ان ابراهيم الاطرش المذكور وعده بخمسمائة ليرة ذهب عثماني اذا هو استطاع ان يسهل دخول داري ليلا وفتح باب حجرتي فأبى .

## تنظيم العمل في الثورة :

وكان همنا في تلك الايام منصرفا الى تنظيم مناطق الثورة

ووضع اسس الاتفاق بدلا من الفوضى ومقاومة الخونة مقاومة عنيفة ، بيد انه من دواعي الاسف ان تكون عادات البيوتات والثارات في الجبل مانعة من تنفيذ هذه المساعي وابقاع القصاص الصارم في هؤلاء الاسافل . .

وكان من نتائج هذه المساعي الاتفاق على كتابة عهد امضاه مشايخ عرمان وملح وامتان والهوية وقيصمة والحريسة وابو زريق وشعف دهبم وتل اللوز وطليلين ، وفيه يقسمون بان يتخذوا .

- ١ - الامتناع عن الشر وعلى اتيان الخير .
  - ٢ - على التبرؤ من كل من يرأسل العدو او يقابله .
  - ٣ - على تأديب من تثبت عليه الشبهة «بفرشه» اي بسط داره للنهب وهدر دمه .
  - ٤ - على التآخي التام والتعاون اللازم في الداخل والخارج .
  - ٥ - تنفيذ هذا العهد منوط بفتيان الوطن الفيورين .
- وكان الاخوان في السويداء يضعون يومئذ لهؤلاء «الفتيان» قانونا يتمشون عليه .

### مفادرتي للسويداء :

غادرت السويداء في اليوم الحادي والعشرين من يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٢٦ للاجتماع باحد المندوبين السياسيين الوطنيين خارج مناطق الثورة في الجنوب ، فمررت على ام الرمان حيث التقيت باصحاب العهد يوقعونه من مشايخ هذه القرية الحرة ، وكان لا بد من مروري في طريقي الى الجهات على القرى الملاصقة ببصرى الشام حيث العدو متحصن بخيله ورجاله فتقدم الفتيان لحراستنا وعلى رأسهم جاد الله بك البربور فأخذوا يعدون على ظهور الصافنات الجياد ، امام سيارتنا الى ان ادخلونا قريتي

صاد) و (سمع) الموحشتين ، ثم في قرية (طيسيا) الخالية من السكان وجدنا اثار الفرنسيين وعسسهم وكيف كانوا يقطعون السبيل على المارة .

هذه كانت احوال الحدود بيننا وبين الاعداء وعلى مثل هذا الخراب كانت القرى المجاورة .

### الشركس :

ولقد لقيت في قرى جماعة «الششن» في الجنوب من حسن الوفادة وكرم الضيافة والعطف والتبرؤ من اعمال الشركس المتطوعين في خدمة المستعمرين ما يسجل لهم بمداد الفخر .

ان «الششن» والحق يقال ، على جانب من الشعور الحي وقد ذكروا لي ان كثيرا من الشركس في بلاد القفقاس كانوا يخدمون في جيش القيصر الروسي لسحق الحركات الوطنية وهذا ما يتفق مع سيرتهم في الاناضول ايضا يوم تطوعوا في خدمة اليونان المفتصين لسحق الترك الوطنيين . ولا بد ان هذه النزعات ستحدث لما جارحا في نفوس الشاعرين منهم بدخائل الامور .

### حركة مجحم الشعلان :

ومن الحوادث المؤلمة التي حدثت في غضون هذه الرحلة ان مجحم الشعلان ممن يدعون التدين على الطريقة الوهابية هاجم الازرق على ارض تدعى البقاوية صباح سفري من السويداء فاغار على نحو خمسين بيتا من عرب المساعيد رعيان الدرور في حين كانت البلاد من اقصاها الى اقصاها تتفاعل بقرب مجيء المتدينة لمساعدة المجاهدين .

وقد احدث بعمله هذا تأثيرا سيئا تلافاه الاخوان في فلسطين بالكتابة الى المراجع الايجابية .

ومما هو حري بالتدوين ويدل على اشتراك سكان البادية في

العطف على هذه الثورة الا ما كان ناهرا في شذوذه ما احبرني عنه (حديثه الخريشة) شيخ الخرشان ومثقال باشا الفايز شيخ صخر بقولهما ان الفزوات هذه السنة كانت نادرة جدا بالنسبة الى السنين الماضية ، لان البدو حرموا على انفسهم الفارة على هذه البادية خشية ان يصادموا فيها المجاهدين او يسلبوهم حلالهم .

### عقاب الجواسيس :

واتفق لي يوم عودتي الى السويداء من رحلتي الى الجنوب ١٢ فبراير (شباط) مساء ان الدرك قطع يدي الجاسوسين شفيق التراز وصويصي الشنيبلي اللذين لعبا اخطر الادوار في الخيانة بعد ثبوت الجرم عليهما . فأذاع (رويترو) و (هافاس) كما اذاع المسيو دو جوفنيل امام عصبة الامم فيما بعد ، اني انا الذي قطعت اليدين من غير شك ، مع ان التنفيذ جرى في غيبتني ، ولو كنت حاضرا لمنعته لان الجاسوسين المذكورين لا يستحقان قطع اليد بل لانهما يستحقان خلع الرقبة .

وقد اخطأ الدرك ومن اشار عليه بهذه الرحمة التي كانت آلة للدعاية في ايدي الفرنسيين .

### مؤتمر في « دامة » :

وفي المنتصف الثاني من شباط تم الاتفاق بيننا وبين سلطان باشا على الزحف على اللجاء فأخذت الجموع تحتشد من كل مكان ، وفي مساء الخميس الواقع في الخامس والعشرين من الشهر المذكور عقدنا جلسة تاريخية في اللجاء داخل قرية « دامة » في بيت شبيب بك القنطار حضرها عدد كبير من الزعماء :

سلطان باشا وعبد الغفار والمرحوم الامير حمد وصياح بك الحمود وسليمان بك وفضل الله بك من الطرشان ومن العوامرة علي بك وهائل بك والامير عادل ارسلان ، وتوفيق بك هولكو حيدر

وعلي بك عبيد وجابر بك الصغير وغيرهم لاجل البحث في الدعوة السلمية التي نشرها دو جوفنيل ، فتقرر ارسال جواب مؤلف من ست مواد معروفة ، الا انه كان شديد اللهجة جدا وخاليا من المرونة السياسية المطلوبة ، وفي ختامه طلب الجلاء عن سورية عقيب المجلس التأسيسي بشهرين والامضاء : الشعب الدرزي .

وهذا خطأ فادح ايضا ، اطلع المسيو دو جوفنيل على هذا الجواب فنشر في الصحف بيانا مختصرا اشد منه ذكر فيه : ان لا سلم ولا مفاوضة الا بعد ان يخضع الثوار ويلقوا سلاحهم . ويعد قرار مؤتمر دامة هذا وبيان دو جوفنيل عليه طورا جديدا في تاريخ الثورة السورية ، انقطعت من بعده الوسائل السلمية ، ولم يعد امام سورية للوصول الى حقها المغصوب الا الاستمرار على الحرب .

هل كان بالامكان لولا قرار دامة يا ترى الوصول بالمفاوضة الى حل سلمي . وهل كان دو جوفنيل صادقا في اظهار ميوله الصلحية ومؤمنا بالبيانات التي نشرتها الصحف عنه يوم كان قادما الى سورية . وهل ثبت فيما بعد انه كان قبيل تعيين (بونسو) خلفا له من اقرب التوسيعيين الى القضية السورية مودة، وانه الوحيد الذي اظهر عطا او تظاهرة ؟

هذه اسئلة ليس من المستطاع الجواب عنها الان بل تترك الى الاجيال القادمة وربما عرف عنها اخواننا في اوربا ومصر اكثر منا .

### الزحف على اللجاء :

وفي صباح الجمعة الواقع في السادس والعشرين من شهر فبراير المذكور غادر المجاهدون قرية (دامة) الى لب اللجاء في حوران فاحتلوا من غير مقاومة تقريبا قرية (جبدل) وسائر القرى الاخرى وانهزم من امامهم طلال ابن ابي سليمان واحمد الفصين



وغيرهما من الشيوخ الذين ابتاعهم الدولة المستعمرة بالمال ،  
والدراهم البخرية .

ومن ذلك اليوم أصبح اللجاء في قبضة الثوار الى نحو  
المنتصف من شهر نيسان اذ استعد الجنرال (اندريا) للزحف  
على السويداء .

وغير نكير ان الفرنسيين اهتموا اشد الاهتمام لسقوط  
اللاجاه بيد المجاهدين وعرفوا ان اتصالهم بحوران لاسيما بقلعة  
بصرى الشام ودرعا أصبح مهددا لان قرية خيب الواقعة على  
السكة الحديدية الحورانية لم تبعد عن «صور اللجاء» غير ساعتين .

بيد ان العربان في اللجاء ، الا القليلين منهم ، وقفوا انفسهم  
في خدمة الفرنسيين فكانوا عقبة في سبيل الثورة كؤدا ، ولا  
انكر ابدأ الخطأ الذي ارتكبه بعض المجاهدين بقتلهم اخا طلال  
المذكور مما ادى الى حرب بحوران بين العربان وبين المجاهدين ،  
سمعنا طلقات نيرانه في قرية «صور» ومن المؤسف كثيرا ان يقع  
على مهاجري الاقليم ثأر هذا القتل .

فقد رأيتهم في قرية «لبين» وهي من قرى اللجاء في مساء  
الجمعة الواقع في ٩ من شهر نيسان (ابريل) بحالة تفتت الاكباد  
وذلك بعدما اكتسحت ديارهم الجيوش المستعمرة ومن ورائهم  
شرازم المأجورين والمتعصبين .

# نهایة الثورة

« لم يتناول الدكتور عبد الرحمن شهبندر في مذكراته المراحل الاخيرة من الثورة السورية (١٩٢٥ - ١٩٢٦) على اننا نرى لتمام هذا الموضوع التاريخي ان نشير الى هذه المراحل بلمحة موجزة يقف منها القارئ على الظروف القاسية التي عاشها المجاهدون السوريون بعد ان تمكنت قوى الاستعمار الفرنسي من كبح نشاطهم الوطني المسلح والجاتهم الى مفارقة الاراضي السورية ليعيشوا حياة الضنك والبؤس والتشريد في منطقة الازرق من بلاد الشرق العربي (المملكة الاردنية الهاشمية حاليا) .

## خاتمة الطاف :

احتل الفرنسيون السويداء على اثر معركة ضارية مع المجاهدين من السوريين وبني معروف يوم ٢٥ نيسان سنة ١٩٢٦ استمرت طوال النهار والليل اشتركت فيها الدبابات على الارض والطائرات في السماء ، واضطر المجاهدون الى الانسحاب للشرق، فنزل سلطان باشا الاطرش واخوانه على مكان يقال له «عين الخشبة» كما نزل الدكتور عبد الرحمن شهبندر واخوانه بقرية «سالة» .

وفي سالة عقدت عدة اجتماعات بين الزعيمين الاطرش والشهبندر واتفق الرجلان الكبيران على الاتصال بالمرحوم الملك فيصل الاول وتسليمه مذكرة بمطالب البلاد لعرضها على المراجع المختصة في اوروبا وقد تم الاجتماع فعلا بين الزعماء السوريين والملك العربي وعقد الجميع جلسة بالقرب من القياسة على طريق بغداد الى الجنوب من القرية المذكورة شهدها بالاضافة الى الدكتور شهبندر والملك فيصل كل من سلامة بك الاطرش والامير حسن الاطرش وعلي بك المصطفى الاطرش ونزيه بك المؤيد العظم وعلي ذوقان بك الاطرش وكذلك رستم بك حيدر وتوفيق بك السويدي وتحسين بك قدري .

وفي اول اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٩٢٦ غادر الدكتور شهبندر جبل الدروز لآخر مرة وبرفقته سلطان باشا الاطرش ونسيب بك البكري فتعشوا خلسة في بيت شيخ «العانات» وهي قرية على مرمى الرصاص من معسكر الفرنسيين في تل الخضر .

وفي اخر الليل واصلوا سيرهم الى الازرق فبلغوه صبيحة اليوم التالي وكان يوم الاثنين ١٤ (توبر) تشرين الاول سنة ١٩٢٦ .

الناشر

\* \* \*

# المسحق

مذكرة الشيخ محمد بن عبد ربه إلى وزارة الخارجية الفرنسية



وفي ختام هذه المذكرات فاننا نسجل المذكرة الصاخبة التي كتبها الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الى الحكومة الفرنسية بباريس .

وقد تضمنت نصوصها شرحا ضافيا للعوامل المباشرة التي ادت الى اثاره الخواطر وازدياد النعمة الشعبية ثم اندلاع نيران الثورة الوطنية التي انطلقت شرارتها الاولى من معاقل جبل الدروز ثم ما لبثت ان عم لهيبها المقدس اكثر البلاد السورية واستمرت نيرانها متأججة في الجبال والوديان والسهول اكثر من سنتين دون فتور ولا انقطاع . والتهمت آفا من الارواح البريئة التي قدمها الشعب السوري المجاهد قربانا مقدسا على مذبح الحرية والكرامة والاستقلال . وكانت معاركها الضارية صفحة وضاعة مشرقة من صفحات النهضة العربية في كفاحها ضد الاستعمار الفرنسي الفاشم في الشرق .

### الناشر

نص المذكرة التي قدمها الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الى وزارة الخارجية الفرنسية يبسط فيها اسباب الثورة السورية واغراضها .

اتشرف بان ابسط لسعادتكم اسباب الثورة التي نشبت

اخرا في جبل الدروز والنتائج المنتظرة منها والحالة الحاضرة في  
سائر انحاء سورية :

بعد وفاة سليم باشا الاطرش سنة ١٩٢٣ عين المنسوب  
السامي الفرنسي الكابتن كاربيه حاكما على الجبل خلافا  
للاتفاق المبرم مع الدروز ، وهذا الموظف الذي اشتهر بسوء  
السيرة في حياته الخاصة والعامة ، واعتمد على فريق من الموظفين  
الذين فسدت اخلاقهم . نهج في الجبل سياسة الارهاب والتنكيل  
فبدلا من ان يدير شؤون البلاد عمد الى دس الدسائس والتفريق  
بين ابناء البلاد .

واليكم مقتطفات من وثيقة طويلة قدمت رسميا الى الجنرال  
ساراي في ٦ يونيو (حزيران) سنة ١٩٢٥ عن اعمال الكابتن  
كاربيه :

١ - كان عدد من رجال الجندرية المسلحين بالعصي  
مخصصين لاهانة الناس وضربهم تنفيذا لرغائب الكابتن كاربيه  
ورجال حاشيته بدلا من ان يقوموا بالواجبات المفروضة عليهم .

٢ - اعتقل حامد قرقوط من اعيان قرية ذيبين مدة خمسة  
اشهر من دون سبب ولا محاكمة ، وكان يهان ويضرب في الصباح  
والمساء لاقل وشاية من احد الجواسيس .

٣ - جلد المدعو حسين كابول من قرية (رعية اللحف) حتى  
مزق لحمه لانه اهمل ان يحيي الكبورال «ديوشيل» في اثناء مروره  
على الطريق العام .

٤ - اعتقل المدعو وهبة الشعوش وضرب ضربا مبرحا في  
السويداء لانه رفض ان يؤجر منزلة .

٥ - اطلق الكبورال (ديوشيل) عدة طلقات من مسدسه على  
محمد بك الحلبي مدير العدلية العام ، ولم ينل اقل عقاب على

عمله الجنائي هذا .

٦ - اعتقل المدعو حسين صديق ١٥ يوما لانه لم يذهب لاستقبال الكابيتين كاربيه ، وفرضت غرامة على القرية قدرها ٢٥ جنيها ذهبيا لانها لم تستقبله استقبالا فخما . وقد فرضت مثل هذه الغرامة على قرية عرمان للسبب نفسه .

٧ - اعتقل فهد بك الاطرش قائمقام صلخد وضرب ضربا مبرحا دون تحقيق بناء على وشاية بسيطة من احد الجواسيس .

٨ - فرضت غرامة على سكان السويداء قدرها عشر جنيهات لضياح قطة الليوتنان (موريل) .

فهذه الحوادث وامثالها والافتئات على حقوق البلاد ، كل ذلك حمل الاهلين على الثورة ، ويخطيء من يعتقد ان الوطنيين وحدهم هم الذين اثاروا حركة الاحتجاج هذه .

فان المعتدلين انضموا اليهم . وقد الف وفد وذهب لبث شكواه وتقديم عريضة تتضمن رأي الجبل ومطالبة .

ورفض الجنرال قبول هذا الوفد ، رفضا فيه كل معاني الاحتقار والتهديد ، فزاد بعمله هذا غير المنتظر هياج الافكار الناشىء عن ادارة الكابيتين كاربيه ، ولم تقتصر السلطة على الاحتقار والتهديد ، بل جردت على الجبل الهاديء المسالم حتى تلك الساعة قوة قوامها بضع مئات من الجند بقيادة القومندان (توما مارتان) الذي اسديت اليه نصائح كثيرة بالعدول عن سياسة الشدة ومعالجة المشكلة باللطف واللين ، ولكنه لم يرد ان يستمع شيئا . وقد استهل عمله باعتقال عدد من الزعماء تمكن من اعتقالهم لقربهم منه وارسلهم الى المنفى ثم وجه قسما من قوته للقبض على زعماء اخرين ، وكان ذلك فاتحة الثورة ، اذ لم يبق احد امينا على حياته او على ممتلكاته .



ولكن القوة هذه ، ابيدت في الكفر يوم ٢٢ يوليو (تموز) سنة ١٩٢٥ قبل ان تحقق امنيته . ولم تشأ السلطة ان تعد هذا العمل انذارا كافيا ، بل واصلت مغامراتها التي انتهت بنكبة المزرعة في ٢ اغسطس (آب) سنة ١٩٢٥ و ٣ منه ، على الرغم من النصائح التي اسديت الى ولاة الامور ، وكانت نتيجة هذه السياسة ابادة بضعة الاف من الجنود الفرنسيين الساكنين . ولا تزال القوات الفرنسية تصادف الصعوبات عينها حتى يومنا هذا .

ولا تزال الثورة التي نشبت في جبل الدروز تتسع نطاقا حتى اوشكت ان تعم سورية كلها . وهذه نتيجة لازمة لسياسة الضغط والارهاق التي وضع اساسها الجنرال غورو ، وسار عليها خلفاؤه من بعده .

اما قواعد هذه السياسة فهي :

- ١ - جمع كل انواع السلطة في يد المفوض السامي .
- ٢ - خنق كل الافكار الحرة .
- ٣ - استغلال البلاد واهلها من غير ابقاء على شيء .

وقد اعتزلت العناصر الوطنية المتنورة العمل ردحا من الزمن ، متوقعة فشل هذه السياسة من جهة وانتهاج طريق اخرى تكفل للبلاد حقوقها وتحقق الآمال التي اعربت عنها بلسان الجماعات التي فوضتها من جهة أخرى .

على انه لم يطرأ أي تعديل جوهري ، مع ان النتائج جاءت سيئة جدا . وكانت البلاد التي بدأت تنتعش بعد الحرب قد وقعت في أزمة اقتصادية ومالية لا مثيل لها ، فلم تفعل السلطة شيئا لتخفيف هذه الازمة بل وجهت كل مساعيها لاستغلال دافعي الضرائب بفرض رسوم وضرائب جديدة ، وحسب القارىء ان يلقي نظرة اجمالية على احوال التجارة والصناعة والزراعة

ليدرك حقيقة الازمة الاقتصادية والمالية التي عانتها البلاد بين سنتي ١٩٢٠ و ١٩٢٥ ، فان الثروة العامة نقصت نقصاً عظيماً بينما كانت الضرائب تزداد على نسبة أعظم .

وقد اتضحت الغاية المنشودة حينئذ ، وهي اقناع البرلمان والحكومة في فرنسا واقناع العالم كله بان سورية أخذت تثري وان الدليل على ثروتها كثرة الضرائب المفروضة عليها .

وإذا صرفنا النظر عن الحالة السياسية ، ونظرنا الى الحالة الاقتصادية لم نرها احسن منها لان المفوض السامي ظل مصدراً لجميع انواع السلطات ، من تشريعية وتنفيذية وقضائية . ولم يكن للمجالس التمثيلية التي منحوها البلاد سنة ١٩٢٣ اقل سلطة . وقد اصبحت الحكومة المحلية شبهاً يمثل المفوض السامي أكثر مما يمثل البلاد .

واشتد الاستياء ، واصبح عاماً فقامت البلاد غير مرة تحتج على هذه الحالة التي كانت تسير عليها الى الفوضى التي هي فيها الان . وقد افهم ولاة الامور ان طريق الحل الوحيد ، هو تأمين سيادة سورية بانتخاب مجلس تأسيسي ينظم دستور البلاد ويضع اساس علاقاتها الودية مع المحافظة على حقوق سورية ومصالح فرنسا في وقت واحد ، على ان يكون هذا الانتخاب حراً .

لكن هذه الرغائب لم ترق الموظفين الذين تعودوا ارضاء شهواتهم من دون مراقبة ولا مسؤولية . فان بعض كبار الموظفين الفرنسيين وجدوا في البلاد خدماً مخلصين ، فالفوا معهم شركة لاستغلال السكان على حساب فرنسا وسورية استغلالاً يجنون كل فائده لانفسهم ، وقد صادفت هذه الشركة نجاحاً عجبياً في جميع مشروعاتها الخاصة ، وهكذا اذن تتحققون ، ان قمتم بتحقيق دقيق ، ان كثيرين من هؤلاء الموظفين جمعوا ثروات طائلة وتركوا في البلاد آثاراً من مساوئهم وفضائحهم لا يمكن

تُصديقها .

وان الكابتن كارييه وحمدي الجلاد الذي بقي مديرا  
البوليس اربع سنوات ونصف السنة هما في سورية من اكبر  
الشواهد على ذلك .

ولما تحقق الوطنيون السوريون ان الحالة تسير من سيء الى  
أسوأ ، قرروا تأليف حزب باسم «حزب الشعب» فأفرغت  
السلطة قسارى جهدها لمنعهم من ذلك ، ولم يحصلوا ، الا بعد  
جهد جهيد ، على ترخيص الحكومة لهم بالاجتماع في شهر مايو  
(ايار) سنة ١٩٢٥ .

والتفت اكثرية سكان البلاد حول هذا الحزب ، كما ثبت  
للمسيو «اوغست برونه» في أثناء قيامه بالمهمة التي انيطت به  
في سورية في شهر يوليو (تموز) سنة ١٩٢٥ .

وقد سار هذا الحزب على الطريق المشروعة لتحقيق الاماني  
الوطنية وحاول ان يقنع الجنرال ساراي وكبار الموظفين  
الفرنسيين بان الوطنيين السوريين ليسوا اعداء لفرنسة ولكنهم  
يريدون خدمة بلادهم بتأمين حريتها وحقوقها المهضومة واقامة  
نظام وطيدي فيها على قاعدة الاماني الوطنية لا المنازعات الطائفية  
التي لا تزال تسير بها حتى الان الى الخراب والدمار .

وحاولت الحكومة المحلية ومن ورائها كبار الموظفين في  
المفوضية السامية ، غير مرة ، ان يخنقوا معارضة «حزب  
الشعب» لاسباب خاصة .

ولما نشبت الثورة الدرزية للاسباب التي بسطتها آنفا، تمكنت  
السلطة من انتهاز الفرصة للانتقام من حزب تألف لتحقيق برنامج  
بالوسائل المشروعة .

وقد قبض على كثيرين من اعضاء «حزب الشعب» وابعدوا

بلا سبب الى جزيرة ارواد حيث عوملوا اسوأ معاملة وتمكن  
آخرون من الفرار قبل قوات الاوان .

وضاعف هذا العمل الفجائي غير المعقول الصعوبات القائمة  
في البلاد ، وكانت اندارا بالجلء . وكانت السلطة بالتجائها الى  
مثل هذه الاعمال القاسية غير المشروعة قد اهاجت سخط الاهالي  
الناقمين ، واقنعت اكثرية الوطنيين السوريين بان الوسائل  
السلمية المشروعة لا تؤدي في حال ما الى تحقيق آمال شعب من  
الشعوب ، وان دعاة الوسائل السلمية يكونون دائما ضحايا  
القوانين التي يريدون احترامها .

وهكذا اخذت بؤرة الاضطراب تتسع بالتدرج اذ لا يعلم  
احد ماذا يحدث في الغد اذا لم تبذل المساعي لمعالجة المشكلة  
بالحكمة والعدل .

وارى من واجبي ان اقول قبل ان اختتم هذا الكتاب :

ان فرنسة لن تحافظ على نفوذها في هذه البقعة من بقاع  
الشرق بقوة السلاح ، وانما تستطيع ان تفعل ذلك بانتهاجها  
سياسة المسالمة واعترافها بحقوق سورية المشروعة . واستطيع  
أن أؤكد لكم أن أكثرية الشعب السوري على استعداد للتفاهم  
مع فرنسة على قاعدة سيادة سورية القومية مع المحافظة على  
مصالح الفرنسيين .

وتفضلوا في الختام ، بقبول فائق احترامي

**الدكتور شهنذر**

الصفحة	الموضوع
٥	تعريف
٧	اقسام الكتاب
	القسم الاول : مذكرات الدكتور عبد الرحمن
٩	الشهبندر في السجن عام ١٩٢٢
١١	مقدمة
١٥	كرابن في سورية
٧٤	الشهبندر في سجن القلعة
١١٦	المحاكمة وأسرارها
١٢٠	يوم المحاكمة
١٣١	السجن في قلعة بيت الدين
١٤٧	القسم الثاني: مذكرات الشهبندر عن الثورة السورية
١٤٩	تمهيد
١٥٥	إبتداء الثورة
١٥٨	إعلان الثورة
١٨٠	الثورة في حماه
١٨٤	معركة الشام الكبرى
١٩١	حسن الخراط
١٩٧	الثورة في النبلك
٢٠١	الثورة في الإقليم
٢٠٨	معركة السويداء
٢١٧	نهاية الثورة
٢١٩	الملحق :
٢٢١	نص مذكرة الشهبندر الى وزارة الخارجية الفرنسية